3

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب:.زادهم هدى: مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
رقم الكتاب في السلسلة: الثالث.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/zadhm
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.
إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لموح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
راجع كتبَ السلسلة وحكَّمها مجموعةٌ من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة — هذا الكتاب
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة، منطلقًا من حاجة العبد الدائمة إلى هدى الله. فالهداية ليست معرفةً يحصل عليها الإنسان مرة ثم يستغني عنها، بل نعمة يحتاج إلى سؤالها وشكرها والعمل بمقتضاها والثبات عليها. ومن هنا يبدأ الكتاب من سؤال قريب من حياة كل مسلم: لماذا يظل يطلب الهداية في صلاته وهو على طريق الإسلام؟

ويمضي الكتاب من بيان مصدر الهدى وافتقار العبد إلى توفيق ربه إلى اختلاف أثر الوحي في القلوب، ثم يتتبع أسباب الهداية التي يفعلها العبد، من طلب الحق والرجوع إليه، والإيمان والتقوى، وحسن تلقي الوحي، والطاعة والاعتصام، والمجاهدة والعلم والصحبة. ويكشف كيف يزيد الهدى بالاستجابة والعمل، وكيف يظهر أثره حين ترتفع كلفة الالتزام بالحق.

ثم ينظر في موانع الهداية: الإعراض والهوى والاستكبار وفساد العمل، وما قد تصنعه المصالح والانتماءات والذنوب في بصيرة القلب. ويتتبع سنة زيادة الزيغ من بدايات الانحراف إلى استحكام الحجاب، قبل أن يفتح باب العودة بالتذكر والتوبة، ويبيّن حاجة المؤمن إلى الدعاء والعمل حتى يثبت على الطريق. ويقصد بذلك أن يرد القارئ إلى موضع مسؤوليته، لا أن يمنحه ميزانًا يحكم به على بواطن الآخرين. فالغاية أن يزداد بصيرةً بحاجته إلى ربه، وأن يتحول ما يعرفه من الحق إلى استجابة حاضرة في اختياراته، وأن يبقى باب الرجوع مفتوحًا في قلبه ما دام يسير إلى الله.

فهرس المحتويات

بيانات النشر والحقوق 2

مقدمة الكتاب 1

لماذا نقول: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] ونحن مسلمون؟ 1

المحور الأول: هدى الله الذي لا هدى سواه 5

الوحدة الأولى: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ [الفاتحة: 6]: الحاجة إلى هدى الله 5

الوحدة الثانية: كيف يصل هدى الله إلى الإنسان؟ 12

الوحدة الثالثة: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] 17

الوحدة الرابعة: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: 88]: الأسباب عبودية لا ثمن 23

المحور الثاني: القرآن الواحد بين قلبين 31

الوحدة الخامسة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] 31

الوحدة السادسة: الوحي الواحد بين زيادة الإيمان والخسار 39

المحور الثالث: أسباب الهداية التي يفعلها العبد 47

الوحدة السابعة: قلب يريد الحق ويرجع إليه 48

الوحدة الثامنة: الإيمان والتقوى اللذان يفتحان البصيرة 51

الوحدة التاسعة: كيف يتلقى القلب الوحي؟ 55

الوحدة العاشرة: الطاعة والاعتصام: كيف تلزم الطريق؟ 59

الوحدة الحادية عشرة: المجاهدة والعمل بما عرفت 62

الوحدة الثانية عشرة: العلم الذي يهدي 67

الوحدة الثالثة عشرة: الصحبة التي تحفظ الاتجاه 70

المحور الرابع: سنة زيادة الهدى 75

الوحدة الرابعة عشرة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17] 75

الوحدة الخامسة عشرة: كيف يزيد الإيمان والهدى؟ 81

الوحدة السادسة عشرة: محك اتجاه القلب وثمار الهداية 87

الوحدة السابعة عشرة: حين تصبح الهداية مكلفة 93

المحور الخامس: موانع الهداية 100
الوحدة الثامنة عشرة: الإعراض: أول الطريق الآخر 101
الوحدة التاسعة عشرة: الهوى والاستكبار: حين ترفض النفس حكم الحق 106
الوحدة العشرون: فساد العمل الذي يحجب البصيرة 112
الوحدة الحادية والعشرون: حين يصبح الانتماء والمصلحة أقوى من الحق 117
الوحدة الثانية والعشرون: الذنب الذي يصنع حجابًا 122
الوحدة الثالثة والعشرون: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]: صناعة الضلال من حول الإنسان 128
المحور السادس: سنة زيادة الزيغ 135
الوحدة الرابعة والعشرون: من الزيغ إلى صرف القلب 136
الوحدة الخامسة والعشرون: حين يستحكم الحجاب في القلب 140
المحور السابع: العودة والثبات 148
الوحدة السادسة والعشرون: التذكر والتوبة: كيف يعود القلب؟ 149
الوحدة السابعة والعشرون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: 8]: الثبات حتى اللقاء 155
خاتمة الكتاب 163
الملحق العلمي 164
دليل الألفاظ القرآنية الحاكمة في مسار الهداية والزيغ والعودة 164

مقدمة الكتاب

لماذا نقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] ونحن مسلمون؟

الحمد لله الذي أنزل كتابه هدىً ورحمة، وفتح لعباده أبواب معرفته وطاعته، ودلهم على الطريق إليه، ثم أمرهم أن يسألوه الهدى ما داموا أحياء. والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وبيّن سبيل الرشاد، وحذّر مسالك الغواية، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

يقف المسلم بين يدي ربه في كل ركعة، وقد آمن بالله وكتابه ورسوله، ثم يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 6-7]. يكررها العالم والعامي، والمستقيم والمقصر، ومن عرف الإسلام منذ أيام ومن أمضى عمره في الطاعة. ولو كانت الهداية بابًا يدخله الإنسان مرةً ثم يستغني عن سؤالها، لما جعلها الله قلب صلاته، ولا أبقاها على لسانه حتى آخر العمر.

فما الذي يطلبه المسلم حين يقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6]؟ يطلب أن يعرّفه الله الحق حين يخفى، وأن يفتح قلبه لقبوله حين يظهر، وأن يعينه على العمل به حين تثقل كلفته، وأن يزيده بصيرةً بعد الطاعة، ويرده إلى الطريق إذا زل، ويحفظ قلبه من أن يرى الباطل حقًّا أو يجعل هواه ميزانًا للوحي. إنه لا يسأل مجرد معرفة الطريق، يسأل أن يُقاد إليه، وأن يسير فيه، وأن يبقى عليه حتى يلقى الله.

ليس كل من عرف انقاد. قد يكون الحكم حاضرًا والدليل محفوظًا، ثم تبقى الكلمة الأخيرة لخوفٍ أو مصلحة أو صورة عند الناس. ويسمع اثنان آيةً واحدة؛ فتوقظ أحدهما وتقوده، وتمر بالآخر فلا تجاوز سمعه، وربما استعملها مادةً جديدة للدفاع عن اختياره السابق. القرآن واحد، والحق واحد، وإنما تختلف القلوب في هيئة التلقي، وفيمن تمنحه حق الحكم عند لحظة القرار.

لهذا كان سؤال الهداية أعمق من سؤال المعلومات. المعلومة قد تكون حاضرة والقلب غائبًا، والدليل قد يكون محفوظًا وسلطانه معطلًا. ورب كلمة يعرفها المرء منذ سنوات لا تصير هدايةً له حتى يقبل حكمها في موضع يخالف عادته، أو يهدد مكانته، أو يكلفه خسارةً حقيقية. هناك يظهر الفرق بين معرفة الحق وبين أن يصبح الحق قائدًا للنفس.

قال الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» رواه مسلم (2577). يضع الحديث العبد في

موضعه الصحيح: محتاجًا إلى هدى ربه، مأمورًا أن يطلبه، موعودًا بالإجابة. فلا يخلق النور في قلبه، ولا يملك نتائج سعيه، لكنه يسأل ويتبع ويجاهد ويعمل.

وهنا تجتمع حقيقتان لا تستقيم الطريق بإحداهما دون الأخرى: الهداية فضل من الله، والعبد مسؤول عن موقفه من الهدى حين يأتيه. يأخذ بالأسباب التي أمره الله بها، ثم يعلم أن توفيقه إليها وثباته عليها وثمرتها في قلبه كلها من فضل ربه. بهذا ينجو من انتظار ساكن يحتج بالقدر على القعود، ومن اعتماد خفي على النفس يجعل الأسباب كأنها تملك النتيجة.

الهداية في القرآن حركة نامية، لا اسمًا جامدًا يحتفظ به صاحبه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 17]. هدىً يفتح باب هدى، واستجابة تهيئ القلب لاستجابة أخرى، وطاعة يرى العبد بعدها ما لم يكن يراه قبل أن يعمل. قد يبدأ بخطوة صغيرة صادقة، ثم يجد أن الله وسّع فهمه، وقوّى يقينه، وكشف له عيبًا كان غائبًا عنه، وربط على قلبه حين ارتفعت الكلفة.

وفي الطريق المقابل حركة أخرى لا ينبغي أن يغفل عنها من عرف الحق مرة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. بدأ السياق بزيغ اختاروه، ثم جاءت العقوبة من جنس طريقهم. يرد الإنسان الحق في موقف، ثم يحتاج في الموقف التالي إلى تبرير أوسع، ويستثقل الاعتراف أكثر، حتى يتحول ما كان ذنبًا يؤلمه إلى موقف يدافع عنه.

وقد يبدأ الانحراف بما يكاد لا يُرى: طاعة يؤخرها صاحبها لأن كلفتها ثقيلة، أو خطأ يبدل اسمه حتى يطيق البقاء معه، أو صوت يبتعد عنه لأنه يخشى أن يوقظه. ثم تتسع المسافة؛ فكل اختيار يحتاج إلى حجة تحميه، وكل حجة تجعل الرجوع في المرة التالية أثقل. أكثر التحولات الكبرى لا تبدأ دفعةً واحدة؛ تبدأ باستجابات صغيرة تتكرر حتى يتبدل بها حس القلب وميزانه.

غير أن الخوف من الزيغ لا يفتح باب القنوط. فالقرآن الذي حذر من استحكام الغفلة وصف المتقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. سماهم متقين مع وقوع المس، وجعل علامتهم أن التذكر أعاد إليهم البصر. لم تتحول الزلة عندهم إلى هوية، ولم يمنحوا الخطأ حق قيادة بقية الطريق.

فالفرق العظيم لا يظهر في مجرد أن هذا زل وذاك لم يزل؛ فالزلة واقعة في حياة البشر. يظهر فيما يحدث بعد الزلة: هل يعود العبد إلى ربه، ويسمي الفعل باسمه، ويقطع سببه ويصلح أثره؟ أم يحميه بالتبرير

حتى يصبح الاعتراف أشق من الذنب الأول؟ إن حركة القلب بعد الخطأ تكشف وجهته، وباب التوبة يبقى مفتوحًا ما دام العبد قادرًا على أن يرجع ويصدق.

هذا الكتاب يعيد سؤال الهداية والضلال إلى قلب القارئ، ويترك أحكام البواطن والمصائر لرب العالمين. لا يمنحه قائمةً يصنف بها الناس، ولا يدعوه إلى تفسير كل مخالفة بالهوى والكبر؛ فقد يخفى الدليل، أو يلتبس وجهه، أو لا تبلغ الحجة في صورتها الصحيحة، والله أعلم بما قام على كل نفس. أما القارئ فيُرد إلى موضع مسؤوليته: ماذا يحدث في قلبي حين يأتيني الحق؟

كيف يزيد الهدى بالطاعة؟ وكيف يختلف أثر الوحي باختلاف هيئة القلب الذي يستقبله؟ وما الأعمال التي أمر الله بها عبده طلبًا للنور؟ وكيف يبدأ الانحراف من استجابة صغيرة ثم يزداد؟ وما الذي يعيد القلب بعد الزلة؟ وبماذا يحفظ العبد نعمة الهداية حتى اللقاء؟ تمضي هذه الصفحات مع هذه الأسئلة، وتطلب أجوبتها من القرآن والسنة، ثم تنقلها إلى مواضع القرار في الحياة.

فالهداية لا تختبر في الخواطر المجردة وحدها. تظهر حين يتعارض الحق مع مصلحة، أو يحتاج الاعتذار إلى شجاعة، أو يدعو المال إلى التساهل، أو يجعل الانتماء قبول كلمة المخالف ثقيلًا. وفي هذه المواطن يكتشف الإنسان مقدار سلطان ما عرفه، ويرى هل بقي الوحي مرجعه حين ارتفعت الكلفة، أم صار الحق مقبولًا عنده ما دام لا يطال شيئًا يحبه.

وأقرب أبواب الانتفاع أن يدخل القارئ وهو مستعد لأن يكون هو المخاطب. قد يحسن المرء رؤية انحرافات خصومه، ويظل عاجزًا عن رؤية المدخل نفسه حين يأتيه من الجهة التي يحبها. وقد يقرأ عن الغفلة فيتذكر غيره، وعن التبرير فيستحضر صاحب خطأ بعيدًا عنه، بينما يغيب عنه الموضع الذي يفاوض فيه الحق أو يؤجل مقتضاه.

ادخل الكتاب بقلب يطلب البصيرة، لا شهادةً بأنه مهتدٍ. إن وجدت من نفسك قبولًا للحق فاحمد من فتح قلبك، وإن رأيت مقاومةً فلا تسترها باسم جميل، وإن ظهرت لك زلة فاقطع المسافة إلى الرجوع، وإن عرفت بابًا من الخير فادخله ولا تنتظر أن يسبق الطاعة شعور كامل. الهداية نعمة تُشكر، وطريق يُتبع، وعهد يتجدد في كل موقف.

ويعدك هذا الكتاب بشيء تستطيع أن تحمله إلى حياتك: أن تفهم حاجتك إلى الهدى على نحو أعمق، وأن ترى صلة الاختيارات الصغيرة بزيادة النور أو ضعف الحس، وأن تعرف الأبواب التي أمرك الله أن تطرقها، وأن تصبح أسرع اعترافًا إذا ظهر خطؤك، وأقل اغترارًا بعلم أو انتماء أو ماضٍ صالح، وأشد سؤالًا للثبات. أما أسرار القلوب ومقادير الهداية لكل إنسان فتبقى عند العليم الحكيم.

ربما يكون أعظم ما يخرج به القارئ أن تتغير نبرة قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. يقولها وهو يعلم أنه يسأل بيانًا وقبولًا وعملًا وزيادةً وثباتًا، ويسأل نجاةً من زيغ قد يبدأ باختيار صغير، ورحمةً ترده إذا مال. ويقولها عالمًا أن ما معه من هدى فضل من الله، وأن هذا الفضل يدعوه إلى السعي والشكر والافتقار.

فاقرأ الوحي في هذه الصفحات كمن يحتاج إليه الآن، لا كمن فرغ منه. دع السؤال يقترب من مواضعك الحقيقية: من قرار تؤجله، ونصيحة تضيق بها، وطاعة فتح الله لك بابها، وزلة تنتظر رجوعك. وما دمت حيًّا فلن تنقضي حاجتك إلى هداية يومك، ولا إلى قلب يبصر بعد الغفلة، ولا إلى رحمة تحفظه حين يضعف.

فالطريق يبدأ من عند الله، ويُعرف بوحيه، ويُسلك بتوفيقه، ويزداد بالشكر والاستجابة، ويُستدرك بالتوبة، ويُحفظ بالدعاء والعمل. ويبقى العبد ما دام حيًّا بين كلمتين لا يستغني عنهما: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، و﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

المحور الأول: هدى الله الذي لا هدى سواه

تبدأ رحلة الإنسان في الأرض بسؤال الطريق. فالطرق كثيرة، والنفس لا تقف أمامها محايدة؛ تميل، وتخاف، وتألف، وتدافع عن صورتها ومصلحتها. يعرف المرء أسماء الفضائل، ويحفظ أحكامًا، وينتمي إلى بيئة صالحة، ثم يقف عند موضع دقيق لا يدري فيه أين رضا الله، أو يدري ويجد في قلبه مقاومة لما علم.

لهذا لم يجعل الله طلب الهداية دعاء مرحلة أولى ينتهي بدخول الإسلام، وإنما جعله قلب الصلاة، يكرره المؤمن في كل ركعة. ويأتي الدعاء بعد إعلان العبودية والاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5–6]. فالغاية عبادة الله، والعون منه، والطريق إليه لا يُعرف ولا يُسلك ولا يُحفظ إلا بهداه.

غير أن افتقار العبد إلى الله لا يحوله إلى منتظر ساكن. فالقرآن الذي علّمه أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] هو الذي أخبره أن الهدى يأتي من الله بالوحي، وأمره أن يتبعه، وأثبت له مشيئةً للاستقامة، وحاسبه على اختياره. ثم رد مشيئته وعمله ونجاحه إلى مشيئة الله وتوفيقه، حتى لا يتخذ من القدر عذرًا للقعود، ولا من سعيه مادةً للعجب.

وقد جُمعت أصول هذه الرحلة في أول قصة الإنسان على الأرض. بعد هبوط آدم وزوجه جاء الوعد: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. الهدى يأتي من الله، والاتباع فعل العبد، والسلامة ثمرة الطريق. وبين هذه المعاني الأربعة يتحرك هذا المحور: حاجة لا تنقطع، ووحي يبين، وإرادة مسؤولة، وتوفيق يجعل الأسباب عبوديةً لا ثمنًا.

الوحدة الأولى: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6]: الحاجة إلى هدى الله

الدعاء الذي لا ينقضي

يقول المؤمن: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] وهو واقف في الصراط من حيث أصل الإيمان. وهذه الحقيقة وحدها تكسر تصورًا شائعًا للهداية: أنها حادثة مضت يوم عرف الإنسان الإسلام، ثم صار بعد ذلك مالكًا للطريق. ولو كان الأمر كذلك، لما بقي لهذا الدعاء موضع في كل صلاة، ولا تكرر على لسان الأنبياء والصالحين سؤال الثبات والزيادة.

جاء الدعاء بعد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. فالعبد أعلن أنه لا يعبد إلا الله، ثم أعلن أنه لا يستقل بأداء ما أعلن. وتأتي الهداية لتصل بين الغاية والعون: أن يعرف مراد الله، وأن يريده، وأن يصيب وجه العمل فيه، وأن يستمر عليه حتى يلقى الله. والهداية انتظام العلم والقصد والعمل والثبات في طريق واحد، لا معلومة تضاف إلى الذهن فحسب.

يدخل في قولنا: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] أن يدلنا الله على الحق فيما نجهل. فالإنسان لا يولد عالمًا بتفاصيل الدين، ولا يستطيع بعقله وحده أن يعرف كيف يعبد ربه، ولا كيف يزن كل واقعة بميزان الوحي. وكلما اتسعت حياته ظهرت أسئلة جديدة: في المال والأسرة والعمل والعلم والدعوة والعلاقات، فيحتاج إلى نور يميز به بين ما يرضي الله وما يشبهه في الظاهر وهو بعيد عنه.

ويدخل فيه أن يفهم ما بلغه من الحق فهمًا سليمًا. قد تصل الآية أو السنة إلى الإنسان، لكن يحجب معناها سوء تصور، أو اجتزاء من السياق، أو عادة فكرية سبقت إليها. ويحتاج عندئذ إلى هداية في الفهم: أن يجمع النصوص، ويرد المتشابه إلى المحكم، ويسأل أهل العلم، ويمنع رغبته من أن تختار من المعاني ما يخدمها.

ويدخل فيه أن يقبل القلب ما عرف. فالمعرفة لا تضمن الانقياد. يعرف المرء أن الاعتذار حق، ثم يثقل عليه لأن صورته أمام أهله أو زملائه مهددة. ويعلم حرمة معاملة، ثم يجد رزقه أو مكانته متعلقةً بها. ويوقن بوجوب العدل، ثم يدخل الخصام فيغدو خطأ القريب صغيرًا وخطأ الخصم عظيمًا. هنا لا تنقصه المعلومة وحدها؛ ينقصه قلب يرضى بحكم الله حين يجرحه.

ويدخل فيه أن يقدر على العمل. كم من حكم واضح بقي زمنًا طويلًا خارج الحياة؛ لا لشبهة فيه، ولكن لضعف الإرادة، أو رسوخ العادة، أو خوف الخسارة. ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ» رواه مسلم (2725). فالهدى معرفة الوجهة، والسداد إصابة الطريق في القصد والعمل.

وجمع النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء آخر بين الهدى وثمراته فقال، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى» رواه مسلم (2721). فالهدى يعرّف الطريق، والتقوى تحفظ القلب من مخالفته، والعفاف يصون الإرادة عند داعي الشهوة، والغنى يحررها من التعلق بما في أيدي الناس. وهكذا لا يبقى الهدى فكرةً في الذهن؛ يمتد إلى ما يحكم القلب والسلوك.

ويدخل فيه الثبات بعد العمل. الطريق لا ينتهي عند أول طاعة، وقد تصبح النعمة نفسها موضع فتنة. يوفَّق الإنسان إلى علم، فيحتاج إلى هداية تحميه من الكبر به. ويترك ذنبًا، فيحتاج إلى هداية تمنعه من احتقار المبتلى. ويصيب في اجتهاد، فيحتاج إلى هداية تحفظ قلبه من أن يرى الصواب خاصيةً ذاتية فيه. كل فتح يخلق مسؤولية جديدة، وكل مرتبة من الهدى تكشف حاجةً إلى مرتبة بعدها.

لهذا خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136]. لم يُطلب منهم اسم إيمان لم يدخلوا فيه، وإنما طُلب منهم الثبات على مقتضاه، واستكماله، وتجديد التسليم كلما جاء أمر أو فتنة. فالإيمان الذي لا يتجدد بالاتباع يمكن أن يبقى دعوى يتغذى عليها الأمان الكاذب.

وقد تقدّم في مقدمة الكتاب حديث أبي ذر رضي الله عنه في قول الله تعالى: «فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» رواه مسلم (2577). ويعود هنا بوظيفة أدق: ردُّ كل هداية في الخلق إلى الله، وبيان حال الإنسان إذا وُكل إلى نفسه، من غير أن ينفي ما عند المؤمن من هدى أو يسوي بينه وبين الكافر. ثم ينقله من معرفة العجز إلى فعل العبادة في «فاستهدوني»، وإلى الثقة بالوعد في «أهدكم».

الافتقار في هذا الحديث حركة عبودية. من عرف أنه لا يهدي نفسه سأل من يملك الهدى، وطرق الأبواب التي فتحها له، وحذر ما يحجب قلبه. أما العجز الذي يتزين به الكسل فيقول لصاحبه: لا تفعل حتى تشعر أنك هُديت. والحديث يأمره أن يطلب الهداية، وسيظهر لاحقًا أن صدق الطلب يدفعه إلى أسبابها التي شرعها الله.

ومن هنا جاء الحسم القرآني: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 120]. وردت الآية في سياق ضغط ديني واجتماعي يُراد به صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن الوحي إلى أهواء المخالفين. فالهداية لا تُعرَّف بكثرة من رضي عنها، ولا بقدم العادة، ولا بما يحقق قبولًا سريعًا؛ معيارها ما أنزله الله، وكل طريق يخالفه يفقد اسم الهدى مهما أحسن أصحابه تزيينه.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ [الليل: 12]. في السياق بيان طريق العطاء والتقوى والتصديق، وطريق البخل والاستغناء والتكذيب، ثم تقرير أن الله بيّن السبيل وأقام الدلالة. تبقى هذه الآية في موضع هداية البيان، فلا تُحمَّل وحدها معنى توفيق كل فرد؛ لكنها تمنح المؤمن طمأنينةً كبرى: ربه لم يتركه في ظلام بلا علامة، ولم يكلفه أن يخترع الصراط.

واجتماع الآيتين يضبط القلب: الهدى الحق هو هدى الله، وقد تكفل سبحانه ببيانه. فإذا التبس على العبد أمر لم يكن أول واجبه أن يثق بحدسه، بل أن يعود إلى البيان، ويطلب فهمه، ويعترف بحدود علمه. وحين يبذل ذلك لا يبقى معلقًا في فراغ؛ يرجو ربًا دل على الطريق ووعد من استهداه بالهداية.

وحين يوقن المؤمن أن البيان من الله يجتمع له رجاءان: رجاء العثور على الحق، ورجاء الإعانة على قبوله. فلا يستسلم للحيرة كأن الطريق قد أُغلق، ولا يدعي أن أول خاطر وقع في نفسه هو الهدى. يسأل، ويبحث، ويصبر على زمن التعلم، ويعلم أن ربه الذي دل على الصراط قادر على أن يفتح له من فهمه بقدر صدقه وافتقاره.

ما الذي نسأله حين نقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6]؟

الصراط المستقيم هو طريق الله الجامع للعلم بالحق والعمل به، وهو دين الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. غير أن هذا المعنى الجامع لا يجعل الدعاء بعيدًا عن التفاصيل. ففي كل يوم تتفرع عن الصراط اختيارات صغيرة: كلمة تقولها أو تكفها، مال تقبله أو ترده، علاقة تصلحها أو تهجرها، رأي تعلن الرجوع عنه أو تدافع عنه حمايةً لصورتك.

يعرف الإنسان أصل الحكم أحيانًا ويجهل موقعه من الواقعة. وقد يجمع بين معرفة الواقعة والحكم، ثم يجهل ما في قلبه من باعث. وربما أحسن تحليل دوافع غيره وعجز عن رؤية دافعه الأقرب؛ لأن النفس تمنح رغباتها أسماءً محترمة: تسمي الخوف حكمة، والتردد تثبتًا، والكبر حفظًا للمكانة، وطلب الانتصار دفاعًا عن الحق. ولهذا يحتاج إلى هداية تكشف له نفسه وهو يقرأ الحكم.

طلب الهداية الصادق يتضمن قبول الانتقال. من قال: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] فقد أقر من حيث المعنى أنه لا يعلم كل شيء، ولا يصيب دائمًا، وأن هدايته ربما تأتيه على لسان شخص لا يحبه، أو بدليل يهدم رأيًا دافع عنه، أو بتكليف يقطع مصلحةً تعلقت بها نفسه. فإذا أغلق سلفًا كل باب يؤدي إلى تغيير موقفه، بقي الدعاء على لسانه وغاب مقتضاه عن قلبه.

تأمل رجلًا يسأل عن حكم عقد مالي وقد حسم في باطنه أنه لا يستطيع تركه. يجمع من الأقوال ما يطمئنه، ويتجاوز الأسئلة التي تكشف حقيقة العقد، ثم يقول بعد أن وجد رخصةً محتملة: هداني الله إلى التيسير. حاجته الأولى هنا إلى الصدق في الطلب؛ لأن المعلومة لا تنفع قلبًا جعل النتيجة شرطًا للسؤال.

وفي الأسرة يسأل أحد الزوجين: من المخطئ؟ وربما كان السؤال في حقيقته: كيف أثبت أنني المظلوم كاملًا؟ يقرأ النصوص التي تحمي حقه، ولا يقترب من النصوص التي تكشف واجبه. ولو قال في صلاته:

﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] وهو مستعد لأن يرى نصيبه من الخطأ، تحولت الفاتحة من تلاوة محفوظة إلى باب إصلاح.

وفي العلم يطلب الباحث أو الداعية هداية الله في مسألة، ثم لا يقرأ إلا لمن يوافق تكوينه السابق، أو يجعل قوة خصمه في الاستدلال سبباً لمزيد من التصلب. ويتسع علم بعض الناس بينما تضيق قابليتهم للمراجعة. وكلما ازداد العلم من غير افتقار، ازدادت الأدوات التي يستطيع بها الهوى أن يصوغ دفاعه في لغة محكمة.

ولهذا كان دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]. لم يجعلهم الرسوخ واثقين بقلوبهم، وإنما زادهم معرفةً بمواضع الخطر. وذكروا الهداية السابقة شاكرين، ثم سألوا الرحمة التي تحفظها، فلم يجمعوا بين الجحود للنعمة والأمن من زوالها.

إن قول العبد: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] لا يعني أنه يعيش في خوف مشلول من كل قرار. الهداية وعد ورحمة؛ فقد أمر الله عباده أن يستهدوه ووعدهم بالهداية. والمؤمن يرجو مزيد الهدى كما يخاف الزيغ؛ يرجو لأن كل استجابة صادقة تهيئ لمزيد من الفهم والثبات، ويخاف لأن قلبه لا يملك نفسه ولا يستغني عن ربه.

بهذا يتوازن القلب. لا يحوّل خوفه إلى وسواس يجعله عاجزًا عن كل اجتهاد، ولا يحوّل رجاءه إلى دعوى أن كل ما اختاره هو عين الهداية. يسأل، ويتعلم، ويجتهد في موضع الاجتهاد، ويستشير، ثم يمضي متوكلًا، مستعدًّا للمراجعة إذا ظهر له ما لم يكن ظاهرًا.

قصة الإنسان تبدأ بوعد الهدى

بعد زلة آدم وهبوطه إلى الأرض جاء البيان الذي يحكم حياة ذريته: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. لم يُترك الإنسان لعقله المجرد ولا لذكريات الجنة الأولى، ولم يُلغ اختياره. يأتيه هدى من ربه، ويكون منه اتباع، ثم تترتب السلامة على الطريق.

أول ما تستقر عليه العين قوله: ﴿مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: 38]. فالإنسان يستطيع أن يكتشف كثيرًا من مصالح دنياه، وأن يتعلم بالتجربة، وأن يتعاون مع غيره على بناء العلوم والصناعات. لكنه لا يستقل بمعرفة

ما يحبه خالقه، ولا بحقيقة الغاية من وجوده، ولا بما وراء الموت، ولا بالطريق الذي يزكي قلبه على مراد الله. هذه المعرفة تأتيه من الله.

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38]. لم يجعل مجرد وجود الرسالة في العالم كافيًا، ولا مجرد الانتساب إلى آدم أو إلى جماعة مؤمنة. الهدى يُتبع؛ أي يتحول من خبر إلى مرجع، ومن تلاوة إلى قرار، ومن إعجاب إلى سير. وهذه الكلمة الصغيرة تضع مسؤولية الإنسان في قلب القصة من بدايتها.

ويتكرر الوعد في سورة طه بصورة تكشف أثر الاتجاهين: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 123-124]. فالهداية طريق يحفظ المعنى والبصيرة، والإعراض حركة يختارها القلب قبل أن تظهر آثارها في حياته ومآله.

تأتي القصة في أول المحور لتعيد ترتيب تصور الإنسان عن حاجته. حاجته ليست إلى معلومات متناثرة يضم بعضها إلى بعض ثم يعلن استقلاله، بل إلى صلة دائمة بالهدى الذي يأتي من الله. وحين تنقطع هذه الصلة، لا يعوضها ذكاء ولا خبرة؛ إذ يستطيع الإنسان أن يستخدم ذكاءه في بناء طريق أكثر إحكامًا إلى ما يضره.

وفي عصر تتضاعف فيه الخيارات، يزداد وهم أن كثرة الطرق تمنح الإنسان حريةً تكفي لهدايته. يستطيع أن يسمع في ساعة واحدة عشرات التفسيرات للحياة، وأن يجد لكل رغبة خطابًا يبررها، وأن يعيش داخل منصة لا تعرض له إلا ما يوافقه. غير أن توافر الأصوات لا يساوي وضوح الصراط، وقد تكون الحيرة الحديثة نتيجة وفرةٍ بلا ميزان.

وعد الله بالهدى يحرر الإنسان من التيه، لكنه يطالبه أن يبقى طالبًا. من حمل القرآن في هاتفه ولم يحمله إلى قراراته لم يحقق معنى الاتباع. ومن قرأه بحثًا عن السكينة فقط، ثم صرف وجهه عن تكاليفه، أخذ بعض أثر الخطاب وترك مركزه. الوحي يواسي القلب، ويكشفه كذلك؛ يطمئنه بوعد الله، ويزعجه حين ينام على خطأ.

ولذلك لا ينبغي أن تتحول الفاتحة إلى إعلان امتلاك الصراط في مقابل الآخرين وحدهم. قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7] يعلّم المؤمن أن يسأل طريق أهل النعمة، وأن يستعيذ من طريق من عرفوا فتركوا أو ضلوا عن العلم والعمل. إنه ينظر إلى مصائر الطرق ليحرس اتجاهه، لا ليكتفي بتسمية غيره.

من الشعور بامتلاك الطريق إلى دوام السؤال

وأخطر ما يحجب الحاجة إلى الهداية أن يأتي الحجاب في صورة نعمة: نشأة صالحة، أو بيئة علم، أو سابقة طاعة، أو انتماء إلى السنة والحق. هذه نعم عظيمة تُشكر، لكنها ليست ضمانًا للمستقبل. من عرف الطريق أمس لا يستغني عن هداية اليوم، ومن ذاق نعمة الاستقامة أحوج إلى أن يسأل من وهبه إياها أن يحفظها عليه.

الاغترار بالماضي يجعل صاحبه يقيس اتجاهه بما كان لا بما هو عليه. يقول: كنت أطلب العلم، أو عرفت الطريق منذ صغري، أو وقفت موقفًا صحيحًا في فتنة سابقة. وربما كان الحاضر أضعف استجابةً وأبطأ توبةً وأكثر دفاعًا عن النفس، لكن رصيد الذاكرة يمنعه من رؤية التحول.

وكثرة المعرفة تخفي الحاجة بدل أن تكشفها في بعض الأحوال. الجاهل يشعر بالنقص فيسأل، أما العالم ببعض المسائل فقد يستحي أن يقول: لا أدري، أو يصعب عليه الرجوع لأن رأيه صار معروفًا. هنا يحتاج إلى هداية تحرره من عبودية الصورة، وتجعله يرى الاعتراف بالنقص عبادةً لا هزيمة.

يظهر اتجاه القلب في علاقته بالدعاء. هل يزداد سؤال الهداية كلما ازداد علمه؛ لأنه رأى دقة المسالك وعجز النفس؟ أم يقل لأن شعوره بالوصول ازداد؟ وهل يذكر مسألةً حقيقية بين يدي الله، أم يكرر اللفظ من غير أن يسمح له بالدخول إلى موضع الصراع؟

العمل الذي تفتتح به الرحلة أن تربط دعاء الفاتحة بواقعك. سمِّ موضعًا تجهل فيه الحق، وموضعًا تعرفه ويشق عليك قبوله، وطاعةً بدأت بها وتخشى ضعف الثبات، ونعمةً تخاف أن يفسدها العجب. قل: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ [الفاتحة: 6] وأنت مستعد أن يأتي الجواب على خلاف رغبتك.

ثم اجمع في قلبك الخوف والرجاء. خف من قلب يغفل أو يميل، لكن لا تيأس من مزيد الهدى؛ فقد علّمك الله السؤال ووعدك به، وأبقى باب الزيادة مفتوحًا. ومن صدق في الطلب، ولم يجعل خوفه ذريعةً للتردد ولا رجاءه ستارًا للهوى، دخل الوحدة التالية بالسؤال الصحيح: إذا كان الهدى من الله، فمن أي طريق يصل إلينا؟

الوحدة الثانية: كيف يصل هدى الله إلى الإنسان؟

الهدى يأتي بالوحي

لا يكون طلب الهداية انتظارًا لإشارة غامضة تنشأ في الداخل. فالذي أمر العبد أن يسأله الهدى أنزل له كتابًا، وأرسل إليه رسولًا، وجعل البيان طريقًا يعرف به مراد ربه. وكل دعوى لهداية تنفصل عن الوحي تترك النفس تحاكم نفسها بنفسها، ثم تسمي ما استقر فيها نورًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]. والعبارة أوسع من معالجة مسألة منفردة؛ فالقرآن يهدي إلى الطريقة الأقوم في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والنظر إلى الدنيا والآخرة، ويعيد ترتيب صلات الإنسان بربه وبنفسه وبالناس. لا يقدم مجرد أجوبة، بل يبني الميزان الذي تُفهم به الأسئلة.

يهدي القرآن الإنسان إلى ربه: يعرفه بأسمائه وصفاته، ورحمته وحكمته وعدله، ويحرره من تصور إله بعيد لا يسمع ولا يجيب، ومن تصور آخر يجعل الإله تابعًا لرغبات البشر. ويهديه إلى نفسه: عبد مكرم بالتكليف، ضعيف محتاج، مسؤول عن اختياره، لا إله صغير يصنع قيمه من غير مرجع.

ويهديه إلى حقيقة الدنيا: دار عمل وابتلاء، فيها متاع وزينة، ولا تحمل في ذاتها الجزاء الكامل. فيقرأ النجاح والفشل، والغنى والفقر، والصحة والمرض، ضمن غاية أوسع من اللحظة. ويهديه إلى الآخرة، فيصبح القرار الحاضر متصلًا بلقاء الله، ولا تبقى المصلحة العاجلة الحكم الأخير.

ومن هذا التصور تنشأ الأحكام والأخلاق. فالصدق ليس مهارةً اجتماعية نافعة فحسب، وإنما عبودية لرب يعلم السر. والعدل لا يتوقف على قوة الخصم، لأن الله حرمه على الجميع. والعفة ليست حرمانًا من رغبة، بل حفظ لعبودية القلب والجسد. وحين تنفصل الأحكام عن هذه الأصول، فيحفظها الإنسان كلوائح لا تسكن ضميره.

قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16]. الكتاب مبين، والله يهدي به، والعبد يتبع رضوانه؛ فالآيتان لا تفصلان البيان عن التوفيق، ولا التوفيق عن الاستجابة.

ويهدي القرآن بطرائق متعددة متساندة. يأمر وينهى، ويخبر عن الله واليوم الآخر، ويضرب الأمثال، ويقص مواقف الرسل وأقوامهم، ويكشف مآلات الطريق قبل أن يبلغها السائر. فقد يعرف الإنسان حكمًا

بصيغة الأمر، ثم تمنحه القصة صورة القلب وهو يطيعه أو يقاومه، ويأتي الوعد والوعيد ليصلا القرار العاجل بمصيره. بهذا تتكون البصيرة من مجموع الوحي، لا من جملة معزولة عن بنائه.

والقصة القرآنية جزء من هذا البيان، لا تكتفي بأن تقول للإنسان ما يفعل، وإنما تريه كيف يتحول العلم إلى اختيار. ففي وعد الهدى بعد هبوط آدم يظهر مصدر الطريق وفعل العبد ومآله، وفي أخبار الأنبياء يرى القارئ كلفة البلاغ وحدود قدرة المبلّغ، ويرى كذلك أن وضوح الآية لا يخلق القبول في كل قلب. ومن هنا يحمل القصص المعنى العقدي والتربوي في مشهد حي، ولا يأتي زينةً بعد اكتمال الفكرة.

وجود القرآن في حياة الفرد والمجتمع نعمة، غير أن أثره يتعلق بموقعه من الحكم. قد يتردد في المجالس، بينما تستمد القرارات الكبرى معاييرها من ضغط السوق أو العرف أو الخوف من الناس. وهدايته تعيد تشكيل تصور الإنسان للحرية والقوة والنجاح، ثم تنقل مركز الحكم من النفس والناس إلى الله.

ويكشف الوحي الفروق التي يطمسها الهوى: بين الرحمة والتفريط، والحزم والظلم، والتوكل والتواكل. لذلك يختلف من يدخل على القرآن طالبًا حكمه عمن يستدعيه بعد اتخاذ القرار ليمنحه شاهدًا دفاعيًّا. الأول يقبل أن يتغير، والثاني يحدد للوحي وظيفةً واحدة: أن يطمئنه إلى بقاء ما يريد.

الرسول يبين الطريق ولا يملك القلوب

لم ينزل القرآن منفصلًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. فالرسول يبلغ ألفاظ الوحي، ويبين معانيه، ويجسد مقتضاه في عبادته وقضائه وأخلاقه وحياته. ومن طلب هداية القرآن بعيدًا عن سنته فقد فصل ما جمعه الله.

وقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 52-53]. أثبت له هداية الدلالة والبيان؛ فهو يدعو إلى الصراط، ويكشف معالمه، ويأخذ بأيدي الناس إلى أبوابه. ولا يصح تقليل شأن هذه الهداية، فهي إقامة للحجة ورحمة بالخلق وسبب من أعظم أسباب النجاة.

وفي موضع آخر قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]. نُفيت عنه هداية أخرى: فتح القلب وخلق القبول فيه. لا تعارض بين الآيتين؛ النبي يدل أكمل دلالة، والله وحده يجعل الدلالة إيمانًا وانقيادًا في القلب.

وتأتي السنة بيانًا ملزمًا للقرآن وتجسيدًا له. فقد جعل الله في الرسول صلى الله عليه وسلم أسوةً، وأمر بطاعته، فكانت صلاته وبيوعه وقضاؤه ورحمته وحزمه بيانًا عمليًّا لمعاني الكتاب. ولهذا لا يصح أن يزعم أحد الاكتفاء بالقرآن ثم يرد ما ثبت عن الرسول؛ فالكتاب نفسه هو الذي دل على طريق السنة، والسنة هي التي حفظت للناس صورة الامتثال من أن تتحول إلى أذواق متباينة.

وتكشف حياة الرسول كذلك معنى هداية البيان في أكمل صورها. كان يعرف اختلاف المخاطبين، فيوجز في موضع ويفصل في آخر، ويرفق بمن يحتاج الرفق، ويقيم الحجة حيث يجب البيان. ومع كمال علمه ورحمته بقيت القلوب بيد الله. فهذا الحد لا ينتقص من شأن التعليم؛ بل يضعه في مقامه الصحيح: سببًا عظيمًا مأمورًا به، لا قدرةً خالقةً للإيمان.

هذا التمييز يحفظ وظيفة الداعية والمربي والعالم والوالد. عليهم البيان الصادق، وحسن التعليم، وإزالة الشبهة، والصبر، والقدوة، والدعاء. ولا يملكون خلق الاستجابة أو ضمان الثبات. فإذا تجاوزوا حدهم تحول الحرص إلى سيطرة، وصار المتلقي مشروعًا لإثبات نجاحهم.

ليس على الأب أو الداعية أن يعوض غياب الفتح بمزيد من الضغط. قد يكرر الأب النصيحة بالنبرة نفسها، وقد يقيس الداعية صدق منهجه بعدد المستجيبين؛ وكلاهما يحمّل السبب ما لا يملك. عليه أن يحسن البيان، ويراجع أسلوبه، ويدعو، ثم يسلّم بأن القلب ليس في يده، وألا يغيّر الحق طلبًا لنتيجة لا يملكها.

وفي الجهة الأخرى لا يحق للمتلقي أن يجعل هداية التوفيق عذرًا عن طلب البيان. لا يقول: إذا أراد الله هدايتي هداني، ثم يغلق الكتاب ويعرض عن سؤال أهل العلم. الذي يفتح القلوب هو الذي قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، وأمر بالاستماع والتدبر والاتباع. انتظار الفتح مع إغلاق أبوابه تناقض في دعوى الطلب.

وقد ثبت في حجة الوداع من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ» رواه مسلم (1218). الاعتصام يفيد التمسك والاحتماء والرجوع؛ فلا يكفي أن يكون الكتاب موجودًا، بل يكون مرجعًا عند الاشتباه والفتنة وتنازع الأهواء.

والاعتصام بكتاب الله يتضمن اتباع الرسول الذي دل الكتاب على طاعته، وتلقي الفهم من الطريق العلمي المعتبر. ليست كل خاطرة تخطر لقارئ معنى قرآنيًّا، ولا كل انتقاء من آية استدلالًا. من هداية الله أن يرد العبد إلى لسان العرب وسياق الآية وجمع النظائر وبيان النبي صلى الله عليه وسلم وفهم السلف، حتى لا يجعل القرآن مرآةً يرى فيها نفسه وحدها.

في مشهد الهبوط قال الله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: 38]. صيغة الإتيان تضع الهدى في صورة رسالة تصل إلى الإنسان من ربه. وقد تحقق هذا الوعد عبر الرسل والكتب، كلما انحرف الناس أو نسوا جاءهم من يذكرهم، حتى ختم الله النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل القرآن مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه.

لم يكن آدم وذريته مكلفين أن يستخرجوا الدين من ذواتهم. العقل أداة لفهم الخطاب والنظر في الآيات، والفطرة أصل يقبل التوحيد والخير، لكن تفاصيل العبودية وموازين الحلال والحرام وخبر الغيب تأتي بالوحي. ومن رفع العقل إلى مقام التشريع المطلق حمّله ما لم يُخلق له، ثم جعل اختلاف العقول مصدرًا لأديان متعارضة.

ولا يعطل الوحي العقل؛ بل يرده إلى منزلته الصحيحة. فالقرآن مملوء بالدعوة إلى التفكر والتعقل والنظر، لكنه عقل يتلقى عن ربه ويزن الأدلة، لا عقل يدعي الاستقلال عنه. وبالوحي يتحرر من الخرافة والتقليد والهوى، وتنتظم الخبرة الإنسانية بدل أن تتحول إلى مرجع يخاصم خالقها.

ويصل هدى الله إلى الإنسان بنص صريح يحسم المسألة، أو بأصل عام يحتاج إلى فقه تنزيل، أو بمجموع من النصوص والقيود. لذلك يحتاج الرجوع إلى الوحي إلى علم، ويكون سؤال العالم خطوةً لازمة في واقعة لا يحسن العامي وزنها.

وتحتاج بعض الوقائع إلى خبرة تكشف حقيقتها ومآلاتها: الطبيب يصف أثر العلاج، والخبير يشرح العقد، والمصلح يكشف تفاصيل الأسرة. هذه المعارف تخدم فهم الواقع ولا تستقل بالحكم الشرعي. ويبقى صدق السائل جزءًا من الطريق؛ يعرض الواقعة كاملة، ولا يحذف منها ما يخشى أن يغير الجواب، ثم يسمي الانتقاء رجوعًا إلى الوحي.

حين يصبح الوحي حاكمًا

أصدق محك لعلاقة الإنسان بالوحي يظهر عندما يخالفه. من السهل أن يحب النص الذي يثبت حقه، وأصعب منه أن يقبل النص الذي يطالبه بحق غيره. يستريح إلى آيات الرحمة حين يحتاج العفو، ثم يثقل عليه العدل حين يكون الحق لخصمه. هنا يتبين هل القرآن مصدر هداية أم مخزن عبارات يختار منها ما يناسب اللحظة.

لهذا لا تُطلب الهداية من مصادفة صفحة، ولا يُجعل الانشراح النفسي وحده دليلًا عليها. الطريق الذي شرعه الله أوضح: نص صحيح يُفهم في سياقه، وعلم يُطلب من أهله، وواقع تُعرف حقيقته، وقلب يقبل أن يُراجع. المشاعر تُوزن بالوحي، ولا يتحول الوحي إلى تابع لها.

وحاكمية الوحي لا تعطل العقل أو الخبرة؛ إنها تمنحهما وجهتهما وحدودهما. العقل يفهم الدلالة ويرجح بآلات العلم، والخبرة تكشف حقيقة الواقع، والفطرة تشهد لأصول الخير، ثم يبقى الوحي هو الميزان الذي يصحح الجميع. فإذا أخطأ الفهم عاد صاحبه إلى النص بأدوات أدق، وإذا كشفت الخبرة منفعةً محرمة لم تتحول المنفعة إلى حكم، وإذا مالت النفس إلى ما تألفه لم يصبح الميل دليلًا شرعيًّا.

في قرار مالي يَعِد صاحبه بربح واسع، يبين الخبير طبيعة العقد ومخاطره، ويوازن العقل النتائج، ثم يبقى السؤال الذي لا يجوز أن يضيع تحت كثرة التفاصيل: هل أذن الله بهذا الطريق؟ وفي نزاع أسري قد يشرح المختص دوافع الطرفين، ثم يأتي الوحي ليحكم العدل والحق والرحمة. هكذا تخدم المعارف البشرية الهداية؛ تكشف الواقع، ولا تنتزع من الوحي حق الحكم.

حدود البلاغ ومسؤولية التلقي

إذا علمت أن الله وحده يفتح القلوب، فاعرف ما عليك تجاه من تحب. تعلم قبل أن تتكلم، واختر من البيان ما يناسب المقام، وفرق بين جاهل يحتاج شرحًا، ومعاند قامت عليه الحجة، وزلة عارضة، ومسار متكرر. واجعل سيرتك جزءًا من حجتك؛ فالبيان أمانة في العلم والعدل والحكمة.

ثم راقب قلبك أثناء البلاغ. أتحزن لأن أمر الله خولف، أم لأن كلامك لم يُسمع؟ أتريد نجاة المخاطب، أم انتصار صورتك كناصح؟ يبدأ الحرص لله في أول الأمر، ثم تدخل عليه رغبة التحكم. ومن توفيق الله أن يكتشف الداعية هذا التحول قبل أن يفسد نصيحته.

وإذا كنت متلقيًا فلا تجعل عيوب الناصح سببًا لرد الحق. قد يأتيك الصواب في أسلوب ناقص، أو من شخص أخطأ في مواضع أخرى. لك أن تنكر خطأه، مع فصل الدليل عن حامله. كما لا يحق للناصح أن يصف كل رفض بالعِناد؛ فربما نقص البيان، أو بقيت شبهة، أو حجب سوء الأسلوب بعض المعنى.

لهذا يقرر الكتاب القواعد العامة ولا يحكم على بواطن الأعيان. نصف الفعل الظاهر بقدره، ونراجع تمام البيان، ونترك السرائر لمن يعلم مقدار ما بلغ كل نفس وما قام فيها من مانع واختيار.

بهذا ينقطع مسار مفسد: داعية يرى كل رفض عنادًا، ومتلقي يرى كل نقص في الداعية سببًا لرفض الرسالة. الوحي يطالب الأول بالبلاغ المبين، ويطالب الثاني بالنظر فيما ظهر له من الحق. ولا يملك أحدهما أن ينقل تكليفه إلى الآخر.

خذ مسألةً حاضرة في حياتك، وأعد بناء طريق تلقيك فيها. ابدأ بما قاله الله ورسوله، وافهم الواقع من أهله، واسأل عالمًا ثقة، ثم سِمِّ المصلحة التي تخشى فقدها حتى لا تعمل من وراء ستار. وبعد ذلك ادخل على الجواب بقلب يسمح له أن يغيّر القرار، لا بقلب جاء يبحث عن ختم شرعي لما اختاره سلفًا.

وفي شأن شخص تنصحه، افصل ورقةً أخرى: ما الذي كلفت به من بيان وقدوة ودعاء؟ وما الذي لا تملكه من فتح القلب والنتيجة؟ هذا الفصل لا يبرد المحبة، يطهرها من ادعاء السلطان. وبعد أن يصل البيان، يبقى الإنسان أمامه مريدًا، وهنا ينتقل السؤال إلى مسؤوليته: كيف تكون له مشيئة حقيقية، ومشيئته كلها تحت مشيئة الله؟

الوحدة الثالثة: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28]

مشيئة حقيقية تحت مشيئة الله

ختم الله سورة التكوير بعد تقرير صدق الوحي بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 27-29]. ثلاث جمل قصيرة تجمع البيان والاختيار والسيادة الإلهية، وتحمي القلب من الجبر والغرور معًا.

القرآن ذكر للعالمين، أرسله الله خطابًا عامًا للناس، مع تفاوت الأفراد في بلوغ البيان وفهمه وقيام الحجة عليهم. ثم قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28]، فنسب المشيئة إلى العبد حقيقة. يسمع ويفكر ويريد ويقرر ويتحرك، ولذلك يُمدح ويُذم ويثاب ويعاقب. ولو كان فعله حركة لا اختيار له فيها لفقد الخطاب الشرعي معناه.

ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29]. مشيئة العبد لا تقوم في ملك مستقل، ولا تخرج عن خلق الله وعلمه وتقديره. لم يختر وجوده ولا قواه، ولا يضمن بقاء عقله وفرصته، ولا يخلق في نفسه الرغبة الصالحة من عدم. هو مريد حقيقي، وإرادته إرادة عبد مخلوق.

لا تبطل المشيئة الثانية الأولى. دخول إرادة الإنسان تحت مشيئة الله لا يجعلها وهمًا، كما أن كون قدرته مخلوقة لا يعني أنه لم يفعل. القرآن نفسه جمعهما في سياق واحد، فالمذهب الذي يحفظ دلالته لا يختار نصف الآية ويهمل نصفها. يقول للعبد: أنت مسؤول، ويقول له في اللحظة نفسها: لا تستقل عن ربك.

وتحمي الآيتان القلب من خطأين متقابلين. الأول أن يتعامل مع الإرادة كقوة مكتفية بذاتها، فيظن أن من عرف الطريق استطاع سلوكه متى شاء، وأن التعثر لا يفسر إلا بضعف الشخصية. والثاني أن يمحو

فعل الإنسان، فيجعل الأمر والنهي صورًا بلا تكليف حقيقي. والقرآن يثبت للعبد فعلًا يُنسب إليه، ثم يعلقه في كل لحظة بخلق الله وإمداده، فيبقى جادًّا في العمل منكسرًا في الاعتماد.

يدرك الإنسان هذا الفرق في حياته من غير تعقيد. يعرف أن بين حركة يده المرتعشة بغير اختياره وبين توقيعه عقدًا فرقًا. ويعرف أن بين من أُكره إكراهًا ملجئًا ومن اختار تحت ضغط محتمل فرقًا. والشرع راعى الاستطاعة والإكراه والجهل، لأنه يخاطب إرادة حقيقية لها درجات من القدرة والعلم.

غير أن الإنسان لا يحيط بجميع ما أثر في غيره، ولذلك لا يحول هذا الأصل إلى أداة قاسية للحكم على الأعيان. الله أعلم بمقدار البيان والقدرة والمانع والاختيار في كل نفس. نحن نقرر أن العبد مسؤول، ولا ندعي معرفة الميزان التفصيلي الذي يزن الله به شخصًا بعينه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]. هداية السبيل هنا بيان للطريق، ثم يظهر من الإنسان شكر أو كفر. فالوحي لا يعامل الناس كأوعية صامتة؛ يدعوهم ويقيم عليهم الحجة، ويكشف باستجابتهم اتجاه قلوبهم.

وقال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]. اجتمع في الآية أثر الاختيار، وفردية المسؤولية، وعدل الله في أنه لا يعذب حتى يبعث رسولًا. فالبيان يقيم الحجة، ولا يلغي تبعة موقف العبد منه.

ويقرر القرآن حرية الاختيار في موضع الوعيد كذلك: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]. ليست الآية إذنًا يساوي بين الطريقين؛ فقد أعقبها ذكر النار التي أُعدت للظالمين. إنها تعرض الحق، وتكشف أن الإنسان يختار، ثم تضع أمامه نتيجة اختياره. فالحرية في القرآن لا تنفصل عن الحقيقة ولا عن الجزاء.

هذا مهم في زمن يُعرَّف فيه الاختيار أحيانًا بأنه حق الإنسان في أن يمنح كل قرار القيمة نفسها. القرآن يثبت له قدرة الاختيار، لكنه لا يقول إن كل ما اختاره صار صوابًا. الاختيار وصف لفعل العبد، والحق وصف لما وافق هدى الله. ويختار الإنسان الباطل أحيانًا بإرادة حقيقية، فيتحمل مسؤوليته ولا يتحول الباطل إلى حق بسبب صدوره عن إرادة حرة.

وعلم الله السابق محيط بما كان وما يكون، ومنه ما سيختاره العبد، من غير أن يسلبه اختياره الذي أثبته له الوحي. نؤمن بعلم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، ونؤمن بأن الإنسان يفعل عن قصد في موضع

التكليف. والقدر أوسع من إدراكنا، أما دلالة الأمر والنهي والثواب والعقاب على المسؤولية فواضحة لا يجوز إهدارها.

والتوقف عند هذا الحد من التحرير عبادة علمية أيضًا. لا يحتاج القارئ إلى تحويل كل قرار يومي إلى مناظرة في دقائق خلق الأفعال، وإنما يحتاج ميزانًا يحكم سلوكه: ما دام الأمر قد بلغك وقدرت عليه، فأنت مأمور، ومشيئتك لا تستغني عن الله. ما وراء ذلك من سر القدر نؤمن به كما جاء، ولا نجعله حجابًا بيننا وبين التكليف.

ومن ثمرات هذا الوقوف أن يكف الإنسان عن طلب جواب يكشف له سر اختيار الله لكل فرد. القرآن أعطاه ما يحتاج إليه لعبادته: ربٌّ حكيم لا يظلم، وعبد يختار ويحاسب، وهدى بيّنه الله، وتوفيق لا يملكه أحد سواه. أما الحكم على شخص بعينه: لماذا فتح له أو حُرم، وما مقدار ما بلغه وقام في قلبه، فذلك علم لا يحيط به البشر، ولا تتوقف مسؤوليتهم على اقتحامه.

المسؤولية بعد وصول البيان

في قصة الهبوط قال الله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38]. الاتباع منسوب إلى العبد، ويقابله في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: 124]. بين الاتباع والإعراض تتكون حياة الإنسان الدينية؛ لا في قرار كبير واحد فقط، بل في استجابات متكررة تصنع اتجاهه.

كثير من الاختيار يتكون قبل اللحظة المعلنة. يكرر الإنسان الاستجابة أو التأجيل، ويعتاد الاعتراف أو الدفاع، فيتهيأ قلبه للقرار التالي. اختياراته السابقة لا تخلق الهداية أو الضلال استقلالًا، لكنها أفعال حقيقية تشارك في تشكيل اتجاهه، ولذلك تمتد المسؤولية إلى المقدمات التي يملكها.

ومن العدل أن نفرق بين الخاطر الذي يرد على القلب والموقف الذي يتبناه صاحبه. قد يهجم نفور من تكليف، أو خوف عند قول الحق، أو ميل إلى شهوة؛ ثم تبدأ المسؤولية في طريقة التعامل: أيغذي الميل بالتخيل والتبرير، أم يصرفه ويستعين بالله؟ وجود الصراع لا يساوي اختيار الهزيمة، وقد يكون العمل مع الألم أصدق من عمل لم يجد صاحبه فيه كلفة.

وتدخل المسؤولية في طريق طلب الدليل واستعمال القدرة المتاحة. من لا يعرف يسأل، ومن اشتبه عليه يتثبت، ومن ظهر له الحق يتبعه. وقد يعجز عن حل المشكلة كلها، لكنه يقدر على خطوة: رد حق، أو قطع مدخل إلى ذنب، أو طلب مساعدة، أو اعتراف بجزء من الخطأ. انتظار القدرة الكاملة قد يصبح حيلةً لتأجيل الممكن.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]. جمع بين رفع الحرج وإثبات الكسب. فيفرق الصدق بين العجز الحقيقي وبين كلفة يكرهها الهوى: فالمرض والإكراه والجهل الذي لم يتمكن صاحبه من رفعه لها أحكامها، أما ألم الاعتذار أو نقص الربح أو وحشة مخالفة الجماعة فلا يتحول بمجرده إلى استحالة.

والمسؤولية بهذا المعنى لا تعني أن يعيش المؤمن تحت محاكمة نفسية لا تنقطع. المطلوب أن يصدق في تسمية ما اختار، وأن يتوب إذا أخطأ، وأن يستعمل ما بقي له من قدرة. أما تحويل كل ضعف إلى حكم نهائي على الذات فيعطل الرجوع، كما يعطله تعليق كل شيء على الظروف. بين القسوة على النفس وتبرئتها طريق العبودية: اعتراف لا يقنط، واستعانة لا تبرر، وعمل يبدأ من الممكن.

وفي وعد الهدى بعد هبوط آدم تتضح هذه المسؤولية في أبسط صورة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38]. لم يُطلب من الإنسان أن يخلق النور، فقد جاءه من ربه، وإنما طُلب منه أن يتبعه. وكلما ثقل عليه هذا الفعل عاد إلى مصدر القدرة، من غير أن يسقط عنه اسم الفعل. فالافتقار يرافق الاختيار ولا يمحوه، والاختيار يثبت التكليف ولا يمنح صاحبه استقلالًا.

القدر بين الاحتجاج والافتقار

الإيمان بالقدر يسكّن القلب أمام ما وقع خارج اختياره، ويعلمه أن ملك الله لا يفلت منه شيء. أما وضع القدر أمام الأمر والنهي ليعطل العمل فانتقال به من موضع العبودية إلى موضع الحجة على الله. من قال قبل المعصية أو بعدها: لو شاء الله ما فعلت، وأراد بذلك إسقاط مسؤوليته، فقد استعمل حقًّا لإرادة باطلة.

الله الذي شاء الأشياء وكتبها هو الذي خاطب العبد وأمره ونهاه، وأثبت له مشيئةً وكسبًا. لا تناقض بين الأمرين في علم الله، ولا يملك الإنسان أن يجعل جهله بتفاصيل القدر عذرًا لترك الأمر المعلوم. هو لا يعرف ماذا كُتب له غدًا، لكنه يعرف ماذا طُلب منه الآن.

لا يقبل أحد هذا الاحتجاج في حقوقه. لو أخذ شخص ماله ثم قال: هذا قدر الله، لم يرَ العبارة عذرًا، بل يقول: أنت الذي اخترت وأخذت. وحين يقع هو في ذنب يميل حينئذ إلى استعمال منطق يرفضه في حقه. هذا التناقض يكشف أن القضية أحيانًا دفاع عن النفس لا بحث عقدي.

قال تعالى عن قوم موسى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. لا نحتاج هنا إلى تفصيل الإزاغة الجزائية، لكن ترتيب الجملة يحمي أصل المسؤولية: زيغ من العبد أعقبه جزاء من الله. لم يُكرهوا على الميل ثم يعاقبوا على ما لا فعل لهم فيه.

وموضع القدر بعد الذنب أن يمنع اليأس والاعتراض، لا الاعتراف. يقول العبد: وقع ما علمه الله وقدره، وأنا الذي أذنبت، ولا حجة لي على ربي. ثم يتوب، ويطلب من الله أن يفتح له بابًا لم يكن يملكه. فهو لا يخرج بذنبه عن سلطان الله، ولا يخرج بقدره عن تبعة نفسه.

وموضع القدر بعد الطاعة أن يمنع العجب. يقول: أنا الذي صليت وتعلمت وجاهدت نفسي، ولذلك تتعلق بي المسؤولية والثواب، لكن قدرتي وإرادتي وفرصتي وثباتي كلها من خلق الله وفضله. لا ينسب العمل إلى نفسه نسبة استقلال، ولا ينفيه عنها نفيًا يبطل التكليف.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الحركة الصحيحة في قوله لأبي هريرة رضي الله عنه: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» رواه مسلم (2664).

بدأ الحديث بالحرص، وهو إرادة واعية تتجه إلى النافع، ثم أمر بالاستعانة، ثم نهى عن العجز. وبعد بذل السبب ووقوع ما لا يملك العبد تغييره جاء التسليم للقدر. لم يوضع القدر قبل العمل ليعطله، بل بعد العمل ليحفظ القلب من التحسر الذي يفتح باب الشيطان.

تستطيع هذه الجملة النبوية أن تضبط حياة كاملة. قبل القرار: اعرف النافع واحرص عليه. أثناءه: استعن بالله ولا تستسلم. بعد النتيجة: راجع ما ينفع مراجعته، ثم لا تفتح باب «لو» المعترض على ما استقر. بهذا يجتمع التخطيط والتوكل، والمسؤولية والرضا.

ومن تحريف الحديث أن يختار الإنسان منه الجزء الأخير فقط. يقول: قدر الله وما شاء فعل، وهو لم يحرص ولم يستعن، أو دخل السبب المحرم ثم سمى نتيجته قدرًا. نعم، كل شيء بقدر، لكن النبي صلى الله عليه وسلم علّمه أي عبودية تناسب كل مرحلة، فلا ينقل عبارة التسليم إلى موضع التكليف بالسعي.

إرادة تُربّى بالفعل

مشيئة الإنسان حقيقية، وهي تتقوى أو تضعف بما يكرره من أفعال. من اعتاد تأجيل التوبة صار الرجوع أثقل، ومن درب نفسه على الصدق والاعتراف قصر الزمن بين ظهور الحق وقبوله. هذه سنة يشاهدها الناس، ولا تعمل مستقلة عن مشيئة الله وتوفيقه.

ولهذا تشمل المسؤولية حماية الإرادة قبل ساعة الاختبار: يبتعد العبد عما يعرف أنه يضعفه، ويهيئ لنفسه ما يعينه، من غير أن يظن أن التدبير يضمن الثبات. والمقصود هنا تقرير أثر الاستجابة المتكررة، أما تفصيل الصحبة والبيئة وسائر الأسباب فله موضعه الآتي.

ولا ينتظر المؤمن شعورًا مثاليًّا قبل الطاعة. قد يكره القلب كلفة الفعل ويختاره تعظيمًا لأمر الله؛ فالمسؤولية لا تشترط أن يصبح الحق سهلًا قبل العمل. يبدأ بما ظهر، ويجاهد، ويرجو أن يتبع الصدق انشراحٌ وزيادة هدى.

إذا رسخ الضعف فقد يحتاج صاحبه إلى تدرج أو مساندة أو علاج مشروع. الاستعانة بذلك ليست نقصًا في المسؤولية، بل من حسن استعمال القدرة؛ فليس كل ضعف يُعالج منفردًا، وقد تكون أول خطوة صادقة أن يطلب الإنسان عونًا يحفظه من نفسه.

ضع كل معنى في زمنه الصحيح: قبل الفعل اسأل العون واعزم، وفي أثنائه جاهد ولا تتعلل، وبعد الطاعة احمد الله، وبعد المعصية اعترف وتب، وعند المصيبة سلّم لما وقع بعد بذل السبب. اختلاط الأزمنة يفسد العبودية؛ فيُستعمل القدر لتعطيل الأمر، أو يُستعمل السعي لصناعة العجب. أما ترتيبها فيجمع في القلب جدَّ المسؤولية وصدق الافتقار.

هنا يظهر محك الوحدة في صورتين. حين تخطئ، هل تبدأ بتسمية اختيارك، أم تسارع إلى الظروف والقدر حتى تخفف ألم الاعتراف؟ وحين تصيب، هل ترى نفسك مصدر الصواب والثبات، أم تعرف أن مشيئتك لم تخرج لحظةً عن مشيئة الله؟

اختر طاعة واضحة أو تركًا واضحًا، واجمع فيه بين عناصر الحديث: اعرف النافع، وخذ إليه خطوة، واستعن بالله، ولا تسمِّ مشقة البداية عجزًا. فإذا جاءت النتيجة فسلّم لله ما لا تستطيع رده، وراجع من تقصيرك ما تملكه. هكذا يعمل القلب ولا يتكل، ويسلّم ولا يتهرب.

ثبت الآن أن العبد يشاء ويعمل ويحاسب، وأن مشيئته تحت مشيئة الله. لكن بقاء هذا الأصل وحده لا يمنع بابًا آخر من الغرور: ربما قال الإنسان: سعيت وجاهدت، فالهداية نتيجة صنعتها واستحققتها. هنا تأتي الوحدة الأخيرة لتبين أن السعي مأمور به، وأن السعي نفسه من التوفيق، وأن السبب عبودية لا عقد معاوضة.

الوحدة الرابعة: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: 88]: الأسباب عبودية لا ثمن

معنى التوفيق

واجه شعيب عليه السلام قومًا فسد ميزانهم في المال والمعاملة، فنهاهم عن بخس الناس وعن الإفساد، ثم كشف لهم أخلاق دعوته فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

تبدأ الآية بإرادة الإصلاح، وتذكر الاستطاعة، وتنفي التناقض بين القول والعمل. جاء التوفيق بعد قصد صادق وبذل ممكن، لا بدلًا منهما. ثم رد شعيب عليه السلام إصابة الحق والقدرة على لزومه إلى الله. للعبد إرادة واستطاعة، واجتماع قصده مع الحق، وسلامة طريقه، وثباته على ما أراد، لا يتم إلا بإعانة الله.

التوفيق أن يهيئ الله للعبد أسباب الخير، ويعينه على معرفته وإرادته وفعله على الوجه الذي يرضيه. فقد يملك معلومة صحيحة ولا يحسن تنزيلها، أو يريد خيرًا ويختار له وسيلةً فاسدة، أو يبدأ مخلصًا ثم تزاحمه رغبة الظهور. اجتماع المعرفة والإرادة والقدرة على المراد الشرعي من فضل الله.

ولهذا سبقت الفاتحة سؤال الهداية بقولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. العبادة فعل العبد، والاستعانة إقراره بأن فعله لا يستقل. من أثبت العبادة وغفل عن الاستعانة عبد قوته وخطته، ومن تكلم عن الاستعانة وترك العبادة غطى العجز الاختياري بلغة التوكل.

تأمل طاعة واحدة، وسترى وجوه التوفيق تحيط بها قبل أن تبدأ. احتاج العبد أولًا إلى أن يبلغه الحق. كم من إنسان لم تصله المعلومة، أو وصلته مشوهة، أو لم يلتق بمن يحسن بيانها؟ وصول البيان نعمة سابقة على أي فخر بالاستجابة.

ويحتاج بعد بلوغ البيان إلى فهمه. يسمع النص سنوات، ثم يفتح الله له في لحظة معنى يغير رؤيته، وربما جاء الفتح في كلمة عالم أو سؤال صادق أو تجربة كشفت خطأ تصور. ولا تستقل قوة الذاكرة بإنتاج الفقه النافع؛ فسلامة الفهم من فضل الله، ولها أسباب من العلم والنظر والسؤال.

ثم تتحول المعرفة إلى قصد. يعرف الناس أشياء كثيرة ويتركونها، لأن العلم لم يصبح إرادة لتقديم الحق. قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: 7-8]. محبة الإيمان نفسها فضل.

ويفتقر العبد إلى القدرة والفرصة: صحة الجسد، وسلامة العقل، ووجود الوقت، ولقاء المعين، وصرف المانع. يندم المرء على خير أخره ثم تُغلق فرصته، فيعرف أن لحظة القدرة نعمة لا تتكرر بالضرورة.

وفي أثناء العمل يحتاج إلى مدد يحفظ الاتجاه. النية الصافية قد يزاحمها حب المدح، والطاعة التي بدأت بحماسة قد تتعب، والمشروع الذي قصد به الإصلاح قد يتحول إلى دفاع عن الذات. التوفيق عون متجدد، لا دفعة أولى تنتهي عند البداية.

وبعد الفراغ يحتاج إلى السلامة من العجب والمن والأذى. قد يقوم بالفعل الصحيح ثم تفسد علاقته به؛ يرى نفسه أفضل، ويحتقر المتعثر، ويذكر عمله كلما طلب مكانة. من تمام التوفيق أن يبقى العمل نعمةً يشكرها، لا وثيقة تفوق يحملها على الناس.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: 17]. لم ينف أنهم أسلموا بفعلهم، لكنه أبطل قلب العلاقة: لا فضل لهم على الرسول والدين، والمنّة لله الذي هداهم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 21]. جاءت الآية في سياق أوامر ونواهٍ، فلم تجعل فضل الله ذريعةً لترك تزكية النفس بالطاعة، وإنما قررت أن حصول الطهر وثباته فضل ورحمة.

من هنا نفهم التوفيق بلا جبر ولا استقلال. العبد يتعلم ويسعى ويجاهد، وهذه أفعال تنسب إليه حقيقة. والله هو الذي خلقه وخلق قدرته، وشرع له الطريق، وفتح له الفهم، وأعانه على القصد، وحفظه في العمل. لا يلغي أحد الطرفين الآخر؛ يثبت الفعل للعبد، ويثبت الفضل لله.

والتوفيق أخص من مجرد وجود القدرة أو وقوع الحركة. فقد يقدر الإنسان على عمل ويختار غير وقته، أو يقصد إصلاحًا ويجاوز القدر المشروع، أو يصيب جزءًا من الحق ويغفل ما يقيده. فإذا وفقه الله جمع له صحة القصد وموافقة الشرع وحسن التقدير والثبات، ثم حفظه من فساد العمل بعد وقوعه. ولهذا كان العبد محتاجًا إلى السداد في تفاصيل الطريق، لا إلى قوة البدء وحدها.

الأسباب عبودية لا معاوضة

جعل الله لأمور الدين والدنيا أسبابًا، وأمر بالأخذ بها، وربط بعضها بوعد صريح. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. المجاهدة فعل العبد، والهداية إلى السبل وعد من الله. لا ينتظر السالك انفتاح الطريق كاملًا قبل أن يتحرك، ولا يظن أن حركته تستقل بصنع الفتح.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]. التقوى سبب لجعل الفرقان، ومع ذلك ختمت الآية بفضل الله العظيم. السبب مأمور به، والثمرة عطاء منه.

ولا توجب هذه الأسباب على الله حقًّا ينشئه العبد بعمله؛ فالله هو الذي خلقه وقدرته، ودله على السبب، ولا ينتفع بطاعته. لكنه سبحانه لا يخلف وعده، وقد تفضل فوعد الصادقين، وجعل الطاعات أبوابًا لفضله. فيعمل المؤمن اعتمادًا على صدق الوعد، لا على دعوى الاستقلال أو المعاوضة.

قال الله في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» رواه مسلم (2577). فطاعة العبد لا تزيد ملك الله، ومعصيته لا تنقصه. كل ثمرة للطاعة راجعة إلى العبد، وكل قدرة عليها من الله، ولذلك لا معنى لمنّ المخلوق على خالقه.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن النجاة نفسها لا تكون عوضًا مكافئًا للعمل فقال: «لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ». قالوا: يا رسول الله! ولا أنت؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» رواه مسلم (2816). لا يلغي الحديث العمل؛ فقد جاءت الشريعة مملوءة بالأمر به، وإنما ينفي أن يكون العمل مستقلًّا بالنجاة أو مكافئًا لنعم الله.

ولا تعارض بين هذا الحديث وبين النصوص التي رتبت الجزاء على الأعمال. فالعمل سبب مأمور به، وبه تتفاوت المنازل، وقد وعد الله المطيعين وأوجب على نفسه صدق وعده. أما أصل دخول الجنة والنجاة من النار فلا يقع على سبيل أن العمل عوض يساوي نعمة الله، وإنما برحمته التي هدت إلى العمل وقبلته وأثابت عليه. فيعمل المؤمن غاية جهده، ثم يظل قلبه متعلّقًا بالرحمة لا برصيد يتوهمه.

يتسلل وهم الثمن إلى القلب حين يقول صاحبه: تعلمت، وجاهدت، وتركت؛ فلماذا لم أحصل على الفتح الذي أريد؟ عندها تتحول الطاعة من عبودية إلى فاتورة، وتتحول النتيجة في وهمه إلى دَين مستحق في الوقت والصورة اللذين اختارهما. ومن هنا يبدأ الاعتراض من موضع كان صاحبه يظنه شكرًا للعمل.

العبد يصدق وعد الله ولا يحدد لربه صورة الإنجاز. قد تكون ثمرة المجاهدة حفظًا من شر لم يره، أو كشف عيب جديد بدل شعور الوصول، أو فتح سبيل غير الذي توقع. وقد يكون في تأخر ما يرجوه بابٌ للصبر والصدق، وقد تأتي الثمرة في غير الصورة التي رسمها لنفسه.

ولا يمنع هذا من مراجعة السبب. ربما طلب الإنسان الهداية وهو يحافظ على باب يغذي هواه، أو دعا أن يصلح الله ولده وهو يكرر أسلوبًا يفسد العلاقة، أو طلب علمًا نافعًا وأعرض عن العمل بما علم. رؤية الفضل لا تعني إهمال التقصير، لكنها تمنع المراجعة من التحول إلى مطالبة لله.

ويُختبر الفرق بين العبادة والمعاوضة عند انتظار الوعد. المؤمن يوقن أن الله لا يخلف الميعاد، وأن التقوى والمجاهدة والطاعة لا تضيع، لكنه لا يفرض على الوعد صورةً من عنده. فقد تكون الهداية مزيد بصيرة، أو ثباتًا عند فتنة، أو كشفًا لخطأ كان صاحبه يظنه فتحًا. صدق الوعد ثابت، أما اختيار صورته فليس للعبد.

هذه الدقة تحفظ الرجاء من طرفين: فلا ييأس العامل إذا لم ير الصورة التي أرادها، ولا يأمن لمجرد أنه أتى بصورة السبب. يطلب من الله قبول سعيه وإصلاح نقصه، ويوقن أن الصدق لا يضيع عند الله، ثم يترك لربه اختيار صورة الفتح ووقته. وهكذا يصبح الوعد باعثًا على الاستقامة، لا مادةً للمطالبة أو الغرور.

والسبب الشرعي لا يعمل كآلة منفصلة عن حال القلب. قد يشترك اثنان في صورة طلب العلم، ويكون أحدهما طالبًا للحق والآخر طالبًا للمكانة. ويترك اثنان ذنبًا واحدًا، يتركه الأول تعظيمًا لله، ويتركه الثاني عجزًا مع بقاء المحبة. صورة السبب مهمة، وروحه من الصدق والإخلاص والتسليم جزء من عبوديته.

ولا يعني ذلك أن العبد يستطيع أن يشهد لنفسه بالإخلاص الكامل قبل أن يعمل. يبدأ بما يستطيع، ويجاهد نيته أثناء العمل، ويستغفر من نقصها. تعليق الفعل حتى يضمن صفاء القلب باب آخر من القعود؛ فالنية تُصلح بالمجاهدة والإنابة، لا بانتظار حالة لا اضطراب فيها.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 39-40] يثبت قيمة السعي ومسؤولية صاحبه، ولا يجعل السعي خالقًا لنتيجته. يسعى لأن الله أمره، ويحاسب على سعيه، ويرى أثره، ثم يبقى ما يناله من هدى وقبول وثبات فضلًا من الله.

ولهذا جمع الحديث بين الحرص والاستعانة: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» رواه مسلم (2664). لو كانت الأسباب مستقلة، لم يحتج إلى الاستعانة. ولو كان التوفيق يغني عن السبب، لم يأمر بالحرص. العبارة النبوية تختصر معنى الأسباب كلها: حركة جادة يرافقها قلب مستمد.

ثمرة التوفيق في القلب

ختم شعيب عليه السلام كلامه بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. التوكل ثمرة معرفة التوفيق؛ لأن من علم أن النجاح بالله اعتمد عليه وهو يعمل. والإنابة ثمرتها الأخرى؛ لأن من علم أن إصابة الحق ليست ملكه رجع إلى الله كلما انكشف له خطأ في القصد أو الطريق.

التوكل يزيد الجهد ويحرره من الأوهام. من توكل في طلب العلم نظم وقته، وقرأ، وسأل، من غير أن يعبد ذاكرته. ومن توكل في ترك ذنب أبعد أسبابه وطلب عونًا، ولم يعد إلى موضع الفتنة مختبرًا نفسه. ومن توكل في الدعوة أحسن البلاغ، ولم يغير الحق طلبًا للنتيجة.

وقد يلبس القعود ثوبًا إيمانيًّا: القلوب بيد الله، فلا جدوى من المحاولة؛ أو إن أراد الله لي العلم فتحه من غير ترتيب. وهذا فهم يباعد بين ما جمعه الوحي. شعيب قال: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ قبل أن يقول: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: 88]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «احرص» قبل «واستعن».

وفي الجهة المقابلة قد يعبد الإنسان الأسباب من حيث لا يشعر. يضع خطة دقيقة، فإذا تخلفت النتيجة انهار أو اتهم كل من حوله؛ لأنه بنى في نفسه أن الإتقان يمنحه السيطرة. التوكل يعلّمه أن الإتقان عبادة، وأن الكون لا يدخل في ملك خطته، وأن لله حكمًا لا يحيط به.

أما الإنابة فتمنع المشروع الصالح من أن يصبح صنمًا. يبدأ المرء عملًا يريد به الإصلاح، ثم يرتبط اسمه به، فيصعب عليه الاعتراف بأن بعض وسائله أخطأت أو أن غيره أقدر على إكماله. من قال: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88] رد نفسه وعمله إلى الله، فصار الحق أكبر من صورته.

فتش عن الإنابة في ثلاثة مواضع: في نيتك، ووسيلتك، وحجمك. هل ما زلت تريد رضا الله، أم صار انتصار فكرتك هو الغاية؟ هل بقيت الوسيلة مشروعة، أم دفعك الاستعجال إلى ظلم أو كذب؟ وهل حملت نفسك ما لم تُكلَّف به ثم سميت التوتر حرصًا على الدين؟ الرجوع إلى الله قد يبدأ من واحدة من هذه الخفايا.

ومن ثمرات معرفة التوفيق الشكر. إذا فتح الله للعبد طاعة، فلا تمر في وعيه كأنها خاصية طبيعية فيه. يتذكر من أين جاء البيان، وكيف تحرك القلب، وما الموانع التي صُرفت، فيقول الحمد لله بصدق. وشكر الهداية يتجاوز اللفظ إلى حفظ النعمة بالعمل، واستعمالها في الرحمة، وسؤال مزيدها.

الذي يرى طاعته منحةً لا يحتقر المتعثر. ينكر الخطأ، وينصح، ويحذر، لكنه يعلم أنه لو وُكل إلى نفسه لم يكن له أمان. وهذه المعرفة لا تساوي بين المستقيم والمفرط، وإنما تمنع المستقيم من تحويل الاستقامة إلى نسب روحي يتعالى به.

ومن ثمراته الخوف المنضبط. لا يأمن العبد على قلبه لأنه ذاق الطاعة، ولا يتحول خوفه إلى قنوط. يخاف سلب التوفيق فيحفظ الأسباب، ويرجو فضل الله فيستمر. وقد كان الراسخون يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]؛ ذكروا النعمة وسألوا دوامها.

ويرافق هذا الخوف رجاء قوي؛ فالله الذي وفق إلى البداية قادر على حفظها وزيادتها، وقد فتح لعباده باب الدعاء والإنابة. فلا ينظر المؤمن إلى تقلب القلب فيقنط، ولا إلى رحمة الله فيأمن، وإنما يستمد من الرجاء قوةً لمواصلة السبب، ويستمد من الخوف يقظةً تمنعه من الركون إلى الماضي. اجتماعهما هو الذي يصنع افتقارًا حيًّا لا ذعرًا ولا غرورًا.

ومن أجلى علامات التوفيق أن يزداد العبد تواضعًا كلما ازداد أثر عمله. فالطاعة التي تقوده إلى رؤية فضل الله تُثمر لينًا ورفقًا، أما الطاعة التي تضخم الذات فتحتاج إلى إنقاذ من آفتها. لا يعني هذا أن كل حزم كبر، ولا أن المؤمن يتردد في تسمية الخطأ؛ الفرق في موضع القلب: أيحزن للمخالفة ويرجو لصاحبها، أم يجد في سقوطه فرصةً لتأكيد تفوقه؟

ومن أجلى علامات التوفيق أن يفتح العمل بابًا للافتقار لا بابًا للأمان. كلما ذاق العبد أثر الاستعانة عرف أن قلبه لا يثبت بماضٍ صالح، وأن نجاحه يحتاج إلى حراسة كما يحتاج ضعفه إلى عون. عندها يبقى الدعاء حيًّا: لا دعاء مذعور يائس، بل دعاء عبد عرف كرم ربه وعرف أنه لا يستغني عنه لحظة.

وحين تتأخر الثمرة يُمتحن معنى التوفيق مرةً أخرى. يجاهد الإنسان عادةً قديمة فيتعثر ثم يقوم، أو ينصح قريبًا ولا يرى استجابة؛ فيراجع السبب والأسلوب، ويتوب من تقصيره، ويواصل ما أمره الله به. لا يجعل التأخر دليلًا على عبث السعي، ولا إذنًا بالقسوة. عليه إحسان ما يملك، وأما الفتح فلله.

محك العمل المفتقر

اسأل نفسك عن طاعة وُفقت إليها قريبًا. لا تبدأ من لحظة الإنجاز؛ ارجع إلى ما قبلها. من الذي ذكرك؟ ومن الذي أبقى في قلبك حساسيةً للخطأ؟ ومن الذي هيأ لك وقتًا أو صاحبًا أو كلمة؟ ومن الذي منحك شجاعة الخطوة، ثم سترك من مفسدات العمل؟ هذا النظر يخرج الشكر من العموم إلى مشاهدة النعمة.

ثم انظر إلى لغتك بعد النجاح. هل يكثر فيها «أنا فعلت» حتى يغيب فضل الله؟ وهل تستعمل تجربتك معيارًا قاسيًا للناس: أنا تركت بسهولة، فلماذا لا يتركون؟ ربما هيأ الله لك أسبابًا لم تتهيأ لهم، وربما ابتلاء غيرك أشد. لا يسقط ذلك تكليفهم، لكنه يسقط إعجابك بنفسك.

ولا تتصنع إنكار سعيك حتى تحفظ معنى الفضل. أنت الذي تعلمت وقمت وجاهدت، ولهذا تؤجر وتحاسب، لكنك فعلت بما أعانك الله عليه، وكان فعلك نفسه من نعمته. بهذه الحقيقة تستقيم النسبة: مسؤولية لا استقلال فيها، وشكر لا يختبئ خلفه عجب.

وراقب علاقتك بالأسباب قبل العمل. هل تنتظر توفيقًا بلا حركة، أم تدخل الحركة مستغنيًا؟ الطريق الصحيح أن تحدد السبب المشروع، وتبذله بإحسان، وتطلب من الله إصابة الحق فيه. في طلب العلم اقرأ واسأل وقل: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، واسأل الله علمًا نافعًا. وفي التوبة اقطع المدخل وقل: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» رواه الترمذي (2140) وحسنه.

وراقبها بعد العمل. هل تطالب بالنتيجة، أم ترجوها؟ هل يسمح تأخرها لك أن تراجع السبب من غير اعتراض، وأن تواصل العبادة من غير فتور؟ التوفيق يربي قلبًا جادًّا لا مساومًا، يصدق وعد الله، ولا يتعامل معه كدين أنشأه بعمله.

اختم هذا المحور بأمر واحد من أمور الهداية: مسألة تحتاج إلى علم، أو طاعة مؤجلة، أو ذنب يحتاج إلى قطع. اكتب السبب الذي تملكه وخذ أول خطوة، ثم سمِّ وجوه افتقارك: الفهم، وصدق القصد، والقدرة، والثبات، والقبول. لا تجعل كثرة المعاني تؤخر الفعل؛ خطوة واحدة مستعينة أصدق من خطة كاملة بقيت في الورق.

هنا تكتمل حركة المحور. بدأ العبد بقوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6]، فعرف أن حاجته مستمرة. ثم رأى هدى الله يأتيه في القرآن وعلى لسان الرسول. وبعد وصول البيان عرف أنه يشاء ويختار ويعمل، وأن مشيئته تحت مشيئة الله. وأخيرًا عرف أن الأسباب التي كُلف بها لا تخرجه من الافتقار، بل هي نفسها ميدان التوفيق.

خاتمة المحور الأول

الهداية من الله ابتداءً وانتهاءً: أنزل بيانها، وأرسل رسولها، وفتح أبواب سؤالها، وخلق للعبد مشيئةً يعمل بها تحت مشيئته. والعبد ليس مالكًا للطريق ولا متروكًا بلا فعل؛ هو سائل متلقٍّ، ومريد مسؤول، وعامل مستعين.

إذا ازداد علمه ازداد افتقاره، وإذا أخذ بالسبب لم يعبده، وإذا نجح شكر، وإذا تعثر راجع وتاب ولم يحتج بالقدر. يقول في صلاته: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، ويقول في عمله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: 88]، وبين الدعاءين تسير حياته كلها.

لكن البيان الواحد لا يصنع الأثر نفسه في كل قلب. يسمع اثنان الآية، فيقترب أحدهما ويبدأ الآخر في مقاومتها. فما الهيئة التي تجعل القلب قابلًا للانتفاع بالوحي، وكيف يتحول القرآن نفسه إلى زيادة إيمان في قلب وزيادة خسار في آخر؟

المحور الثاني: القرآن الواحد بين قلبين

انتهى المحور الأول إلى أن هدى الله يأتي من عنده، ويصل إلى الإنسان بالوحي والرسالة، وأن العبد مسؤول عن موقفه منه مع بقاء قلبه مفتقراً إلى التوفيق. وحين يصل البيان يقترب السؤال من داخل الإنسان: لماذا تدخل الآية قلبًا فتوقظه وتقوده، وتمر بقلب آخر فلا تتجاوز سمعه، وربما وجد فيها مادةً جديدة للمقاومة؟

يقف قلبان أمام آية واحدة، يتحد مصدرها ووضوحها، ثم يفترقان عند موضع الحكم: قلب يخفض ما في نفسه للحق، وقلب يرفع مصلحته أو صورته فوق ما ظهر له. لا يصنع اختلاف القلوب حقائق متعددة؛ فالقرآن حق قبل قبول الناس وردهم، وإنما يكشف التلقي ما يحمله القلب وما يمنحه الكلمة الأخيرة.

وهذا الأصل لا يتحول إلى تهمة جاهزة لكل مخالف؛ فللبيان والفهم أحوالٌ يعلم الله مقاديرها. أما القارئ فيُرد إلى موضع مسؤوليته: بأي قلب يستقبل كلام الله، وما الأثر الذي يتركه فيه بعد أن يسمعه؟

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته بدعاء يضع الحقيقة والاختلاف والافتقار في مواضعها: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه مسلم (770). يدخل العبد على الوحي طالبًا أن يُقاد إلى الحق، لا أن يقود الحق إلى النتيجة التي اختارها من قبل.

بهذا الدعاء يبدأ النظر في القلب من غير غرور ولا يأس. فالحق لا يتعدد بتعدد الرغبات، والعبد لا يملك قلبه استقلالًا، ومع ذلك يدخل مسؤولًا عن صدق قصده وحسن استماعه. وبين الافتقار والعمل تنكشف هيئة التلقي أولًا، ثم يظهر ما يتركه القبول أو المقاومة من أثر يتزايد في كل اتجاه.

الوحدة الخامسة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

حين رأى السحرة ما يعرفون

لم يدخل سحرة فرعون ميدان المواجهة متجردين من الدنيا. سألوا قبل أن يبدأوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 113–114]. كان الأجر والقرب من السلطان حاضرين في نفوسهم، وكانوا جزءًا من حشد أُريد به إبطال دعوة موسى عليه السلام أمام الناس.

ألقوا حبالهم وعصيهم، وصنعوا ما يعرفون صنعه، ثم ألقى موسى عصاه بأمر الله. قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 118-122]. خبرتهم التي كانت أداةً في خدمة الباطل صارت في تلك اللحظة أداة تمييز؛ عرفوا أن ما رأوه ليس من جنس ما يصنعون.

لم يجعلوا معرفتهم بالصناعة سبباً للدفاع عنها بعد سقوطها، ولم يطلبوا مهلةً يحمون بها مكانتهم في المجلس. وقع الحق أولًا، ثم وقعوا هم ساجدين. انتقلت المعرفة من الذهن إلى موضع الحكم، فسقطت المصلحة التي دخلوا يطلبونها حين تعارضت مع ما عرفوه من آية الله. هنا بلغت القصة ذروتها: لم يكتمل ماضيهم قبل الهدى، وإنما أعاد الحق ترتيبهم حين استسلموا له.

وغضب فرعون لأن السجود كسر سلطانه في أشد لحظاته احتياجًا إلى الاستعراض. اتهمهم بالتآمر وتوعدهم بالقطع والصلب [طه: 71]، فجاء جوابهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: 72]. قبل الآية كانوا يسألون عن أجره، وبعدها صار تهديده عاجزًا عن شراء موقفهم؛ لأن الذي تغيّر لم يكن مقدار المعلومات وحده، بل المرجع الذي تُوزن به الحياة والموت.

على الجهة الأخرى واجه فرعون آيات متتابعة. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56]، ووصف موقفه وقومه بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]. في هذا السياق لم يكن موضع النقص غياب البرهان، بل حكم الظلم والعلو على ما استيقنته النفوس.

هذه الدلالة خاصة بمن حكى الله عنهم، فلا تُنقل إلى كل إنسان لم يقتنع بكلامنا، ولا يقال عن كل متردد إنه مستيقن جاحد. غير أنها تهدم وهمًا عامًا: المعرفة الذهنية لا تحمل صاحبها وحدها إلى الهداية. قد يعلم الإنسان حقيقةً ثم يقاوم لوازمها؛ لأن قبولها سيكلفه منصبًا، أو صورةً بناها أمام الناس، أو انتماءً يصعب عليه مفارقته، أو اعترافًا يجرح كبرياءه.

قوة مشهد السحرة في أنهم لم يدخلوا بلا مصالح، ولم يكونوا نماذج مثالية تنتظر أول آية لتسجد. دخلوا طالبين الدنيا، ثم أبقوا في داخلهم موضعًا يحكم منه الحق إذا تبيّن. القابلية للهداية لا تشترط كمالًا سابقًا، وإنما تشترط أن تبقى المصلحة دون مرتبة الإله، وأن يظل الرجوع ممكنًا حين يظهر أمر الله.

ومن دقائق المشهد أن معرفتهم السابقة لم تُلغَ، بل تغيّرت وظيفتها. هي المعرفة نفسها التي جاؤوا بها لينصروا فرعون، ثم صارت شاهدًا على بطلان دعواه. وهكذا لا تكون الخبرة عاصمًا بذاتها ولا حجابًا بذاتها؛ تحمل صاحبها إلى الاعتراف حين تخضع للحق، وتمنحه لغةً أدق للمكابرة حين تخضع للمصلحة.

ولم يكن سجودهم ثمرة اندفاع وجداني لا يثبت أمام الكلفة. ما إن تبدل موقفهم حتى تبدل موقعهم في المجلس: من رجال ينتظرون القرب إلى متهمين يواجهون القتل. ومع ذلك قالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 72]. اليقين بالآية أعاد تقديرهم للحياة نفسها، فصغر ما كان قبل دقائق غايةً يرجونها.

هذا التحول لا يبرر انتظار لحظة خارقة تعفي الإنسان من مجاهدة نفسه. القصة تعرض ما يفعله الحق حين يجد موضع قبول، ولا تعد بأن كل صراع ينتهي في لحظة. قد يحتاج المرء إلى تعلم وسؤال وصبر، لكن الخط الحاكم واحد: كلما ظهر له من الحق شيء، لم يجعل تأخر اكتمال الصورة حجةً لرد القدر الذي بان منها.

وكان أمام فرعون الباب نفسه من جهة أعظم: أن يخفض دعوى العلو أمام رب العالمين، أو يحول سلطانه إلى حاجز بينه وبين ما عرف. الدليل لم يخلق حقين، بل كشف قلبين عند لحظة الحكم. ومن هذا المشهد يبرز السؤال: ما الهيئة التي تجعل القرآن يجد في القلب طريقًا، فلا يبقى علمًا فوقه ولا صوتًا يمر بجانبه؟

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

افتتحت سورة البقرة بعد الحروف المقطعة بقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. ثبات الكتاب من جهة الحق يقابله تفاوت الناس من جهة الانتفاع. القرآن لا يكتسب صدقه من تقوى القارئ، والمتقي لا يمنحه الهداية من عند نفسه؛ لكنه يستقبله بقلب يصدّق ويخشى ويتهيأ لأن يجعل أمر الله فوق هواه.

ووصف الله القرآن بأنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]، وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]. فهدايته عامة من جهة البيان والدلالة وإقامة الحجة، وخصوص المتقين يظهر في تحقق الثمرة: هم الذين يفتحون للخطاب طريقًا إلى الاعتقاد والعمل، ويخافون أن يردوا أمر ربهم حين يراجع ما ألفوه.

عموم الهدى لا يعني أن كل من بلغه القرآن بلغته الحجة بالدرجة نفسها، ولا أن كل سامع فهمه على وجه واحد. هذه مسائل يراعيها عدل الله وعلمه بالعباد. المقصود أن الكتاب جاء للناس دالًّا إلى الحق، وأن أثر دلالته يتفاوت بحسب ما بلغه الإنسان وفهمه، وبحسب موقفه مما ظهر له. فلا تُلغى ضرورة البيان، ولا تُلغى مسؤولية القلب بعد البيان.

وسياق مطلع البقرة يفسر هذه الهيئة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 3-4]. الله والغيب والآخرة حقائق حاكمة، والوحي يُصدَّق، والعبادة والإنفاق ينقلان الإيمان من دعوى باطنة إلى حياة تتحرك به.

افتتاح الآية بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] يثبت حقيقة الكتاب، ولا ينفي أن يرد على القارئ سؤال أو شبهة تحتاج إلى بيان. الفرق بين الريب المنسوب إلى الكتاب والاضطراب القائم في النفس مهم: الكتاب لا يحمل سببًا يوجب الشك في صدقه، أما الإنسان فقد يحجبه جهل أو شبهة أو هوى، ويكون طريقه أن يطلب البيان بدل أن يجعل اضطرابه حكمًا على الوحي.

والإيمان بالغيب يحرر القلب من حصر المعرفة فيما يراه ويقيسه بنفسه. حين يأتي خبر الله لا يرده لأنه يتجاوز تجربته، وحين يأتي أمره لا يجعله تابعًا لما استحسنه العرف. ثم تأتي الصلاة والإنفاق لتكشف استيلاء التصديق على الجوارح والمال؛ فالمتقون لم يكتفوا بالموافقة الذهنية، بل أخرجوا من أوقاتهم وأموالهم ما يشهد بأن الوحي صار حاكمًا.

واليقين بالآخرة يوسع زمن القرار. من رأى حياته كلها في المصلحة القريبة بدا له كل تكليف يحرمه ربحًا أو مكانةً عدوًّا لسعادته. أما من أيقن باللقاء فإنه يقرأ الخسارة العاجلة داخل مآل أطول؛ فقد يترك محبوبًا فينجو، وقد يفوز بصفقة ويخسر بها قلبه. لهذا كانت الآخرة جزءًا من هيئة التلقي، لا معلومةً مؤجلة إلى باب الوعظ.

المتقون في هذا السياق قوم عرفوا جهة السير، لا قوم فرغوا من كل ضعف وجهل. يقوم في القلب حذر من مخالفة الله، واستعداد لتقديم أمره إذا ظهر. قد يتردد المتقي أو يجد كلفةً أو يزل، لكنه لا يمنح هواه حق التشريع، ولا يجعل خطأه أصلًا يجب أن يتكيف النص معه. يبقى باب الاعتراف مفتوحًا، وتبقى الآخرة أكبر من المصلحة العاجلة.

ومن هنا تجتمع هداية القرآن السابقة وتقوى القلب اللاحقة من غير دور مغلق. يدخل الإنسان الطريق بما بلغه من بيان وإيمان وخشية، فينتفع بالوحي ويقوى به، ثم يصبح ما حصل له من تقوى بابًا لانتفاع

جديد. هذه الحركة لا تجعل العبد صانعًا لنوره، فالله أنزل الكتاب وجعله هدى وفتح به القلوب، والعبد آمن وأقام وأنفق وأيقن، والتوفيق هو الذي يصل السبب بثمرته.

قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54]. تنتقل الآية من العلم بالحق إلى الإيمان، ثم إلى إخبات القلب، وترد الهداية في نهايتها إلى الله. لم تبق المعرفة فوق القلب؛ نزلت به إلى الخضوع والإذعان، ثم مضى صاحبها بهداية ربه.

الإخبات يكشف الفرق بين علمين تتشابه ألفاظهما. أحدهما يضيف الدليل إلى رصيد صاحبه ويمنحه أداةً أخرى في الجدل، والآخر يضع صاحبه تحت حكم ما علم. يشعر أن ربه يخاطبه، فيهدأ صخب النفس وتضعف حاجتها إلى الدفاع عن الصورة. العلم النافع لا يرفع العالم فوق الحقيقة؛ يجعله أقدر على معرفتها وأسرع رجوعًا إليها.

وفي ترتيب الآية لطف تربوي: علموا أنه الحق، فآمنوا، فأخبتت قلوبهم. لم يُطلب منهم إلغاء النظر، ولم تُجعل المعرفة نهاية الطريق. النظر الصحيح قاد إلى تصديق، والتصديق هبط بالقلب من مقام المراقب إلى مقام العبد. ثم جاء الوعد بالهداية إلى صراط مستقيم، فحتى بعد العلم والإيمان والإخبات بقي السير محتاجًا إلى هداية الله.

ولهذا لا يملك الإنسان أن يتخذ استجابته دليلًا على أنه صنع هدايته. صدر عنه علم وإيمان وخضوع، وهي أفعال حقيقية يُحمد عليها ويحاسب على أضدادها، لكن نزول الكتاب، وبلوغ البيان، وانفتاح القلب، وثباته عند الكلفة كلها من فضل الله. يزداد المتقي عملًا، ويزداد مع العمل شكرًا وخوفًا من أن يوكل إلى نفسه.

والتقوى التي تعين على الانتفاع لا تتحول إلى تزكية للنفس. من قال: أنا من المتقين، فكل فهم يقع لي هدى، قلب العلاقة التي أقامتها الآية. مقدار التقوى يظهر بقدر الخضوع للكتاب، لا بقدر الثقة بالنفس أو الانتساب إلى جماعة أو مستوى علمي. والمتقي أشد حاجة إلى مراجعة فهمه؛ لأنه يخاف أن ينسب إلى الله ما لم يقل، كما يخاف أن يرد ما قاله الله.

ولهذا لا يحتكر فريق الانتفاع بالقرآن لمجرد صحة شعاره أو سلامة أصوله العامة. الانتماء إلى الحق نعمة، لكنه يظل محتاجًا إلى برهان يومي من التسليم والعدل والرجوع. ويحمل الإنسان رايةً صحيحة ثم يقاوم نصًّا يمس طريقته أو زعامته، فيكون خطره من الموضع الذي ظنه ضمانًا. القرآن حاكم على الجماعات والأشخاص، ولا يصير تابعًا لأحد باسمه.

يعرف الإنسان المصطلحات ويحسن الاستدلال، ثم يدخل على النص وفي قلبه نتيجة لا يسمح بمراجعتها. ويسمع آخر آية قليلة الألفاظ فتردّه عن ظلم أو شهوة. الأدوات العلمية لازمة لصحة الفهم، غير أن سلامة الأداة لا تضمن سلامة القصد. حين اجتمعت معرفة السحرة بالصناعة مع التسليم لما ظهر، صارت الخبرة بابًا للسجود بدل أن تصبح حصنًا للمكابرة.

قلب حاضر لا قلب مثالي

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]. لكل إنسان قلب من جهة الخلقة، لكن الآية تتحدث عن قلب يعقل ويعي، أو مستمع ألقى سمعه وهو حاضر بقلبه، غير غائب عما يسمع. الذكرى في الخطاب، والانتفاع يحتاج إلى حضور لا يبدده التشاغل الداخلي أو الاستعداد للرد قبل الفهم.

يجلس المرء أحيانًا في مجلس القرآن وأذنه تسمع، لكن قلبه منشغل بخطأ القارئ، أو بتجهيز جواب، أو بتوزيع الآية على أشخاص غائبين. تدخل الكلمات إلى السمع ولا تبلغ موضع الحكم؛ لأنه حضر مراقبًا للآخرين أكثر من حضوره عبدًا مخاطبًا. إلقاء السمع أن تُسكت هذا الضجيج قليلًا، وأن تمنح كلام الله فرصةً أن يكشفك قبل أن تستعمله في كشف غيرك.

ووصف المستمع بأنه ﴿شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] يضيف إلى السماع معنى الحضور. قد يكون الجسد قريبًا والصوت واضحًا، لكن القلب غائب في خصومة أو قلق أو رغبة في الظهور. الحضور لا يتطلب فراغ النفس من كل خاطر؛ يطلب أن يعود المرء كلما شرد، وأن يمنع خواطره من تولي الحكم قبل أن يتم الخطاب ويُفهم مراده.

وفي زمن المقاطع السريعة يضعف هذا الحضور بطريقة أخرى. يصل جزء من آية محاطًا بعنوان مثير وتعليقات متخاصمة، فيقرأ الإنسان النص من خلال موقفه من الناشر. يكفي هنا محك خاطف: أن يفصل بين ثبوت النص ودلالته وبين إعجابه بحامله أو نفوره منه، وألا يجعل سرعة الشاشة أسرع من حق القرآن في الفهم.

والحضور الصادق لا يلغي السؤال والنظر. قد يحتاج المستمع إلى تفسير، أو يتوقف حتى يجمع السياق، أو يراجع صحة ما نُسب إلى السنة. الفرق يظهر في غاية السؤال: سؤال يريد إزالة الحجاب بينه وبين الحق، وسؤال يطلب حجابًا جديدًا يؤجل به المطالبة. ولا يملك الناس الجزم بالنيات من صيغة واحدة؛ أما صاحب السؤال فيعرف من نفسه مقدار استعداده لقبول جواب يخالف مصلحته.

ولا يكتمل أثر التلقي عند القشعريرة والدمعة، وإن كانتا من آثار الخشية إذا صدقتا. الطباع متفاوتة، ورب هادئ الظاهر أسرع امتثالًا من شديد التأثر. السؤال الأصدق: هل وجد الوحي منفذًا إلى القرار؟ هل رُد حق، أو تُرك ذنب، أو روجع رأي؟ هناك تتحول الرقة من لحظة جميلة إلى هداية تعمل.

ويصبح التأثر نفسه موضع ابتلاء حين تعجب النفس بلينها وتظن أن الدموع أغنتها عن التغيير. عندئذ تتحول علامة الخير إلى ستار يحمي التقصير. والميزان أرحم وأصدق: يُشكر أثر الخشية، ثم يُسأل عن الطريق الذي فتحه. إن لم يظهر العمل اليوم، بقي القلب مترقبًا لا مستغنيًا، يطلب أن تتحول الرقة إلى ثبات عند أول كلفة.

والقلب القابل ليس قلبًا خاليًا من الصراع. كان في نفوس السحرة طلب للأجر، ثم دخل الحق على هذا الطلب فغيّر مرتبته. قد يخاف العبد خسارةً أو يجد نفورًا أوليًّا من حكم ثقيل؛ والخاطر العارض لا يساوي موقفًا نهائيًّا. اتجاهه يتحدد بما يصنع بعده: أيعرض خوفه على وعد الله، أم يغذيه حتى يصبح الحكم نفسه متهمًا؟

تظهر حياة القلب في قدرته على الاعتراف. كلما اشتدت حاجة الإنسان إلى حماية صورته، ضاقت مساحة السماع؛ يعرف أن الرجوع فضيلة في الكلام العام، ثم يثقل عليه حين يحمل اسمه وتاريخه أمام الناس. وتتخفى حماية الصورة في عبارات تبدو علمية أو أخلاقية: «المصلحة تقتضي التأني»، أو «الرجوع الآن يربك الناس». وقد تصدق هذه الاعتبارات في موضع، وتغدو في آخر أسماء مهذبة للخوف من الاعتراف. القلب الحاضر يراعي العواقب بعد ثبوت الحق، ولا يجعلها مانعةً من أصل الرجوع.

ويثبت الإنسان على رأيه لأن الدليل معه، ويرجع آخر تحت ضغط لا لأن الحق ظهر. القابلية ليست سيولةً تتبع آخر صوت، وإنما ثبات على طلب الحق مع مرونة في ترك الخطأ. يبذل صاحبه وسعه في الفهم، ويستعمل الأدوات المعتبرة، ثم يبقى قابلًا لأن يراجعه دليل أقوى، من غير أن يجعل كثرة المراجعة مسرحًا لاضطراب لا ينتهي.

ولا تصدر هذه المعاني شهادةً نهائية على النفس: «قلبي حي» أو «أنا ممن ينتفعون». القلب يتغير، ويلين في باب ويقاوم في آخر يمس مصلحةً أشد. المحك أصدق حين يصير سؤالًا متكررًا: ماذا يحدث في داخلي عندما يراجعني الوحي؟ هل تضعف مدة التبرير، ويقصر الطريق إلى الاعتراف، أم تتسع قدرتي على حماية ما أريد؟

حين يدخل القرآن إلى موضع الحكم

يظهر موضع القرآن في القلب حين يأتي الحكم على خلاف رغبة مستقرة. قد يعرف المرء تحريم معاملة، ثم تتعلق بها فرصة مالية يرى أنها لن تتكرر، وتزدحم حوله التزامات الأسرة وتجارب الآخرين. القلب

الحاضر لا يهمل حقيقة الواقع، لكنه لا يسمح للواقع أن يغير اسم الحلال والحرام. يعرض الواقعة كاملة، ويتثبت من الحكم، ثم يقبل أن تكون سلامته في ترك ما تعلقت به نفسه.

وتبدأ المراوغة أحيانًا قبل السؤال. يحذف السائل من الواقعة ما يغير الحكم، أو ينتقل بين المفتين حتى يجد الجواب الذي حسمه في باطنه، ثم يطمئن إلى أنه رجع إلى الشرع. أما من يريد الهدى فيخاف من كذب عرضه كما يخاف من خطأ الجواب؛ لأن الحكم الذي بُني على نصف الحقيقة لن يخلصه من تبعة نصفها الآخر.

ويحتاج بعد البيان إلى وقت يرتب فيه خروجه من المعاملة أو يرد الحقوق من غير ظلم جديد. هذا التدبير جزء من الفقه، ما دام اتجاهه إلى الامتثال واضحًا. الفرق بين التدرج الصادق والتأجيل المراوغ يظهر في الخطوات: الأول يقلل المخالفة ويحدد طريق الخروج، والثاني يكرر الكلام عن التعقيد حتى تصبح المصلحة واقعًا ينسخ الحكم.

وفي موضع آخر قد يظهر الحق على لسان شخص لا يحبه. هنا يسبق موقفه من القائل نظره في القول؛ فيرد المعنى حتى لا يمنح خصمه فضل الإصابة. القلب المتقي يفصل بين حق الكلام ونقص حامله: يزن الدليل بميزانه، ويقبل الصواب ممن جاء به، ويبقى له أن ينكر خطأ القائل في موضعه. سقوط هيبة الشخص لا يسقط سلطان الحق.

أما طالب العلم فتشتد عليه المراجعة حين يطال الدليل قولًا درّسه واشتهر به. المسألة عندئذ تمس معلومةً ومكانةً معًا. أدواته العلمية تخدم الهداية إذا أعانته على التحقيق والرجوع، وتخدم الهوى إذا تحولت إلى حصنٍ لصورة سابقة. وليس الشأن في سرعة التراجع، بل في صدق البحث، وإتاحة الاحتمال لأن ينتهي إلى تصحيح ما قال.

أول حركة في القلب عند ورود النص تكشف كثيرًا من اتجاهه: أيبدأ بسؤال «ماذا يريد الله مني؟»، أم بسؤال «كيف أجعل هذا بعيدًا عني؟». المحبة الصادقة للقرآن تظهر حين يُمنح سلطة المراجعة، لا حين يوافق الإنسان في كل مرة. وفي الوقت نفسه تجمع التقوى بين الخوف من رد الحق والخوف من نسبة ما ليس منه إليه؛ فلا عجلة باسم الرقة، ولا تعنت في الفحص طلبًا للفرار.

ينفع أن يدخل العبد على القراءة بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ». ثم يسمي بينه وبين الله النتيجة التي يميل إليها، والمصلحة التي يخاف فقدها، والشخص الذي يصعب عليه قبول الصواب منه. تسمية المؤثر لا تزيله فورًا، لكنها تخرجه من الظلام وتعيد القلب إلى افتقاره.

وليختر نصًّا يعرفه منذ زمن، ثم يسأل عن موضعه الحقيقي في حياته: أي قرار يراجعه؟ وأي دفاع يكرره حتى لا يتحرك؟ يكفي فعل واحد يثبت أن القرآن دخل موضع الحكم: ترك معاملة، أو رد حق، أو تصحيح قول، أو اعتراف بقدر من الخطأ. وعندئذ لا تنتهي القصة بالقبول أو المقاومة؛ فكل موقف يترك بعده أثرًا جديدًا في القلب، ويتحول تلقي الوحي إلى زيادة تمضي بصاحبها في الاتجاه الذي اختاره.

الوحدة السادسة: الوحي الواحد بين زيادة الإيمان والخسار

حين تنزل السورة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 124–125]. سورة واحدة نزلت من عند الله، فظهرت في القلوب زيادتان متعاكستان.

جاء سؤال المنافقين في سياق اعتراض واستخفاف: أيكم زادته هذه إيمانًا؟ ثم أجاب القرآن بما وقع في القلوب. المؤمنون تلقوا السورة تصديقًا وتسليمًا، فزادتهم إيمانًا واستبشروا. وأصحاب المرض قابلوا النزول بشك وسخرية ومقاومة، فكان ردهم الجديد رجسًا أضيف إلى رجس سابق. الوحي لم يتبدل؛ الذي اختلف هو الحال التي لقيها والفعل الذي صدر بعده.

وظيفة هذا الموضع ليست شرح سنة الزيادة كلها، وإنما التقاط لحظة الافتراق عند نزول الوحي: إيمان سابق يستقبل الخطاب بوصفه حقًّا جديدًا عليه أن يصدقه ويخضع له، ومقاومة سابقة تستقبل الخطاب نفسه بوصفه تهديدًا لموقفها. هنا يكشف النزول ما في القلب قبل أن نتتبع آثار الطريق بعد ذلك.

أما سؤال المنافقين فكان مشغولًا بإنكار الأثر قبل أن يطلبه. لم يقولوا: كيف نزداد؟ بل اتخذوا تفاوت القلوب مادةً للاستهزاء. وعندما يدخل القلب على الوحي بهذا الاتجاه، يصبح كل نزول مناسبةً لتأكيد موقفه من الرسول والمؤمنين. مقاومته ليست فراغًا؛ هي فعل يتكرر، وكل تكرار يترك في النفس استعدادًا أكبر لما بعده.

لهذا كان الاستبشار علامةً على هيئة التلقي أكثر من كونه وصفًا لتفاصيل نمو الإيمان. المؤمن يفرح بأن البيان جاءه من ربه وأن له أن يستجيب له الآن؛ أما صور ما ينشأ بعد الاستجابة من رسوخ وسكينة ومحبة وتقوى فسيأتي تفصيلها في موضع سنة زيادة الهدى.

وقد تأتي السورة بما يشق على النفس أو يكشف تقصيرًا كانت تحسن ستره. عندها لا يكون استبشار المؤمن راحةً من المطالبة، بل فرحًا بأن الحقيقة وصلت إليه قبل لقاء الله، وأن باب الإصلاح ما زال مفتوحًا. الآية التي تؤلمه وهي تكشف خلله أرحم به من صوت يطمئنه حتى يواصل السير في الخطأ.

أما زيادة الرجس فالتقت بمرض سابق واستجابة جديدة. وصف السياق قلوبًا فيها مرض، ثم أظهر قول أصحابها عند نزول السورة، فجاءت الزيادة من جنس ما اختاروا: شك يضاف إلى شك، واعتراض يجدده اعتراض، وإعراض يثقل به الإعراض. لا تصف الآيتان قلبًا محايدًا أُلقي فيه الرجس بلا سبب، بل تحفظان عدل الله ومسؤولية العبد في آن واحد.

والرجس في هذا الموضع يعبر عن قذارة معنوية تتراكم في الاعتقاد والموقف. لم تنشأ من مادة القرآن الطاهرة، وإنما من ردهم لها؛ كما تزيد الشمس عينًا مريضة ألمًا مع أنها سبب الإبصار للصحيحة. والمقصود بالمثال تقريب جهة الأثر، لا تشبيه الوحي بشيء يؤذي بذاته؛ فالخسار من ظلم المتلقي، والشفاء من هدى الله ورحمته.

وتكفي هنا ملاحظة واحدة: الموقف من الوحي لا ينتهي بانتهاء المجلس. الاستجابة أو المقاومة تترك أثرًا يجعل اللقاء التالي غير مطابق للأول. أما كيف تتراكم الزيادة في كل اتجاه، وما صورها، فذلك سؤال المحاور اللاحقة.

ولا تتحول الآيتان إلى قانون نفسي جامد يقرر أن كل قراءة تحبس صاحبها أبدًا في اتجاه واحد. القلوب تتوب وتتغير، والمؤمن قد يقرأ غافلًا ثم ينتبه، والمتردد يسأل حتى يزول إشكاله. المرض المذكور في السياق لا يساوي سؤالًا عارضًا أو بطئًا في الفهم؛ الفارق في حركة القلب بعد البيان: أيتقدم نحوه طالبًا للحق، أم يجعل الإشكال وقودًا دائمًا للمقاومة؟

القرآن إذن يترك في القلب أثرًا جديدًا من جنس موقفه منه. فعل الله ظاهر في إنزال السورة، وزيادة المؤمنين إيمانًا، ومجازاة أصحاب المرض بزيادة الرجس بعد اعتراضهم وإعراضهم؛ وفعل العبد ظاهر في الإيمان والاستبشار أو السخرية والمقاومة. وبينهما توفيق لا يستغني عنه المؤمن: يستقبل ويعمل، ثم يعلم أن انتفاعه بالآية فضل من الله لا شهادة باستحقاق ذاتي.

ولهذا يبقى السؤال في هذه الوحدة قريبًا من لحظة السماع: ماذا فعل القلب حين جاءه الخطاب؟ هل استبشر بأن الحق وصل إليه، أم دخل عليه وهو يبحث عن مخرج منه؟ ولا يغنيه انتفاع سابق عن صدق التلقي في خطاب جديد.

الغيث والأرض

جسّد النبي صلى الله عليه وسلم تفاوت التلقي بمثل صار قلب هذه القضية. قال من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» رواه البخاري (79)، واللفظ له، وأخرجه مسلم (2282).

الغيث كثير، ومصدره واحد، ولم يخل على بقعة دون أخرى. أرض نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. لم تكتف بالحفظ، بل تشربت ما نزل عليها وظهرت الحياة في ذاتها ثم امتد نفعها. هكذا من فقه في دين الله ونفعه الهدى والعلم: يعلم، ويعمل، ويعلّم، فيصير أثر الوحي ظاهرًا في فهمه وخشيته وسلوكه وفيمن يصل إليهم خيره.

اختيار الغيث يفتح معنى الحياة والحاجة. الأرض لا تستغني عن الماء لأنها اخضرت مرة، والقلب لا يستغني عن الوحي لأنه اهتدى في أصل الطريق. ينزل الغيث على أرض سبق أن أنبتت فيجدد حياتها، ويأتي الهدى إلى مؤمن فيزيده ويصلح ما ضعف منه. لذلك كانت الزيادة استمرارًا لطبيعة الإيمان، لا حدثًا زائدًا يمكن الاستغناء عنه.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «**مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ**» اجتماع بين الدلالة التي تعرف الطريق والعلم الذي يكشف حقائقه وأحكامه. فالوحي لا يكتفي بإثارة القلب، ولا يقدم معلومات منفصلة عن السير؛ يعلّم ويهدي معًا، ومن تمام قبوله أن يتحول العلم إلى وجهة، وأن تتحول الوجهة إلى عمل.

وأرض أمسكت الماء، فشرب الناس وسقوا وزرعوا. حفظت ما وصل إليها وحملت نفعه إلى غيرها؛ فهي صورة من ضبط العلم وبلغه، فانتفع به الناس. ولا يحمل المثل هذه الصورة بذاتها على نقص العمل، لكنه يفتح لكل حامل علم سؤال نصيبه من الفقه والانتفاع؛ فحفظ الماء ونفع الناس فضيلة ثابتة، وتمام النعمة أن يظهر أثر الهدى في حامله كما يظهر فيمن بلغه.

ثم جاءت القيعان: لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. مر الغيث فوقها ولم يبق فيها ما تحيا به أو تحيي به غيرها. وفسر النبي صلى الله عليه وسلم صورتها بمن لم يرفع بالهدى رأسًا ولم يقبل هدى الله. العبارة تصف موقفًا يتجاوز ضعف الذاكرة؛ رأس لا يرفع للخطاب، وقبول لم يقع، فكان المرور على العلم بلا حفظ ولا فقه ولا حياة.

تكرار المطر فوق القيعان لا يصنع الزرع ما دامت لا تمسكه. ويظن المربي أن المشكلة كلها في قلة التكرار، أو يتوهم المتلقي أنه يحتاج إلى صوت أشد إثارة. البيان الحسن مطلوب، لكن المثل يرد المسؤولية إلى الطرفين: على المبلّغ أن يحسن، وعلى القلب أن يرفع رأسه ويقبل. لا تعوض البلاغة موقفًا اختار الإعراض.

ويعجب الإنسان بالمثل نفسه، ويحسن شرحه، ثم يظل بعيدًا عن الهدى الذي يحمله. جمال الصورة وسهولة العبارة يفتحان باب السماع، لكنهما لا يقومان مقام القبول. لهذا جاء تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة الحديث حاسمًا: فقه ونفع وعلم وتعليم في جهة، وعدم رفع الرأس وعدم قبول الهدى في الجهة الأخرى.

ولا تجعل صورة الأرض قدرًا مغلقًا على الإنسان. المثل يوضح تفاوت التلقي، والإنسان مخاطب بالدعاء والتوبة والتعلم والعمل. قد يستيقظ قلب بعد غفلة، ويتحول المحفوظ إلى فقه وعبادة، ويرجع من رد قبل أن يستحكم رده. الرجاء لا يمحو المسؤولية، والمسؤولية لا تغلق الرجاء؛ كلاهما يدفعان القلب إلى أن يرفع رأسه للهدى الآن.

ويكشف المثل أن كثرة ما يسمعه الإنسان أو يحفظه لا تجيب وحدها عن سؤال الانتفاع. يجري العلم على لسانه وينفع به آخرين، بينما تبقى خصومة أو شهوة أو مظلمة بعيدة عن حكمه. لا يُحتقر ما حمله من خير، لكنه يُدعى إلى سؤال لا يقوم به غيره عنه: أين النبات في أرضي أنا؟

والإثمار لا يساوي كثرة الكلام عن الوحي. الأرض الطيبة لا تكرر صوت المطر؛ تنتج حياةً من جنسه. رب كلمة قليلة أثمرت توبة ورد مظلمة، فكانت أصدق دلالة على الانتفاع من ساعات من الشرح لم تغير علاقة صاحبها بحكم الله. عند هذا السؤال يبلغ المثل غايته، ويترك القارئ أمام أرض لا يراها على حقيقتها سواه وربه.

شفاء لقلب وخسار لآخر

قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]. القرآن شفاء بما يزيل من جهل وشك وزيغ، ورحمة بما ينشئ من إيمان وبصيرة وعمل. وهذه الثمرة تظهر في المؤمن الذي يفتح له قلبه ويتبع؛ فالشفاء ليس صوتًا يمر على المرض، بل هدى يُقبل ويعمل به.

يشفي القرآن تصور الإنسان قبل سلوكه. يخرجه من عبودية الناس إلى عبودية الله، ومن قياس الحياة بالعاجل إلى رؤيتها في ضوء الآخرة، ومن توهم أن النفس مركز الحكم إلى معرفتها عبدًا مسؤولًا. ثم يمتد

الشفاء إلى الأخلاق والقرارات؛ فيضع الرغبة في موضعها، ويعيد للحقوق أسماءها، ويفتح طريق التوبة من غير أن يجمل الخطأ.

ويشفي الإرادة حين يعيد ترتيب المحبوبات والمخاوف. قد يعرف الإنسان الحكم ويعجز أمام هواه؛ فيأتي الوعد والوعيد، وقصص الثابتين، وأسماء الله وصفاته، فتقوى في قلبه معانٍ تنازع الشهوة والخوف. لا يقع الشفاء بمجرد جمع الآيات، بل حين يصدق بها ويستعين ويعمل، فيجد أن ما كان مستحيلًا صار ممكنًا بدرجات.

ويشفي الوجدان من صور اليأس والاضطراب التي يصنعها البعد عن الله. يعلّم القلب أن الألم لا يعني الهجر، وأن تأخر النتيجة لا يبطل الوعد، وأن الذنب لا يغلق التوبة. هذا الشفاء لا يعد حياةً بلا حزن، لكنه يمنح الحزن معنى ووجهة، ويمنع الخوف من أن يصير ربًّا آخر يقرر للإنسان ما يفعل.

وهو رحمة لأنه لا يكتفي بكشف المرض؛ يدل على طريق الإصلاح، ويعد ويثبت ويواسي. ورب آية آلمت صاحبها أولًا لأنها كشفت ما حاول ستره، ثم كانت أرحم به من كلام يتركه نائمًا. الرحمة لا تساوي دائمًا راحةً عاجلة؛ قد تأتي نورًا يقطع عليه طريقًا محبوبًا قبل أن يبلغ به الهلاك.

أما الظالمون فيزدادون خسارًا حين يقابلون كل بيان بإعراض جديد. الخسارة لا ترجع إلى نقص في القرآن، بل إلى علاقة اختاروها معه: فرصة الشفاء صارت موضعًا آخر للتكذيب أو الصد، والحجة التي كان يمكن أن تقودهم صارت عليهم. وهنا يتصل أثر الوحي بما سبقه في سورة التوبة: قلب سابق، وموقف حاضر، وزيادة تضاف إلى الاتجاه.

والظلم في الآية يمنع نسبة الخسار إلى مجرد الغموض أو العجز. ثمة تعدٍّ يضع الشيء في غير موضعه: يُرد حكم الله حمايةً لهوى، أو تُستعمل الآية في ظلم آخرين، أو يُعرض عن النور بعدما ظهر. وقد تختلف صور الظلم ودرجاته، لكن الجامع أن العبد لم يقف موقف طالب الشفاء، فزادته مواجهته للدواء بعدًا عنه.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]. يصور النص المسافة التي يصنعها الإعراض بين النداء والقلب: وقر في السمع، وعمى عن الهدى، حتى يصبح القريب في الصوت كأنه ينادى من مكان بعيد. لم يضعف القرآن، وإنما ابتعد المتلقي بموقفه؛ والمؤمن يجد في الخطاب نفسه هدى وشفاء.

وفي مثل البعوضة قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

[البقرة: 26]، ثم وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 27]. جاء الإضلال مرتبطًا بفسق سابق ظهر في النقض والقطع والإفساد، فالله يهدي بالقرآن ويضل به بحكمة وعدل، والجزاء يأتي من جنس المسار الذي اختاره العبد.

وهذه السنن ترد القارئ إلى قلبه قبل أن تشغله بغيره: أيتقدم نحو الشفاء، أم يحول السؤال والفتور إلى عادة مقاومة؟ الخوف النافع يفتح باب التوبة والعلم، ويمنع القلب من الاطمئنان إلى مقاومته.

وموضع التوفيق حاضر في الشفاء كما كان حاضرًا في التلقي. الله هو الذي أنزل القرآن وجعله شفاء ورحمة، وهو الذي يفتح به ويزيد. والعبد يصدق ويقبل ويستجيب، ولا يملك أن يخلق حياة قلبه. لذلك يجتمع في المنتفع فعل صادق وافتقار صادق: لا يقعد منتظرًا، ولا ينسب النبات إلى جودة أرضه وحدها.

ماذا صنعت الآية فيك؟

وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]. ذكر يوقظ القلب، وتلاوة تزيد الإيمان، وتوكل ينقل الأثر إلى موضع الاعتماد والعمل. لا تقف الحركة عند إعجاب بالبيان، يتغير بها ما يخشاه الإنسان وما يرجوه وما يقدم عليه.

الوجل ليس رعبًا يقطع الرجاء، بل يقظة أمام جلال الله وحسابه. فإذا تليت الآيات دخلت على قلب مستيقظ، فصدّق خبرًا، وقبل حكمًا، وتذكر وعدًا، ثم اتجه إلى ربه متوكلًا. هذا الترتيب يربط الباطن بالظاهر: خشية تنبه، وإيمان ينمو، واعتماد على الله يحرر الفعل من أسر النتائج والناس.

وتزداد معرفة الإنسان بالآية من غير أن يزداد بها إيمانًا إذا بقيت مادةً للفحص اللغوي أو التاريخي وحده. لا يُذم العلم بهذه الجوانب، فهي تخدم الفهم، لكن غايتها أن تفتح معنى الخطاب. حين يعرف القارئ سبب النزول أو دقة اللفظ ثم لا يسأل عن أمر الله ووعده، يكون قد وقف عند باب العلم ولم يدخل إلى الزيادة التي وصفها القرآن.

ويعرض القرآن أثرًا وجدانيًّا عظيمًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. الهيبة واللين علامتان كريمتان، وتكتمل دلالتهما حين تمضيان بصاحبهما نحو ذكر الله وتسليم الأمر له.

السؤال الأصدق بعد التلاوة: ماذا غيرت الآية؟ يسمع رجل أمر العدل وهو في خصومة، فيستطيع أن يجعل النص حجةً إضافية على خصمه، ويستطيع أن يعيد به فحص روايته وكلامه. قد يحذف عبارة ظالمة، أو يعترف بجزء من الحق، أو يمتنع عن نقل خبر لا يثبت. الخطوة التي تنقص من انتصاره لنفسه وتزيد نصيب العدل هي نبات الغيث في تلك اللحظة.

ولا يشترط أن تنتهي الخصومة أو يزول الغضب كله حتى يظهر الأثر. قد يبقى متألمًا، لكنه يمنع ألمه من الكذب، ويفرق بين حقه ورغبته في الإيذاء، ويقبل حكمًا لا يعطيه كل ما يريد. هذه التحولات الدقيقة أصدق من تأثر كبير لا يقترب من محل النزاع؛ لأنها تنقل الآية إلى المكان الذي كانت النفس تحرسه.

وفي البحث العلمي قد يمر النص على قول تبناه صاحبه وأصبح جزءًا من صورته. هنا لا يحتاج المحك إلى قصة طويلة؛ يكفي أن يسأل: هل قرّبتني المعرفة من الصدق، أم زادت قدرتي على المناورة؟ قد تطول المراجعة، لكن بقاء باب الرجوع مفتوحًا، وتصحيح القول حين يظهر الدليل، علامتان على أن العلم ما زال يقود صاحبه ولم يتحول إلى حصن يحميه.

ولا تقاس حركة القلب من لقطة واحدة، ولا يشهد الإنسان لنفسه بزيادة الإيمان لمجرد شعور عابر. المحك هو الاتجاه المتكرر: هل تقصر المسافة بين السماع والعمل؟ هل تقل حاجته إلى التبرير، ويسرع اعترافه بعد الزلة، ويزداد افتقاره إلى الله بعد التوفيق؟ ويرى بطئًا أو قسوة، فيرجع ولا يقنط؛ لأن كشف المرض نفسه باب إلى العلاج إذا صدق معه.

اختر آية راجعتك في الأيام الماضية، وسمِّ فعلًا واحدًا تطلبه منك، ثم أخرجه من الكتابة إلى الواقع: رد حق، أو ترك كلمة، أو تصحيح قول، أو اعتذار. وبعد بذل ما تملك، اسأل ربك أن يجعل قلبك أرضًا تقبل غيثه وتنبت به. فالعبد يرفع رأسه ويلقي سمعه ويعمل، والله وحده يهب للقبول ثمرته ويزيد من فضله.

خاتمة المحور الثاني

القرآن واحد، وصدقه لا يتبدل بتبدل المتلقين. لكنه يلقى قلوبًا تحمل اتجاهات مختلفة: قلبًا يخشى الله ويمنح كلامه سلطة المراجعة، وقلبًا لا يسمح للنص إلا أن يؤيد ما اختاره من قبل. لذلك جمع القرآن بين عموم البيان وخصوص الانتفاع؛ يصل هدىً للناس، وتظهر ثمرته في المتقين الذين يصدقون ويخضعون ويعملون.

وفي مجلس موسى ظهرت الفكرة كلها في لحظة خاطفة: أهل الصنعة عرفوا، فسقطت المصلحة أمام الحق؛ وصاحب السلطان رأى، فاستدعى ما يحمي علوه. لا تحتاج القصة إلى أن تُروى مرة أخرى؛ يكفي

أن يبقى منها هذا المحك: ماذا يفعل القلب حين يصبح الاعتراف مكلفًا؟ عندئذ لا تكون كثرة المعلومات هي الفاصل، وإنما المرجع الذي تُمنح له الكلمة الأخيرة.

ثم جاء المثل النبوي بالغيث ليمنع القارئ من الاكتفاء بالسماع والحفظ. الماء واحد، والأرض تكشف مقدار القبول والإمساك والإنبات. فلا يخرج من هذا المحور مصنفًا لقلوب الناس، بل واقفًا عند أرضه: أين حفظ الهدى؟ وأين أثمر؟ وأين مر عليه ثم عاد كما كان؟ والاتجاه المتكرر أصدق من شهادة يمنحها الإنسان لنفسه في لحظة رضا أو خوف.

ومن رأى مقاومةً أو بطئًا لم يجعل ذلك خاتمة الطريق. القلوب تتغير، وباب التوبة مفتوح، والغيث ما زال ينزل. يجمع بين الخوف من أن تتحول المراوغة إلى حجاب، والرجاء في رب يحيي القلوب، فيقول بصدق: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ**». ثم يثبت صدق الدعاء بإلقاء السمع، وقبول ما ظهر، وعملٍ يبدأ من الممكن.

وحين يتضح أن هيئة القلب تحدد طريق التلقي، وأن كل قبول أو مقاومة يترك أثرًا جديدًا، ينشأ السؤال العملي من داخل المعنى نفسه: ما الأعمال التي أمر الله بها عبده ليطلب الهدى، ويهيئ قلبه للانتفاع، ويحفظ ما وصل إليه من النور؟ كانت وظيفة هذه الوحدة كشف اختلاف الأثر عند لحظة التلقي؛ أما سنة الزيادة الممتدة بعد الاستجابة وصورها وثمراتها فموضعها المحور الرابع، بعد بيان أسباب الهداية التي يفعلها العبد.

المحور الثالث: أسباب الهداية التي يفعلها العبد

انتهى المحور السابق إلى أن القرآن واحد، وأن القلوب تختلف في هيئة تلقيه وفي الأثر الذي يتركه فيها. غير أن معرفة موضع القلب لا تكفي وحدها. يستطيع الإنسان أن يرى فتوره، وأن يخاف من مقاومته للحق، ثم يبقى واقفًا عند التشخيص: ينتظر انشراحًا لا يسعى إليه، أو فتحًا لا يطرق أبوابه، أو يقينًا كاملًا يسبق كل خطوة. وهنا ينتقل سؤال الهداية من الوصف إلى العبودية: ما الذي أمر الله عبده أن يفعله طلبًا للهدى؟

لم يعلّق القرآن الإنسان في انتظار مجهول. أنزل له الكتاب، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم، ودعاه إلى اتباع رضوانه، والإنابة إليه، والإيمان والتقوى، وحسن الاستماع، وطاعة الرسول، والاعتصام بالله، والمجاهدة، والعمل، وطلب العلم، وصحبة الصادقين. هذه أعمال حقيقية تنسب إلى العبد ويحاسب على فعلها وتركها، وهي في الوقت نفسه محاطة بفضل الله من أولها إلى آخرها؛ فالرغبة فيها توفيق، والقدرة عليها توفيق، والثبات فيها توفيق، وما يفتح بعدها من هدى فضل لا يملكه العامل لنفسه.

لهذا لا يقدم هذا المحور وصفة بشرية لإنتاج الهداية، ولا يجعل السبب ثمنًا يوجب على الله نتيجة. العبد يفعل ما أمره الله به لأنه عبد، ويطلب الثمرة من ربه لأنه مفتقر. كلما تقدم خطوة رأى منة الله فيها، فازداد شكرًا لا عجبًا، وعملًا لا اتكالًا. وإذا تأخر عنه بعض الفتح راجع صدقه وسببه، ولم يحوّل عبادته إلى مطالبة يحدد بها على الله الصورة والوقت.

وتلوح في جماعة من الجن صورة أولى لحركة المحور: صرفهم الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن، فاستجابوا لما هداهم إليه.

وفي الجهة الأخرى تقف ملكة سبأ أمام ميراث ديني وسياسي واسع، ثم تراجع وتختبر وتنتهي إلى الاعتراف: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44]. لم يمنعها الملك من الرجوع، ولم تجعل ما مضى تعريفًا أبديًّا لنفسها. بين إنصات الجن وإنابة الملكة تظهر أول معالم الطريق: قلب يريد رضا الله، وإيمان يغير رؤيته، واستماع ينتهي إلى اتباع، وطاعة تلزم الوحي، ومجاهدة تخرج العلم إلى العمل، وعلم يورث خشية، وصحبة تحفظ الاتجاه.

والدعاء يرافق هذه الأسباب حتى لا تتحول إلى ثقة بالنفس. قال فتية الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. جمعوا الرحمة التي لا يملكونها، والتهيئة التي يحتاج إليها الطريق، والرشد الذي يطلبونه في أمرهم. وأُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي

عِلْمًا﴾ [طه: 114]. فالعبد يسعى، لكنه لا يدخل سببًا من أسباب الهداية بوصفه مالكًا للنتيجة؛ يدخل سائلًا أن يهيئ الله له من أمره رشدًا، وأن يزيده علمًا ينفعه، وأن يجعل كل طاعة بابًا لطاعة بعدها.

الوحدة السابعة: قلب يريد الحق ويرجع إليه

﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16]. يبدأ الطريق بنور وكتاب جاءا من الله، ثم يذكر النص قلبًا يتبع رضوانه، وينتهي بهداية يهبها الله: سبل سلام، وخروج من الظلمات، وصراط مستقيم.

اتباع الرضوان أعمق من رغبة مجملة في أن يكون الإنسان صالحًا. إنه أن تصبح مرضاة الله هي الجهة التي يطلبها حين تتنازع الجهات، وأن يقبل الوصول إليها ولو خالفت النتيجة التي أحبها. يسأل عن الحكم ليعرف ما يرضي الله، لا ليجد صياغة دينية تحفظ له ما قرره. ويقرأ النص بوصفه طريقًا يقوده، لا مادةً يضيفها إلى دفاعه عن نفسه أو جماعته.

كلمة ﴿ٱتَّبَعَ﴾ [المائدة: 16] تنقل الإرادة من التمني إلى الحركة. من أحب رضوان الله في الجملة ثم ترك خطاه حين ظهرت لا يكون قد أدى معنى الاتباع. قد يعرف أن الصدق يرضي الله، ثم يحضر موضعًا يهدد فيه الصدق مكانته؛ هنا يخرج القصد من عالم الدعوى إلى الفعل. وقد يحب العدل ما دام الحق له، ثم يحتاج إلى أن يتبعه حين يرد جزءًا من دعواه. الرضوان جهة ثابتة، والاتباع يتجدد في تفاصيل لا يراها الناس كلها.

ولا يدعي المؤمن أن قصده صار نقيًّا من كل شائبة. النفس تتداخل فيها الرغبات، وتلبس المصلحة لباس النصيحة، ويجد الإنسان راحة في الدليل الذي يوافقه. المطلوب صدق المراجعة، لا ادعاء مقام لا يبلغه. يسمي ما يحبه وما يخشاه، ويعرضهما على أمر الله، ويستعيذ أن يجعلهما قاضيين على الدليل. وكلما انكشف له أثر خفي لم يحتقر نفسه ولم يزكها؛ عرف بابًا جديدًا من أبواب العبودية.

الهداية في الآية فعل لله: هو الذي يهدي بالكتاب، ويخرج بإذنه، ويقود إلى الصراط. واتباع الرضوان فعل العبد: يقصد ويبحث ويقبل ويتحرك. لا يستقل القصد بإنتاج النور، ولا يقع النور في قلب يعرض عن

الجهة التي دعاه الله إليها. وبين الفعلين سر التوفيق: يوقظ الله في عبده طلب رضاه، ويعينه على خطوة الاتباع، ثم يفتح له من الطرق ما لم يكن يراه قبل الصدق.

يقول الإنسان إنه يريد الحق، ثم يضع في داخله شروطًا لا يسمح للجواب بتجاوزها: فتوى لا تخسر العقد، ومصالحة لا تحمله اعتذارًا، وبحث لا يمس قوله القديم. هنا يبدأ الصدق قبل ظهور الجواب: أن يفصل بين المسألة والنتيجة التي يتمناها، وأن يسأل ربه رضاه ولو جاء على خلاف ما ألف. من جعل النتيجة شرطًا للسؤال لم يدخل باب الهداية كاملًا.

ولا يعني اتباع الرضوان قبول كل قول ينسب إلى الشرع من غير تثبت. مرضاة الله تُطلب من الوحي بفهم معتبر، فيسأل غير العالم من يثق بعلمه ودينه، ويجمع الباحث الأدلة، ويرد المتشابه إلى المحكم. غير أن التثبت الصادق ينتهي حين يتضح الوجه، أما التثبت الذي لا ينتهي لأنه ينتظر نتيجة محددة فقد تحول من أداة لحماية الحق إلى وسيلة لتأجيله.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]. الإنابة رجوع متكرر إلى الله، بالقلب والقصد والعمل. تحمل معنى الإقبال بعد غفلة، والعودة عند التباس، ورد الأمر إلى الله حين تتنازع النفس والناس والمصلحة.

ينيب العبد قبل أن يعرف الجواب؛ فيتوجه إلى الله طالبًا أن يريه الحق. وينيب بعد أن يعرفه؛ فيرجع من هواه إلى أمر ربه. وينيب بعد أن يزل؛ فلا يحول الخطأ إلى هوية يدافع عنها. بهذا تصبح الإنابة هيئة طريق، لا لحظة توبة محصورة في ذنب ظاهر. كل موقف يعيد فيه الإنسان مركز الحكم إلى الله يحمل نصيبًا من معناها.

يربط القرآن بين الإنابة والهداية إليه. لا يعني ذلك أن الإنسان يخلق في نفسه الإنابة ثم يستحق بها على الله فتحًا محددًا؛ فالإنابة نفسها من نعمه، والله يجتبي من يشاء. لكنه سبحانه جعل لها أثرًا ووعدًا، فدعا العبد إلى باب يعرف أنه لا يملك فتحه وحده. يسعى لأن الله أمره، ويرجو لأن الله وعد، ويشكر لأنه يعلم أن سعيه لم يبدأ من استقلال.

الإنابة تنقذ الباحث من عبودية صورته. يخطئ الإنسان في مسألة ثم يصبح الخطأ جزءًا من تاريخه العام، وتدخل معه كتب ومحاضرات ومواقف دافع عنها. كلما طال الزمن صار الرجوع أثقل، لا لأن

الدليل ضعيف، بل لأن الاعتراف صار مكلفًا. المنِيب يرى أن بقاءه مع الله أعظم من بقاء صورته متماسكة أمام الناس، وأن خسارة قول أحب إليه من خسارة صدقه.

وتنقذ صاحب العبادة من الأمن بما مضى. ربما أناب في فتنة سابقة، ثم يدخل الجديدة معتمدًا على رصيده. الإنابة الحية تعيد السؤال في كل مرة: أين رضا الله الآن؟ ما الذي أخشاه؟ هل ما زلت أقبل أن يقودني الوحي؟ لا يحمل المهتدي شهادة تجعله فوق المراجعة؛ يحمل طريقًا يكثر فيه الرجوع كلما دقّت المسالك.

ملكة لم يمنعها العرش من الرجوع

دخلت ملكة سبأ القصة وهي صاحبة قوم وعرش عظيم، ووجدت قومها يسجدون للشمس من دون الله [النمل: 23–24]. لم يعرض القرآن تحولها في قفزة عاطفية منفصلة عن النظر؛ وصلها كتاب سليمان، فجمعت الملأ وشاورتهم، واختبرت الموقف، ثم دخلت مشاهد كشفت لها حقيقة النبوة والملك الذي آتاه الله سليمان عليه السلام. كانت تتحرك من معرفة إلى معرفة، وفي كل مرحلة بقي باب المراجعة مفتوحًا.

أصحاب القوة يحيط بهم عادةً ما يصعّب الرجوع: حاشية تؤكد الصواب، ومصلحة جماعة، وخوف من اضطراب الناس، وتاريخ يروى بوصفه شرعيةً قائمة. كان يمكن للملكة أن تحول كل بينة إلى تهديد سياسي، أو أن تجعل بقاء سلطانها المعيار الأعلى. لكنها لم تمنح العرش هذه المنزلة؛ ولما انكشف لها الحق قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44].

بدأت عبارتها بالاعتراف: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾. لم تقل إن البيئة وحدها صنعت ما كانت عليه، ولم تجعل الملك مانعًا من تسمية الخطأ. ثم قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾، فنقلت المعرفة إلى استسلام. وأضافت: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾، فلم تتحول تبعيتها للحق إلى عبودية لشخص؛ ختمت الجملة: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44]. دخلت مع نبي في طريق، وبقيت الغاية لله وحده.

هذه النهاية تصحح صورتين. الأولى أن الاعتراف يسقط المكانة؛ فقد كان اعترافها أول مشهد لمكانة أصدق من العرش. والثانية أن الرجوع إلى الحق انتصار للخصم؛ سليمان لم يكن خصمًا يضمها إلى ذاته، وإنما رسولًا يدعوها إلى رب العالمين. حين يكون الله هو المركز، لا يعود السؤال: من غلب؟ بل: إلى من رجعنا؟

ومن أشق الإنابة أن يأتيك الصواب على لسان من لا تحبه، أو من جماعة تنازعها في مسائل أخرى. عندها يفصل القلب الذي يطلب رضوان الله بين حق الكلام وحال قائله: لا يمنحه عصمةً لأنه أصاب،

ولا يرد صوابه خوفًا من أن يُحسب ذلك انتصارًا له. تتراجع النفس عن معركة صنعتها، وتعود إلى حكم أعلى من الطرفين.

الجواب الذي تقبل أن يغيّرك

قال الله في وصف أهل الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 17–18]. اجتمعت الإنابة، والاستماع، والاتباع، ثم نسب الهدى إلى الله. القصد الصادق لا يبقى شعورًا داخليًّا؛ يفتح الأذن ويقود القدم.

ومحك صدق القصد أن تسمي بينك وبين الله النتيجة التي تتمنى بقاءها، والخسارة التي تخافها، والشخص الذي يثقل عليك أن يأتي الصواب من جهته، ثم تسأل: ما الجواب الذي لا أسمح له أن يكون صحيحًا؟ فإذا ظهر الخطأ، فلا تنتظر أن يزول الألم قبل الرجوع؛ فالانقياد مع الكلفة عبودية، والمطلوب أن تبقى النفس تحت حكم ربها. وإن لم يتضح الجواب بعد بحث معتبر، فالتوقف المنضبط من صدق القصد؛ تقول: لا أعلم، ولا تملأ الفراغ بما تشتهي، وتواصل البحث بالمحكم الذي بين يديك.

واجعل للرجوع عملًا ظاهرًا واحدًا: صحح معلومة نقلتها حين يظهر خطؤها، ولو خالفت مسارًا سابقًا أو خفت نقص المكانة. ثم احمد الله الذي لم يتركك لما أحببت، واسأله أن يهديك إليه مرة بعد مرة؛ فالقلب الذي يريد الحق لا يكتفي بأن يعرف وجهه، بل يرجع إليه حين يتبين له. ولا تحول رجوعك نفسه إلى صورة تتزين بها أمام الناس؛ صحح ما يحتاجون إلى تصحيحه، واستغفر من خطئك، وامض من غير استعراض للانكسار.

الوحدة الثامنة: الإيمان والتقوى اللذان يفتحان البصيرة

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: 9]. جاءت الآية في سياق مآل المؤمنين، فنسبت هدايتهم إلى ربهم وجعلت

إيمانهم سببًا. الإيمان الذي منّ الله به عليهم لم يبق خبرًا ساكنًا؛ صار طريقًا يقودهم إلى رضوانه وجنته، وعملهم الصالح شاهدًا على صدقه.

وفي الدنيا يبين القرآن صورة قريبة من هداية القلب بالإيمان: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]. المصيبة تقع بإذن الله، والمؤمن لا يُعفى من ألمها، لكن إيمانه يفتح له هداية في داخلها: يعرف أنها لم تخرج عن علم ربه وحكمته، فيسلّم للقدر، ويحفظ لسانه من الاعتراض، ويطلب العبودية التي بقيت له.

هداية القلب هنا لا تعني أن تنكشف كل حكمة، أو أن يتحول الحزن إلى راحة عاجلة. قد يبقى السؤال الإنساني والألم، ويكون الهدى في أن يعرف العبد من ربه وهو لا يعرف سر الحدث؛ يوقن أنه لا يظلم، وأن المصيبة لم تفلت من ملكه، وأن الطريق إليه ما زال مفتوحًا بالصبر والدعاء والعمل الممكن. الإيمان يعطي القلب وجهة حين يعجز عن تفسير التفاصيل.

يتغير تفسير الحدث بحسب الأصل الذي يحكمه. من حصر العالم في الأسباب الظاهرة رأى المصيبة فوضى أو ظلمًا كونيًّا، وربما جعل شدة الألم دليلًا على أن الله تركه. أما المؤمن فيثبت السبب الظاهر ويعالجه، ثم يرى فوقه إذن الله وعلمه. لا ينفي خطأ إنسان تسبب في الأذى، ولا يسقط حقه في المطالبة، لكنه يمنع الخصومة مع الخلق من أن تتحول إلى خصومة مع ربه.

ومثل المصيبة كل موقف يضيق فيه أفق الحس. يخاف الإنسان على رزقه، فيقرأ القرار من خلال الخوف وحده؛ أو يرى جمهورًا متجهًا إلى قول، فيكاد يجعل الكثرة برهانًا؛ أو يتعلق بشخص، فيفسر كل علامة لمصلحته. الإيمان يرد هذه المشاهد إلى حقائق أعلى: الرزق بيد الله، والحق لا تخلقه الكثرة، والخلق أسباب لا يملكون للقلب مصيره. بهذا يهدأ الضجيج الذي يحجب البصيرة.

ولا يستعمل المؤمن هذا المعنى لإلغاء الخبرة أو التقدير. يبحث في أسباب المصيبة، ويخطط للرزق، ويفهم الناس، لكنه يرفض أن تصبح الوسائل آلهة صغيرة. حين تعطي الخبرة حكمًا شرعيًّا لا تملكه، أو يفرض الخوف حلالًا وحرامًا جديدين، يتدخل الإيمان ليعيد كل قوة إلى حدها. فتعمل الأسباب في موضعها، ويبقى القلب عبدًا لله.

﴿إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]. الفرقان ما يفرق الله به بين الحق والباطل، وما يجعل

لعبده من مخرج ونجاة ونور بحسب دلالة السياق وأقوال المفسرين. والآية تربطه بالتقوى ثم تختم بالفضل العظيم، فلا تتحول التقوى إلى ادعاء أن البصيرة صُنعت بقوة صاحبها.

التقوى أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وقايةً بطاعته وترك معصيته. وفي باب الهداية تعمل التقوى بطريقتين متصلتين: تحفظ في القلب تعظيم الآمر، وتضعف القوى التي تشوش النظر. من اعتاد أكل المال المحرم يصعب عليه أن يرى أدلته كما يراها من خف تعلقه به، ومن جعل رضا جماعته مقدمًا يخسر من قدرته على سماع ما يراجعها. الطاعة لا تشتري الحقيقة، لكنها تزيل من النفس حواجز صنعتها المعصية والمصلحة.

الفرقان ليس خاطرًا معصومًا ينشأ في قلب المتقي، ولا رخصةً للاستغناء عن العلم. قد يتقي الإنسان ويخطئ في فهمه، ويحتاج إلى من يصححه. أثر التقوى أنها تجعله أصدق في استعمال الدليل، وأسرع اعترافًا، وأقل استعدادًا لتسمية هواه إلهامًا. كلما ازداد خشيةً ازداد حذرًا من أن ينسب إلى الله ما لم يقل، فلا يستعمل وعد الفرقان لتزكية رأيه.

التقوى لا تُعرف حقًّا حين يكون ثمنها غائبًا. تظهر حين يعرف رجل أن إعلان الحقيقة قد ينقص ربحه، أو يرى مسؤول أن العدل سيغضب فريقًا يسانده، أو يدرك باحث أن الأمانة ستقوده إلى نتيجة لا يحبها. هنا تصير التقوى اختيارًا لا مفهومًا: يتنازل العبد عن حماية عاجلة لأنه يثق بحكم الله، ومن هذا الموضع يفتح الله له من الفرقان ما كانت المصلحة تحجبه.

وأحيانًا يأتي الفرقان بعد الطاعة لا قبلها. ينتظر الإنسان وضوحًا كاملًا حتى يتقي، وقد دلته النصوص بالفعل على قدر يكفيه للحركة. حين يترك الباب المحرم الذي يعرفه، أو يرد المظلمة الواضحة، يخف ضغط الهوى وتظهر له تفاصيل لم يكن يراها وهو مصر. ليست معادلة آلية، وإنما عبودية واضحة: تقوى يبذلها العبد، ونور يفتحه الله بفضله وحكمته.

مِنَ التصديق إلى التيسير

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5-7]. أعطى واتقى وصدق، أفعال خرجت من العبد، ثم جاء الوعد بالتيسير من الله. لا تقول الآيات إن الطريق صار سهلًا قبل العمل، بل تجعل التيسير ثمرةً من ثمرات اتجاه صادق يختار العطاء والتقوى والتصديق.

التصديق بالحسنى يغير حساب القرار. من صدق بوعد الله لم يعد المال الذي يخرجه فناءً محضًا، ولا الطاعة التي يتعب فيها خسارةً، ولا ترك الحرام حرمانًا بلا عوض. يرى ما وراء الحس، فتتحرر إرادته من

قبضة اللحظة. وقد يبقى الألم، لكن معناه يتغير؛ يصبح كلفة طريق يرجو نهايته، لا دليلًا على أن الطريق خطأ.

ويحمل التيسير معنى أوسع من الراحة النفسية. قد ييسر الله للعبد فهمًا، أو صحبةً، أو قوةً على الفعل، أو يفتح له طاعةً بعد طاعة. وربما كان التيسير أن يكشف له خطأه مبكرًا، فيرجع قبل أن يتعمق. العبد لا يختار شكل التيسير، ولا يجعل غياب الشعور السهل علامةً على غيابه. يكفيه أن يصدق الوعد، ويبحث عن أبواب اليسر التي أقامها الله في قلبه وواقعه.

الإيمان والتقوى من منن الله، كما قرر المحور الأول، لكن النعمة لا تلغي الأمر. المؤمن مأمور أن يحفظ إيمانه بالطاعة، وأن يتقي مواضع السخط، وأن يستعمل ما أوتي من قدرة. فإذا وفق إلى ذلك رأى الفضل سابقًا ولاحقًا: الله حبب إليه الإيمان، ثم هداه به، وأعانه على التقوى، ثم جعل له فرقانًا ويسر له اليسرى.

أيُّ معنى يحكم الحدث؟

حين تقع مصيبة، اسأل عن المعنى الذي دخل قلبك أولًا وبقي حاكمًا: هل رأيت الحدث نهايةً لكل وعد، أم رأيته قدرًا يجري في ملك الله مع بقاء مسؤوليتك؟ وحين يتعارض الحكم مع مصلحتك، هل صارت المصلحة تفسيرًا للنص، أم بقي النص حاكمًا عليها؟ هذه الأسئلة لا تطلب مشاعر مثالية؛ تكشف المرجع الذي يصوغ رؤيتك.

راجع حدثًا لا يزال يؤلمك. اكتب الحقائق الظاهرة من غير إنكار: من أخطأ، وما الذي فقدته، وما الأسباب التي تستطيع إصلاحها. ثم أضف حقائق الإيمان التي غابت في ساعة الألم: الله علم وأذن، لا يظلم، يسمع، ويملك أن يعوض ويهدي. هذا الجمع يمنع التواكل كما يمنع الاعتراض؛ تتحرك في السبب وقلبك لا يعبد السبب.

وراجع مصلحةً محرمة حجبت بعض بصيرتك. لا تبدأ بطلب إحساس جديد، بل اترك الحرام الذي تعرفه، ولا تجعل المصلحة تفسيرًا للنص. التقوى فعل يسبق كثيرًا من الوضوح؛ فإذا تركت ما يسخط الله خف ضغط الهوى، وظهر لك من الفرقان ما يفتحه الله بفضله. ثم قل: يا رب، إيماني منك، وتقواي بعونك، والفرقان فضلك؛ فلا تكلني إلى نفسي وأنا أطلب نورك.

بهاتين الصورتين يختبر المرجع الحاكم: في المصيبة يهدي الإيمان القلب من غير أن يلغي الألم أو السبب، وعند المصلحة المحرمة تفتح التقوى باب الفرقان من غير أن تستغني عن الدليل. وبعد جمع الدليل والاستشارة، يتوكل المؤمن ويمضي، ويبقى مستعدًّا للمراجعة؛ فلا يحول البصيرة إلى شلل، ولا الثقة إلى استغناء عن الله.

الوحدة التاسعة: كيف يتلقى القلب الوحي؟

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا﴾

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29]. تبدأ القصة بفعل الله: صرفهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ثم يأتي فعلهم: حضروا، وأنصتوا، وفهموا، ورجعوا منذرين. لحظة الاستماع وقعت بين توفيق ساقهم إلى الوحي واستجابة حملت الوحي إلى قومهم.

لم يقل بعضهم لبعض: اسمعوا فقط، بل قالوا: ﴿أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف: 29]. الإنصات إسكات لما ينازع الخطاب: حديث جانبي، وحكم سابق، واستعجال في الرد. كان القرآن يتلى، فشعروا أن المقام يحتاج إلى حضور كامل. هذه أول عبادة في التلقي: أن يمنح الإنسان كلام الله زمنًا لا يقطعه، وقلبًا لا يستعمل التلاوة خلفيةً لأعمال أخرى، وعقلًا لا يقفز إلى الاعتراض قبل أن يفهم.

ثم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30]. لم يقفوا عند وصف جمالي للقرآن، مع أن سورة الجن نقلت تعجبهم منه؛ عرفوا نسبه إلى الوحي، وصلته بما قبله، ووجهته إلى الحق والطريق المستقيم. الاستماع النافع يكتشف ما الذي يهدي إليه الكلام، لا مقدار ما أثاره من دهشة وحدها.

وبعد الفهم جاءت الدعوة: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31]. انتقلوا من الاستماع إلى الإجابة، ومن الإجابة إلى حمل الهدى. لم يحتاجوا إلى سنوات حتى يعرفوا أن أول واجب هو الإيمان بما ظهر لهم، ولم يدعوا أنهم أحاطوا بكل العلم. عملوا بالقدر الذي بلغهم، ثم فتح لهم هذا العمل بابًا جديدًا من المسؤولية.

وتعرض سورة الجن النتيجة في أصفى عبارة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: 1–2]. سمعوا هدىً إلى الرشد، فآمنوا، وحدد الإيمان أول انفصال عملي عن ماضيهم: لن نشرك. هنا تظهر حاكمية الوحي؛ لم يضف إلى حياتهم معلومة، بل غيّر الإله الذي يعبدون والرسالة التي يحملون.

قصة الجن لا تمدح سرعة بلا علم. هم نسبوا الكتاب إلى موضعه، وعرفوا تصديقه لما بين يديه، وميزوا وجهته. السرعة المحمودة جاءت بعد وضوح أصل الدعوة، أما ما يحتاج إلى تفصيل فله زمنه. يستطيع العبد أن يبدأ بما بان من التوحيد والطاعة، ثم يواصل التعلم، بدل أن يجعل حاجته إلى بعض البيان عذرًا لتعليق كل ما عرف.

يستمعون القول فيتبعون أحسنه

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 17-18]. الاستماع هنا متصل بالاتباع؛ فغاية الأذن أن يبلغ الحق موضع القرار. و﴿أَحْسَنَهُۥ﴾ لا تفتح باب اختيار ما يوافق الهوى من الوحي وترك ما سواه، وإنما تمدح من يتبع أحسن ما دُعي إليه من الحق، وفي مقدمة ذلك كلام الله وأهدى ما دل عليه.

ويمتحن حسن الاستماع خصوصًا حين يأتي البيان بواسطة من لا يوافق السامع في كل شيء. ينصت حتى يحرر القول كما هو، ويفصل بين نقص القائل وصحة ما معه من حجة، ثم يزنها بميزانها. هذه مهارة تلقي قبل أن تكون حكمًا على النتيجة: أن يمنع الخصومة من تشويه ما سمعه قبل أن يفهمه.

والاستماع المقصود هنا ليس تكثير المواد، بل إتمام دورة التلقي: نص يُسمع، ومعنى يُفهم، وسؤال يُحرر، ثم قدر معلوم يُتبع. لذلك قد تكون جلسة واحدة استقر فيها المعنى أنفع من انتقال طويل بين مواد كثيرة لم يمنح منها شيء حقه في الفهم.

ولهذا يحتاج التلقي إلى هيئة عملية تحفظ الانتباه: وقت لا تقطعه التنبيهات، ومقدار يمكن فهمه، وورقة للسؤال بدل القفز إلى مادة أخرى. المقصود ليس صناعة طقس للقراءة، بل إزالة ما يمنع القلب والعقل من البقاء مع الخطاب حتى يتبين مراده.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 29]. التدبر نظر في دلالات الآيات وعواقبها وما تقود إليه، حتى يبلغ المعنى القلب ويثمر تذكرًا. والبركة من الله، والكتاب إنزاله، والعبد مأمور أن يتدبر. لا يخلق المعاني من نفسه، ولا يمر على الألفاظ من غير سؤال.

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]. وضع النص التدبر في مقابل أقفال القلوب، فالقضية أعمق من مهارة ذهنية. قد يملك المرء أدوات اللغة، ويبقى في القلب قفل

من كبر أو إصرار أو خوف من النتيجة. والأداة العلمية لا تفتح القفل إذا استعملت لحمايته؛ يحتاج صاحبها إلى علم وإنابة معًا.

ومن التدبر جمع السياق والنظائر، لا فصل جملة عن بنائها لتخدم خاطرًا عابرًا. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. دعاهم إلى النظر في اتساقه ومصدره، فالتدبر يحترم حقيقة النص الكلية. كل معنى يقطع الآية عن سباقها، أو يصادم محكم القرآن، يحتاج إلى مراجعة مهما كان مؤثرًا في النفس.

ولا يساوي التدبر حق كل قارئ في أن ينسب كل خاطر إلى مراد الله. ثمة فرق بين أثر شخصي مشروع يثيره النص، وبين تفسير يدعي أن هذا هو معناه. قد تذكّر الآية إنسانًا بتقصير خاص، وهذا نافع، لكنه لا يجعل التجربة الخاصة تفسيرًا للفظ. من تعظيم الوحي أن يفرق القارئ بين ما تدل عليه الآية، وما استحضره قلبه عند قراءتها.

وللتدبر ثمرتان لا يستغني إحداهما عن الأخرى: أن تعرف عن الله وطريقه، وأن ترى ما يطلبه هذا العلم منك. الأولى تحمي العمل من أن يصبح حركةً بلا إيمان، والثانية تحمي المعرفة من أن تبقى خارج الحياة. قد يكون المطلوب تصحيح تصور، أو توبة، أو ثباتًا على أمر، أو رجاءً يقطع اليأس. وكلما عبر المعنى إلى عبوديته صار التدبر طريقًا لا مجرد تأمل.

تلاوة تنزل معها السكينة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم (2699). جعلت السنة للتلاوة والمدارسة حركةً كاملة: قوم يجتمعون ويقرؤون ويتدارسون، وفضل ينزل من الله.

المدارسة تخرج القارئ من عزلته من غير أن تسلمه لضجيج الجماعة. يتعلم من علم غيره، ويسأل، ويعرض فهمه، ويقبل التصحيح. وإذا صح المجلس لم يتحول إلى استعراض للمحفوظ، بل بقي الوحي في المركز: ماذا قال؟ وكيف نفهمه؟ وما الذي يطالبنا به؟ تنزل السكينة على عبادة قائمة، ولا يصنعها حسن الحوار وحده.

ويكشف الحديث وجهًا آخر للتوفيق. يستطيع الناس أن يحددوا موعد المجلس، ويفتحوا المصحف، ويتعلموا أدوات الفهم؛ أما السكينة والرحمة وذكر الله لهم فلا يملكونها. هذا لا يدفعهم إلى ترك الاجتماع،

بل إلى إحسانه والافتقار فيه. كل سبب في طريق الهداية يعمل بهذه الصورة: فعل مأمور، وفضل منتظر، وقلب يعلم أن النتيجة ليست في يده.

اختر مقطعًا قصيرًا من القرآن، واقرأ سياقه، وارجع إلى تفسير معتبر، ثم اكتب في عبارة واحدة معناه المحكم، وفي عبارة ثانية ما يطلبه منك. لا تكثر الأسئلة في جلسة واحدة حتى يضيع العمل. وعند التلاوة استحضر حركة الجن: أنصتوا، فعرفوا، فآمنوا، ثم عادوا منذرين. واسأل نفسك: ما الخطوة التي ينبغي أن تتبع هذا السماع حتى لا ينتهي عند أذني؟

والاستماع لا يقف عند القرآن المتلو مباشرة؛ يدخل فيه سماع بيانه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وسؤال أهل العلم، والإنصات للمخالف حين يحمل دليلًا. غير أن المراتب لا تختلط: كلام الله هو الأصل، والسنة وحي مبين، وكلام العلماء يُقبل بقدر دليله. هذا الترتيب يحفظ القلب من تقديس البشر ومن الاستغناء عنهم في وقت واحد.

حين يقرأ الإنسان وحده، قد تمر به كلمة يظنها واضحة وهي تحتمل غير ما فهم. وحين يدرس مع غيره، يرى زاوية لم تخطر له. لذلك كانت المدارسة نعمة، بشرط أن يبقى المقصود فهم كلام الله لا إثبات تفوق قارئ على قارئ. المجلس الذي تتكاثر فيه الأسماء والمصطلحات ويغيب السؤال عن العبادة يحتاج إلى إعادة مركزه.

ويحتاج طالب التدبر إلى صبر على التكرار. الآية التي قرأها عشرات المرات قد تفتح له اليوم لأنها جاءت إلى قلب تغيرت أحواله، أو لأنه جمع سياقًا لم يكن جمعه. لا يطلب الجديد لمجرد الجدة، ولا يمل من المحكمات لأنها معروفة. هداية القرآن لا تنفد، وكثير من الزيادة يقع حين يعود العبد إلى الأصل نفسه بصدق أعمق.

ومن علامات حسن التلقي أن يتحسن سؤال القارئ. بدل أن يسأل فقط: ما المعنى الغريب؟ يسأل: ما علاقة هذه الآية بما قبلها؟ ما اسم الله أو وعده أو أمره الذي تبنيه؟ ما الخطأ الذي تصححه في تصوري؟ ما حدود دلالتها؟ ثم ينتقل من السؤال العلمي إلى سؤال العبودية من غير قفزة متكلفة. هكذا يعمل العقل تحت نور الوحي، لا خارجًا عنه.

الوحدة العاشرة: الطاعة والاعتصام: كيف تلزم الطريق؟

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: 54]. الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل البلاغ، والمخاطبون يحملون الاستجابة، وربط الله الهداية بطاعته. فلا تستقيم دعوى طلب الهدى مع وضع السنة خارج موضع الحكم.

الطاعة أوسع من الإعجاب بالنبي صلى الله عليه وسلم أو محبته الوجدانية. المحبة الصادقة تقبل أن تحدد سنته طريقة العبادة والأخلاق والمعاملة، وأن تصحح ما ألفه الإنسان. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]. جعل الاتباع برهانًا عمليًّا على دعوى المحبة، ووعد بعده بمحبة الله ومغفرته.

يظهر الفرق حين تأتي السنة بما لا يوافق المزاج المعاصر أو العرف العائلي أو الاختيار الشخصي. من السهل أن يمدح الإنسان الرحمة النبوية، ثم يضيق بحكم ثابت لا يراه الناس مناسبًا. والطاعة لا تعني تعطيل فهم النص أو إنزال الحديث على غير موضعه؛ تحتاج إلى ثبوت ودلالة وجمع. لكنها بعد صحة العلم تمنع النفس من إنشاء سلطة أعلى تختار بها ما تقبله من الرسول.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]. لا تسلب الآية الإنسان إرادته؛ هي تطالبه أن يستعمل إرادته في التسليم بعد حكم الله ورسوله. يملك أن يطيع أو يعصي، لكنه لا يملك أن يسمي العصيان اختيارًا شرعيًّا مساويًا للطاعة.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» رواه البخاري (7280). نقل الحديث معنى الطاعة من تفصيل فقهي بارد إلى سؤال المصير: العصيان إعراض عن باب يدعو صاحبه إلى الجنة.

لا يعني الحديث أن كل معصية تخرج صاحبها من الإسلام أو تحكم عليه بالنار، المسلم يذنب ويتوب، وقد يعفو الله عنه. المقصود أن طريق الدخول هو طاعة الرسول، وأن كل عصيان يحمل من معنى الإباء بقدره. هذا يوقظ القلب من التعامل مع السنة بوصفها تحسيناً زائداً يمكن تأجيله بلا أثر، ويعيدها إلى وظيفتها: هداية تقود إلى النجاة.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101]. جاءت الآية في سياق تحذير المؤمنين ممن يريد ردهم بعد إيمانهم، فذكرت لهم ما بين أيديهم من آيات الله وبيان الرسول، ثم فتحت باب الاعتصام بالله. عند ضغط الفتنة لا يكفي أن يعرف الإنسان أنه كان على الطريق؛ يحتاج إلى أن يحتمي بمن يملك تثبيته.

الاعتصام بالله تعلق به، ولزوم لطاعته ووحيه، واستمداد للعون منه. لا يحول الله إلى شعار يقال مع ترك أمره؛ فمن اعتصم به لزم الحبل الذي مده لعباده. ولهذا تتابع السياق: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103]. يجتمع المؤمنون على وحيه وعهده، لا على عصبية تجعل الجماعة حجابًا عن الدليل.

تحتاج الفتنة إلى أصل يرجع إليه القلب قبل أن تشتد. حين تتدافع الأخبار والمواقف، يدخل الإنسان متأخرًا إذا لم يعرف ما يحكمه: عدل لا يسقط مع البغض، وصدق لا تبيحه المصلحة، وحرمة دم ومال، وطاعة لله ورسوله فوق ضغط الفريق. الاعتصام أن يستدعي هذه الأصول وهي مكلفة، لا أن يذكرها بعد أن ينتهي الموقف.

ولا يقع الاعتصام في عزلة فردية عن جماعة المؤمنين. الآية قالت: ﴿جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103]، فالعلماء والصادقون والجماعة القائمة على الحق من أسباب الحفظ. غير أن الجماعة تُوزن بحبل الله، ولا يصير مجرد الانتماء عصمة. إذا تحولت الجماعة إلى مصدر يقرر الحق بمعزل عن الوحي، انقلبت الوسيلة التي تحفظ الهداية إلى حجاب جديد.

كتاب الله في آخر البلاغ

في حجة الوداع قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ» رواه مسلم (1218). جاءت الكلمة في آخر

بلاغ عظيم، والناس مسؤولون عن نقل الدين بعده. ترك لهم مرجعًا لا يتغير، وربط السلامة من الضلال بفعلهم: الاعتصام.

الاعتصام بالكتاب يقتضي قبول السنة؛ فالكتاب هو الذي أمر بطاعة الرسول وجعل بيانه حجة. ولا يعني أن كل قارئ يستغني عن العلم، أو أن كل جماعة تحمل مصحفًا تكون معتصمة. الاعتصام رجوع صادق إلى النص بفهم معتبر، ولزوم لما دل عليه، وترك لما خالفه. وجود الكتاب في البيت أو الهاتف لا يحقق الوعد إذا بقي خارج موضع النزاع.

وحين يشتبه الأمر، لا يطلب المؤمن من القرآن آيةً منفردة تخدم غضبه. يجمع المحكمات، ويرجع إلى السنة، ويسأل أهل العلم، ويميز بين أصل ثابت وتنزيل يحتاج إلى اجتهاد. بهذا يحفظ الاعتصام من التلاعب، ويحفظ العلم من أن يتحول إلى باب يعطل الرجوع. الوحي حاكم، والأدوات خادمة لفهم حكمه.

ويحتاج الاعتصام إلى دعاء؛ لأن من عرف الحبل قد تضعف يده. يكرر الإنسان الأصل الذي يؤمن به ثم ينهار تحت ضغط الخوف أو الرغبة. لا يكفي أن يقول: معي الدليل. يسأل الله أن يثبته، ويتخذ من الطاعة السابقة والصحبة والذكر أسبابًا تحفظه. القوة التي تمسك بالحبل من الله، والعبد مأمور أن يمد يده ولا يرخيها.

حكم تعرفه وفتنة تعيشها

انظر إلى سنة صحيحة أو حكم واضح تؤجله منذ زمن. ما الذي ينتظر؟ هل يحتاج إلى علم حقيقي، أم أن العلم استقر وبقيت كلفة التنفيذ؟ قد يكون التأجيل في عبادة، أو حق لوالد، أو معاملة، أو خلق نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم. اختر موضعًا واحدًا، وانقل الطاعة من الاعتراف النظري إلى زمن محدد وفعل ظاهر.

ثم سمِّ فتنة قائمة يخاف فيها قلبك التبدل. لا تبدأ بتفاصيل الأشخاص، بل بالأصل الذي ستعتصم به: آية محكمة، أو سنة صحيحة، أو قاعدة شرعية معلومة. ارجع إلى عالم ثقة في تنزيلها، وحدد الصوت الذي يثيرك بعيدًا عن العلم، والرفقة التي تعينك على العدل. بهذه الخطوات يصير الاعتصام هيئة حياة، لا كلمة ترفع عند الخصومة.

الطاعة تهدي، والاعتصام يحفظ الطريق، وكلاهما من توفيق الله. لا يقل العبد: لو أراد الله ثباتي لثبت، ثم يترك الحبل. ولا يقول: تمسكي صنع نجاتي. يطيع لأنه مأمور، ويعتصم لأنه ضعيف، ويحمد الله إذا ثبت؛ فقد دعاه إلى الطريق، ومد له الحبل، وأعانه على أن يقبض عليه.

ولا تُختزل الطاعة في المسائل التي يراها الناس علامة ظاهرة على التدين. يدخل فيها الوفاء بالعقد، والعدل مع المخالف، وحفظ اللسان، وأداء العمل بأمانة، والرفق الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم.

الانتقائية قد تجعل الإنسان شديد الحرص على سنة في هيئته، متساهلًا في سنة تمس خلقه ومصلحة غيره. وكلما اتسعت الطاعة اقتربت حياته من هدي النبي كله.

ومن فقه السنة أن يفرق بين الثابت والمتغير، وبين العبادة والعادة، وبين ما جاءت به الشريعة وما نشأ في بيئة المسلمين. لا يحمي الاتباعَ جهلٌ يجعل كل مألوف سنة، ولا دعوى تجديد تفرغ السنة من سلطانها. يحتاج المحب إلى علم يثبت النص ويفهمه، ثم إلى قلب يخضع لما ثبت. بهذا تجتمع الحاكمية والبصيرة.

وتشتد الفتنة حين ينسب كل فريق نفسه إلى الوحي. عندها لا يكفي الشعار؛ تُفحص الأمانة في النقل، والعدل في الخصومة، وجمع النصوص، واحترام القطعيات. المعتصم لا يتبع من يرفع الآية بأعلى صوت، بل يطلب معناها ويقف عند حدود تنزيلها. وقد يكون أهدأ المتخاصمين لغةً أقربهم إلى الاعتصام إذا كان أشدهم خضوعًا لحكم الله.

والاعتصام يحرر القلب من وحشة الطريق. قد يجد المؤمن نفسه قليلًا في موقف، فيذكر أن الحبل من الله لا من الكثرة. ويجد جماعةً صالحةً فيحمد الله، من غير أن ينقل إليها العصمة. فإن أخطأت الجماعة بقي الوحي مرجعه، وإن أصاب فرد لا يحبه قبل الحق منه. هكذا يكون الاجتماع على الله لا على النفس المكبرة باسم الجماعة.

الوحدة الحادية عشرة: المجاهدة والعمل بما عرفت

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾

قال الله تعالى في ختام سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. وعد بالهداية إلى السبل، وسبق الوعد مجاهدة من العبد، وختمت الآية بمعية الله للمحسنين. لا تضع الآية الإنسان أمام خيارين: انتظار التوفيق أو العمل؛ تجعله يجاهد في الله، ويرجو هداية لا يهبها إلا الله.

قوله: ﴿فِينَا﴾ [العنكبوت: 69] يضبط جهة المجاهدة. ليست كل مشقة سببًا للهداية، ولا كل إصرار عبادة. قد يجاهد الإنسان لحماية هواه أو علوه، فيزداد بعدًا وهو يتعب. المجاهدة التي وعدت بالهدى تتجه إلى الله: لطلب رضاه، وفي طاعته، وعلى الطريق الذي شرعه. صلاح الجهة يسبق كثرة الجهد.

و﴿سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] تفتح معنى واسعًا. يفتح الله لعبده طرق الفهم والطاعة والثبات، ويعرفه ما يناسب مقامه من أبواب الخير. قد يبدأ بترك ذنب فيفتح له صدقًا في الدعاء، أو يبدأ برد حق فيرى

من عيوب نفسه ما كان مستورًا، أو يصبر على تعلم أصل فينفتح له ما بعده. الطريق لا يكشف خرائطه كلها للواقف؛ بعض السبل يظهر للسائر.

هذا الوعد لا يتحول إلى قانون يحدد العبد به زمان الفتح وصورته. يجاهد، وقد تكون الهداية الأولى أن يرى فساد قصده، أو أن يكتشف بابًا كان يظنه حقًّا، أو أن يثبت على طاعة من غير لذة. كل ذلك هدى. من اشترط أن تأتي الثمرة في الصورة التي رسمها جعل وعد الله تابعًا لتوقعه، وفاته أن الفضل يعرف حاجته أكثر مما يعرفها هو.

مجاهدة النفس تشمل مقاومة الهوى والخوف والمألوف. يريد الإنسان أن يعتذر، فتمنعه كرامة موهومة؛ أو يعرف أن بابًا رقميًّا يفسد قلبه، فتجادله العادة؛ أو يطلب العلم، فيثقل عليه نظامه وصبره. المجاهدة ليست كراهية للنفس، بل تحرير لها من سلطان عاجل يحرمها خيرًا أبقى. يقودها برفق وحزم، ويستعين إذا احتاج، ويكرر المحاولة بعد العثرة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66-68]. جمع النص ثمرات العمل: خيرًا، وتثبيتًا، وأجرًا، وهداية. والعمل بما وعظوا به لم يكن نهاية الطريق، بل بابًا يفتح الله بعده ثباتًا وهدى جديدين.

تسبق هذه الآيات صورة تكليف شديد، ثم تقرر الأصل الذي يعم ما وعظ الله به عباده. لا يحتاج القارئ إلى انتظار أمر خارق حتى يختبر صدقه؛ أمامه أوامر يعرفها، وحقوق يؤجلها، ونواهٍ يكررها. حين يفعل ما وعظ به يتحول العلم إلى بنية في القلب، ويصبح الرجوع التالي أقرب. أما العلم الذي يرفض مقتضاه فيترك وراءه انقسامًا يضعف الإرادة.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66] تكشف أن العمل نفسه من أسباب الثبات. يتصور بعض الناس أن الثبات شعور يسبق الطاعة، بينما يتكون جانب منه داخلها. حين يقوم العبد للصلاة مع الفتور، أو يصدق مع الخوف، أو يغض بصره مع قوة الداعي؛ يثبت في قلبه أن أمر الله يمكن أن يحكمه، وتصبح الطاعة التالية أقل غرابة. كل فعل صادق يترك أثرًا يتجاوز ساعته.

أما التأجيل فيفعل بالقلب شيئًا آخر: يضعف موضع الأمر فيه. يقول الإنسان: أعرف وسأعمل، ثم تتكرر المسافة بين المعرفة والفعل حتى يصبح مجرد العلم تعويضًا نفسيًّا عن الطاعة. يقرأ في التوبة فيشعر أنه

قريب منها، ويشرح فضل الصدق فيحسب الشرح نصيباً منه. هنا يقطع الوحي الوهم: المعرفة التي لا تعبر إلى فعل قد تتحول إلى ستار يحجب صاحبه عن حقيقة تأخره.

فعل الله ظاهر: يؤتي الأجر، ويثبت، ويهدي الصراط. وفعل العبد ظاهر: يفعل ما وُعظ به. لا يملك العمل أن يخلق ثمرته، لكنه مجرى شرعه الله لها. ومن فضل الله أن العمل الذي يحتاج إلى تثبيت صار نفسه سبباً في تثبيت جديد؛ يعطي العبد خطوة، فيفتح له ربه بها قدرةً أوسع على السير.

ما استطعتم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». رواه البخاري (7288)، ومسلم (1337)، واللفظ للبخاري. يجمع الحديث الحزم والرحمة: النهي يجتنب، والأمر يفعل بحسب الاستطاعة. فلا يُطلب من العبد ما لا يطيق، ولا يُعفى من الممكن لأنه لم يقدر على الكمال.

تتحول فكرة الكمال أحيانًا إلى حيلة للتوقف. يريد أن ينظم طلبه للعلم تنظيمًا كاملًا، أو يصلح علاقته كلها، أو يقطع عادةً دفعةً واحدة؛ ولما لا يقدر يترك الخطوة التي يقدر عليها. الحديث يعيد التكليف إلى حد الاستطاعة، فيبدأ بما يملك اليوم، ويطلب مزيد القدرة غدًا. التدرج الصادق حركة، أما التدرج الذي لا يبدأ فاسم لطيف للتأجيل.

والاستطاعة لا تقاس براحة النفس. ألم الاعتذار لا يجعله مستحيلًا، ونقص الربح لا يجعل ترك الحرام عجزًا، ووحشة مخالفة الجماعة لا تسقط التكليف. وفي الجهة الأخرى توجد أعذار حقيقية من مرض وإكراه وجهل وعجز، والشرع أرحم بالعبد من قسوته على نفسه. يحتاج الصدق إلى أن يميز الكلفة من العجز، فلا يبرئ الهوى ولا يكلف النفس ما لم يأمر به الله.

إذا ثقل العمل فجزئه إلى أول فعل مشروع. من عليه حقوق كثيرة يبدأ بأثبتها وأقدرها، ومن ابتلي بعادة يقطع أقوى مدخل إليها، ومن جهل بابًا يتعلم الحكم الذي يتوقف عليه عمله. لا يجعل كثرة التقصير مانعةً من إصلاح واحد؛ فطريق الهداية يتكون من أعمال محددة، لا من انفعال عام بالذنب.

حين يتقدم الفعل على الشعور

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]. الخطر هنا لا يقتصر على نفاق معلن؛ كل مسافة يرضى بها الإنسان بين

القول والعمل تحتاج إلى خوف. اللسان يستطيع أن يسكن الضمير بكلام صحيح، بينما يبقى الفعل في الاتجاه الآخر.

ولا تدعو الآيتان إلى أن يصمت الإنسان عن الحق حتى يكمل نفسه. يبقى التعليم والنصيحة واجبين بحسب الحال، ويجاهد أن يعمل بما يقول. الخطر أن يتخذ القول بديلًا من العمل، أو أن يطلب من الناس ما أعفى منه نفسه. كلما علم غيره معنىً عاد به إلى قلبه: ما نصيبي منه؟ بهذا يصير البلاغ مرآة لا منصةً للعلو.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: 7]. نصر الله يكون بنصر دينه وطاعته، والله غني عن خلقه. رتب سبحانه النصر والتثبيت على قيام المؤمنين بما أمروا به، فحملهم المسؤولية ثم وعدهم بالمدد. ليست القضية قوة ذاتية تتضاعف، بل عبودية تنزل عليها معونة.

ابدأ بطاعة واضحة تؤجلها. لا تنتظر أن تحبها كلها؛ افعلها تعظيمًا لله، واسأله أن يلحق القلب بالجوارح. واترك مانعًا معلومًا يكرر سقوطك. ثم راقب ما يفتح بعد الفعل: وضوحًا، أو قوةً، أو بابًا جديدًا من المحاسبة. وإذا لم تشعر بشيء، فلا تبطل الطاعة؛ يكفي أنها حق أديته، والله لا يضيع عمل المحسنين.

وأحيانًا لا تكون المجاهدة في فعل جديد، بل في إسقاط حجة قديمة تختبئ النفس وراءها. يقول طالب العلم: لم أبلغ المرتبة التي تمكنني من النفع، فيترك تعليم أهله بما يعلم. ويقول المذنب: لن أترك حتى تتغير البيئة كلها، فيترك الباب الممكن. ويقول المظلوم: لن أعدل حتى يعترف الآخر، فيربط طاعته بمعصية غيره. المجاهدة تفك هذه الروابط وترد التكليف إلى ما يملكه العبد الآن.

ومن المجاهدة أن يحتمل الإنسان بطء الثمرة. يبدأ في عبادة، فلا يجد لذتها، ويترك معصية، فتلاحقه رغبتها، ويتعلم، فيرى جهله أكثر. هذه النتائج لا تعني أن الطريق لم يفتح؛ رؤية الجهل هداية، والإحساس بشدة العادة كشف يحتاج إليه العلاج. الثبات في أول الطريق أحيانًا أشد عبودية من السير بعد أن يصبح مألوفًا.

وتحتاج المجاهدة إلى ميزان حتى لا تنقلب إلى قسوة. النفس لها حق في الراحة المباحة، والجسد أمانة، والواجبات تتفاوت. من حمل نفسه على نوافل تضيّع فرضًا أو حقًّا لم يفقه الطريق. يجاهد في طاعة الله على علم، ويستريح ليستعين، ويتدرج حيث شرع التدرج، ولا يجعل الحماس حاكمًا على الحكمة.

كما تحتاج إلى توبة سريعة بعد العثرة. الذي يجاهد قد يسقط، والفرق بين مسار ومسار في ما يحدث بعد السقوط. يبرر أحدهم فيتحول الضعف إلى إقامة، ويعترف آخر ويستغفر ويعيد السبب. لا ينتظر شعور الاستحقاق حتى يعود؛ يعود لأن ربه فتح الباب، ولأن الاستمرار في البعد خسارة جديدة.

وقبل العمل قل: يا رب، هذا ما أقدر عليه بإقدارك، فأعنّي. وفي أثنائه لا تلتفت إلى نفسك بوصفها صاحبة الفضل. وبعده احمد الله واسأله القبول والثبات. هكذا تصبح المجاهدة سبباً للهداية من غير أن تتحول إلى عبادة للإرادة: فعل منك، ومدد من الله، وفتح ترجوه ولا تدعيه.

الوحدة الثانية عشرة: العلم الذي يهدي

«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي» رواه البخاري (71)، ومسلم (1037)، واللفظ للبخاري. جعل الفقه في الدين علامة إرادة خير، ثم رد العطاء إلى الله. الرسول يقسم ما أوحي إليه ويبينه، والله يهب الفهم النافع لمن يشاء.

الفقه أعمق من حفظ معلومات متفرقة. هو فهم يضع الحكم في سياقه، ويميز المقاصد والحدود، ويقود صاحبه إلى عبادة صحيحة. قد يحفظ الإنسان نصوصًا ولا يعرف الجمع بينها، أو يعرف الحكم ويخطئ في تنزيله، أو يحسن البيان ولا يفقه ما في قلبه من هوى. الفقه النافع يصل العلم بالخشية والعمل والحكمة.

ولا يصح قلب الحديث إلى أحكام جازمة على الأعيان؛ فقد يقل علم إنسان لعجز أو ظرف، وفيه من الخير ما يعلمه الله. لكنه يقرر ميزانًا يخيف طالب العلم ويرجيه: الفهم في الدين من أعظم النعم، وازدياد الجهل مع الإعراض خسارة. فمن فتح له باب علم لم يره إنجازًا شخصيًّا؛ رأى علامة خير تستوجب شكرًا وعملًا وسؤالًا للمزيد.

وقوله: «**وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي**» يحفظ وظيفة العالم والمتعلم. العالم يبلغ ويشرح ويقسم ما آتاه الله، ولا يملك أن يخلق الفقه في قلب أحد. والمتعلم يبذل وقتًا ويسأل ويحفظ، ولا يظن أن كثرة الساعات تضمن الفتح. كلاهما يعمل، وكلاهما يفتقر إلى المعطي.

يظهر هذا الافتقار في تفاوت الناس أمام الدرس نفسه. يسمع اثنان، فيفتح لأحدهما معنى يغير حياته، ويحفظ الآخر الألفاظ ولا تجاوز لسانه. قد يكون الفرق في صدق القصد أو حسن الاستعداد، وقد يخفى سببه. لا نقتحم السر، لكننا نعرف الواجب: إحسان التعليم، وحسن التلقي، ودعاء الله أن يجعل العلم فقهًا ونورًا.

«فَقُّهَ فِي دِينِ اللَّهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ»

وقد سبق في المحور الثاني تحليل مثل الغيث والأرض في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، رواه البخاري (79)، ومسلم (2282). وموضعه هنا بيان الفرق بين حفظ العلم وفقهه وإثماره: فقد يحمل المرء ألفاظ العلم وينقلها، ولا يبلغ بها مرتبة الفقه الذي ينفع القلب ويقود إلى العمل، وكمال الانتفاع أن يثمر الفهم خشيةً وعملًا وتعليمًا. وبهذا يعود المثل خادمًا للحديث المركزي: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»؛ فالفقه عطاء من الله، وأثره يظهر في صاحبه ويتعدى إلى غيره.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

قال تعالى بعد عرض آيات من اختلاف الخلق والألوان: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]. كلما عرف العبد ربه وآياته ازداد خشية، لأن العلم كشف له جلال من يعبد، ودقة حسابه، وسعة مغفرته. والخشية ليست انقباضًا مظلمًا، تجمع تعظيمًا يحجز عن المعصية ورجاءً يفتح باب المغفرة.

الآية لا تمنح كل من حمل لقب عالم شهادةً بكمال الخشية، لكنها تبين ثمرة العلم بالله. فإذا ازداد المرء معلومات ولم يزدد تواضعًا، وجب أن يسأل عن موضع الخلل: ربما كان العلم سطحيًّا، أو لم يربطه بالقلب، أو دخلت عليه آفة المكانة. المراجعة هنا لا تحتقر ما تعلمه؛ تدعوه إلى استكمال وظيفته.

وتظهر الخشية العلمية في الأمانة. يقول العالم: لا أدري، حين لا يدري. ويذكر الخلاف بقدره، ولا يختار القول لإرضاء جمهور، ولا يحمل النص ما لا يحتمل. وقد تكون كلمة «لا أعلم» ثمرة هداية أكبر من جواب متكلف؛ لأنها تضع صاحبها تحت الحقيقة، وتحفظ دين السائل من ثقة لا مستند لها.

ومن علامة العلم النافع أن يورث رحمةً لا رخاوة. من عرف ضعف الإنسان وسعة الشريعة لم يحول العلم إلى سوط يثبت به تفوقه؛ يبين الحق بلا مداهنة، ويفرق بين الخطأ وصاحبه، وبين الجاهل والمعاند، وبين موضع التعليم وموضع الإنكار. الرحمة لا تمحو الحدود، لكنها تطهر القلب من لذة انكسار المخالف.

قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]. العلم يفتح باب عقل أمثال الله وربطها بمواضعها، ثم يبقى السؤال: ماذا أحدث هذا العقل؟ إن لم يقرب صاحبه من التسليم والعمل ظل بابًا مفتوحًا لم يدخله.

طريق إلى الجنة لا إلى المنصة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه مسلم (2699). يخرج طالب العلم في طريق محسوس أو معنوي، ويعده الله بتيسير طريق الجنة. الغاية أعلى من الشهادة والوظيفة والقدرة على الجدل؛ العلم سفر إلى الله.

ولا ينتظر طالب العلم قلبًا لا تدخله الأغراض الدنيوية؛ بل يجاهدها كلما ظهرت. يراجع قصده، ويستحضر حاجة نفسه والناس، ويطلب أن يكون ما يتعلمه حجةً له. وإذا وجد حب الظهور عالجه بعمل

خفي، وبقبول الحق من غيره، وبنسبة الفضل إلى الله. الإخلاص ليس ختمًا يوضع في أول الطريق؛ هو عبودية تتجدد كلما اتسع العلم واتسع معه مجال الفتنة.

ويحتاج العلم إلى عمل قريب يحفظه. اختر معنى تعرفه وتكثر من شرحه، ثم اسأل عن ثمرة لم تظهر بعد: علمك بفضل الصلاة، ماذا صنع في وقتها؟ علمك بحرمة الغيبة، ماذا صنع في مجلسك؟ علمك بالقدر، ماذا صنع في اعتراضك؟ لا تطلب ثمرةً عامة؛ حدد سلوكًا واحدًا يجعل المعلومة عبادة.

أما الباحث فيختبر هدايته عند الدليل الذي يراجع بناءً أنفق فيه زمنًا. لا يكفي أن يعلن احترام المنهج؛ يظهر ذلك حين يصحح، ويوثق ما ينقل، ويميز القطعي من المحتمل، ويقول إن المادة لا تكفي. هذا التواضع ليس خارج العلم؛ هو من صميم الفقه الذي يضع كل دليل في قدره.

اطلب علمًا تحتاج إليه الآن، من مصدره وأهله، واربطه بعمل. ثم قل: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114] وأنت تسأل زيادةً تنفع، لا تراكمًا يثقل الحجة. الله يعطي، وأنت تتعلم؛ فإذا فتح لك فلا تجعل الفتح مقامًا ترتفع به على الناس، بل طريقًا تتخفض فيه لله وتدل به عباده.

والعلم الذي يهدي يعرف أولوياته. يبدأ بما تصح به العقيدة والعبادة والحقوق القائمة، ثم يتوسع بحسب الحاجة والاستعداد. قد يطلب الإنسان دقائق بعيدة، ويجهل حكمًا يتكرر في بيته أو ماله. كثرة المسائل لا تعوض خلل الترتيب. من فقه الهداية أن يسأل: ما العلم الذي أحتاجه لأعبد الله في مقامي الآن؟

ويعرف مصادره. لا يأخذ دينه من مقطع مجهول، ولا يسوي بين المتخصص وغيره، ولا يجعل سهولة العرض دليلًا على صحة المضمون. ومع ذلك لا يحصر الحق في اسم واحد؛ العلماء يدل بعضهم على بعض، ويُعرفون بالعلم والأمانة، وتُراجع أقوالهم بالدليل. الثقة المنضبطة تختصر الطريق من غير أن تلغي المسؤولية.

ويعرف حق التعليم. من آتاه الله علمًا لا يحبسه طلبًا للتميز، ولا ينشره قبل أن يضبطه. يراعي حال المخاطب، ويفرق بين ما يحتاج إليه العامة وما لا يحتملونه بلا تمهيد، ويعترف بحدوده. التعليم عبادة نقل، وكل خطأ فيه قد يمتد إلى غير صاحبه؛ لذلك يزداد العالم ورعًا كلما اتسع أثر كلمته.

والعلم يختبر عند الخلاف. هل يجعل صاحبه أكثر قدرةً على فهم حجة الآخر، أم أكثر مهارةً في تشويهها؟ هل يفرح بانكشاف الصواب ولو كان عند مخالفه، أم يحزن لأن فريقه خسر جولة؟ الفقه الذي أراد الله به خيرًا لا يمحو الانتماء، لكنه يضعه تحت الحق، ويمنع الجدال من أن يأكل الخشية.

الوحدة الثالثة عشرة: الصحبة التي تحفظ الاتجاه

﴿وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. جاءت الآية بعد ذكر توبة الثلاثة الذين خُلّفوا، وقد نجاهم صدقهم حين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم ليتوبوا [التوبة: 118]. في هذا السياق تصبح المعية مع الصادقين حمايةً لطريق لا يحتمل الكذب على الله ولا على النفس.

لم يكن صدقهم كلمة سهلة؛ اعترفوا بالتخلف ولم يصنعوا عذرًا يخرجهم من المؤاخذة. دفعوا ثمن الصدق عزلةً وانتظارًا، ثم جاء الفرج من الله. الصحبة التي تحفظ الهداية ليست جماعةً تمنح صاحبها شعور القبول بأي ثمن، بل بيئة تعينه على أن يصدق ولو انكشفت عيوبه، وتمنعه من شراء الراحة بتبرير يبعده عن التوبة.

الأمر بالمعية يدل على أن الإنسان يتأثر بمن حوله. يتعلم منهم أسماء الأشياء: ما الذي يعد عيبًا، وما الذي يحتفل به، وما الذي يمكن تبريره. في جماعة صادقة يصبح الرجوع فضيلة، وفي جماعة تحمي صورتها يتحول الاعتراف إلى خيانة. لا يحتاج التأثير دائمًا إلى نصيحة مباشرة؛ يكفي أن يرى الإنسان ما يُمدح وما يُستهجن حتى يعيد قلبه ترتيب المعايير.

ومع ذلك لا يحمل المجتمع مسؤولية اختيارات العبد كلها. البيئة تؤثر، والإنسان يبقى مأمورًا أن يختار ويقاوم ويخرج إن استطاع. من نشأ في وسط يزين الخطأ يحتاج إلى رحمة وفهم، لكنه لا يحول المؤثر إلى قدر ملزم. الأمر: ﴿كُونُوا﴾ [التوبة: 119] يثبت أن للعبد حركةً يطلب بها المعية ويصبر عليها.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28]. الصحبة الصالحة تحتاج إلى صبر، لأن أهلها قد لا يملكون الزينة التي تجذب العين، ولأن الاستمرار معهم يحمل تكاليف من المراجعة والالتزام.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28] يحدد أساس الصحبة: جهة مشتركة إلى الله، لا مجرد تشابه نفسي أو اجتماعي. وقد يختلف الصادقون في طباعهم واجتهاداتهم، لكنهم يعين بعضهم بعضًا على صدق القصد

والطاعة. أما الصحبة التي تجمعها المصلحة وحدها فتضعف عند أول تعارض، وقد تستخدم الدين غطاءً لولاء أشخاص.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28] يكشف فتنة المكانة. يميل الإنسان إلى المجلس الذي يمنحه قبولًا وظهورًا، ويثقل عليه مجلس يذكّره بضعفه وواجبه. قد يترك رفقةً صادقة لأن صورتها الاجتماعية متواضعة، ويتجه إلى بيئة لامعة تستنزف قلبه. البصيرة ترى ما تصنعه الصحبة، لا ما تعرضه من زينة.

والصبر معها يشمل قبول النصح. الصاحب الصادق لا يصفق لكل قرار، ولا يجعل الوفاء أن يحميك من الحقيقة. يرحمك في طريق البيان، لكنه لا يتركك في ظلمك كي تبقى العلاقة هادئة. وإذا جاءك منه تصحيح قاوم رغبة الدفاع الأولى، وافصل بين نقص أسلوبه وصحة ما قال. ربما جعل الله نجاتك في كلمة ثقلت عليك لأنها خرجت ممن يعرفك.

حامل المسك ونافخ الكير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» رواه البخاري (5534)، ومسلم (2628)، واللفظ للبخاري.

المثل لا يحصر أثر الصحبة في التعليم المباشر. قد يعطيك حامل المسك، أو تشتري منه، أو يكفي أن تجد ريحه. بعض الصالحين يعلمك بكلمة، وبعضهم يفتح لك باب عمل، وبعضهم يترك في نفسك تعظيمًا للطاعة بمجرد رؤيته. الخير ينتقل في الجو الذي يصنعه الناس حولهم، كما تنتقل الرائحة من غير محاضرة.

وفي الجهة الأخرى قد يحرق نافخ الكير الثياب، أو يترك رائحة خبيثة. صحبة السوء تجر إلى فعل مباشر، أو تطبع القلب مع القبيح حتى تخف نكارته. يسمع الإنسان الكذب كل يوم فيصبح ذكاءً، ويشاهد السخرية من الطاعة فتغدو مألوفة، ويرى الشهوة مادةً للضحك حتى يضعف حياؤه. ربما لم يأمره أحد بمعصية، لكن الهواء حوله غيّر حسه.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه أبو داود (4833)، والترمذي (2378)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. لا يفيد أن الإنسان نسخة حتمية من صاحبه؛ يفيد أن الخلة تدخل إلى الدين نفسه، فتستحق نظراً قبل أن تستحكم.

اختيار الصاحب لا يعني أن يقطع المؤمن صلته بكل مقصر أو يعتزل المجتمع. يخالط الناس بالحق والرحمة، ويدعو ويصل رحمه ويؤدي الحقوق. الكلام عن الدائرة التي يمنحها سلطة القرب والتشكيل: من يفضي إليه، ويطلب رأيه، ويكرر الجلوس معه، ويستمد منه معيار القبول. هذه الدائرة تحتاج إلى وعي أشد من العلاقات العابرة.

الصحبة التي تسكن الجيب

البيئة الرقمية صحبة ممتدة، وإن لم يسمها الإنسان كذلك. الأصوات التي يفتح عليها يومه، والحسابات التي تكرر أمامه الصور والأحكام، تصنع مألوفًا جديدًا. لا يحتاج المحتوى إلى إقناعه بحجة كاملة؛ يكفي التكرار حتى يبدو المنكر عاديًّا، أو تصبح الدنيا كلها سباقًا على صورة واحدة من النجاح.

الخوارزمية تتبع ما يضغط عليه الإنسان، ثم تعيده إليه مضاعفًا. يبدأ الاختيار صغيرًا من العبد، ثم تصنع المنصة حوله بيئة تشبهه وتزيده. هذا لا يرفع مسؤوليته ولا يمنح التقنية إرادة مستقلة؛ يبين أن الباب الذي يفتحه مرات قد يتحول إلى غرفة يعيش فيها. ومن فقه الصحبة أن يسأل عن الأثر المتراكم، لا عن حكم مقطع منفرد فقط.

ويمكن للبيئة نفسها أن تعين على الهدى: درس موثوق، وصحبة علم، وتذكير بالطاعة، ووصول إلى أهل خبرة. لكنها تبقى وسيلة تحتاج إلى ضبط؛ فوفرة المحتوى الصالح قد تتحول إلى استهلاك بلا عمل، وكثرة الخلافات العلمية قد تملأ القلب اضطرابًا. اختر مصادر قليلة موثوقة، واجعل لها وقتًا، وأغلق ما تعرف أنه يضعفك، ولا تسم التردد على المنصة طلبًا للعلم.

من يجعل الطاعة أسهل؟

ارسم دوائر التأثير حولك من غير تجميل: شخص بعد لقائه يسهل عليك الصدق، وآخر تزيد معه حاجتك إلى التبرير؛ مجلس يوقظ الصلاة، ومجلس يعيدك مثقلًا بالغفلة؛ منصة تزيد معرفتك وعملك، وأخرى تستهلك حياءك ووقتك. لا تحكم على الأشخاص بخواتيمهم، لكن احكم على الأثر الذي يجب عليك التعامل معه.

قوّ صلة واحدة بصاحب صادق: موعدًا ثابتًا، أو مجلس علم، أو تعاونًا على طاعة. ولا تنتظر صديقًا كاملًا؛ اطلب من يغلب خيره ويصدق معك. وفي المقابل قلل بابًا مفسدًا بقرار واضح: خروج من مجموعة، أو إلغاء متابعة، أو تقليل زمن، أو منع خلوة متكررة بمن يجرّك إلى ذنب. الإصلاح الاجتماعي يحتاج أفعالًا بقدر ما يحتاج نيات.

ثم لا تتكل على الصحبة. الصالح لا يملك قلبك، والمجلس لا يضمن ثباتك. هو سبب من أسباب الله، ووجوده منة، والانتفاع به توفيق. اشكر من نصحك، لكن اجعل تعلقك بمن جمعك به. وإذا فقدت رفقةً أو ابتعدت عنها، لا تظن أن طريق الله انقطع؛ اطلب بديلًا، واثبت على ما تعلمت، واسأل ربك أن يكون لك وليًّا وهاديًا.

ومن الوفاء للصحبة أن تعين صاحبك على الخير كما تطلب إعانته. لا تجعل الصالحين خدمات روحية تستمد منها ثم تغيب. اسأل عنهم، واثبت معهم عند ضعفهم، واذكرهم بالحق برفق، واستر ما لا يحتاج إلى إظهار. الصحبة حبل متبادل من النصيحة والرحمة، لا علاقة مستهلك بمنتج.

وتحتاج الأسرة إلى وعي بهذا الباب. الأبوان يصنعان بيئة قبل أن يعطيا دروسًا؛ طريقة الكلام عن الناس، ومكان الصلاة، ونوع المحتوى، وكيفية التعامل مع الخطأ. قد يسمع الابن وصايا كثيرة، ثم يتلقى من الجو معنى آخر. إصلاح البيئة لا يضمن الهداية، لكنه أداء للأمانة وفتح لباب مأمور.

وفي العمل كذلك دوائر تؤثر: زملاء يهونون الخيانة الصغيرة، أو رفقة تجعل الأمانة أمرًا طبيعيًّا. لا يستطيع الإنسان اختيار كل من حوله، لكنه يستطيع أن يختار من يصادقه، وما يشارك فيه، وأي كلام يمرره بصمته. أحيانًا يبدأ تغيير البيئة بكلمة هادئة ترفض التطبيع مع الخطأ.

بهذه الصحبة تكتمل حركة الأسباب في هذا المحور: قصد يتبع الرضوان، وإنابة ترجع، وإيمان يهدي القلب، وتقوى تفتح الفرقان، واستماع يتدبر، وطاعة تعتصم، ومجاهدة تعمل، وعلم يورث خشية، وبيئة تحفظ الاتجاه. ليست هذه درجات ينجزها العبد ثم يستغني؛ كل واحدة تحتاج إلى الله، وكل واحدة تفتح الأخرى، وكلها تجري نحو سؤال جديد: ماذا يفعل الله بالعبد بعد أن استجاب، وكيف تتحول خطوات الهدى إلى زيادةٍ يهبها من فضله؟

خاتمة المحور الثالث

لم يترك الله طالب الهداية أمام قلبه حائرًا يراقب اضطرابه فقط. عرّفه إلى أعمال يسلكها: يتبع رضوان ربه، وينيب إليه، ويؤمن ويتقي، وينصت ويتدبر، ويطيع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعتصم بالوحي، ويجاهد ويعمل، ويتفقه، ويختار من يعينه. هذه الأسباب مأمور بها، وهي أفعال حقيقية للعبد، لكن الضوء الذي يكشفها، والقوة التي تقيمها، والثمرة التي تنبت بعدها؛ كلها من فضل الله.

جاء الجن إلى القرآن بتصريف الله، ثم قالوا: أنصتوا. سمعوا أنه يهدي إلى الرشد، فآمنوا، ثم رجعوا منذرين. وجاءت ملكة سبأ تحمل عرشًا وموروثًا، فلما ظهر لها الحق قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾

[النمل: 44]، ثم أسلمت لله. في المشهدين لا ينتظر القلب أن يمحى ماضيه قبل الحركة؛ يبدأ من اللحظة التي وصل فيها البيان، ويعطي الحق ما يطلبه.

وأخطر ما يفسد هذه الأسباب أن تتحول إلى رصيد نفسي: أنا صادق القصد، أو متقٍ، أو طالب علم، أو صاحب صحبة صالحة. الاسم لا يهدي، والانتساب لا يغني. المحك في الحركة: هل يقصر الطريق من العلم إلى العمل؟ هل صار الرجوع أسرع؟ هل يضعف سلطان المصلحة؟ هل أصبح العلم خشية، والصحبة صدقًا، والطاعة بابًا لطاعة بعدها؟

ومن رأى نقصه لم يقعد. يبدأ بالسبب الذي بين يديه، ويستعين بالله، ويعرف أن الهداية لا تعطيه ضمانًا ضد الضعف، بل ترده إلى ربه كلما تقدم. يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، ويقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114]، ثم يثبت صدق الدعاء بفعل ممكن لا يؤجله.

وحين تتحول الأسباب إلى عبادة، لا تبقى الخطوة وحدها كما كانت. يفتح الله بعد الإيمان هدايةً، وبعد التقوى فرقانًا، وبعد العمل تثبيتًا، وبعد المجاهدة سبلًا. وهنا تبدأ الحركة التالية من الكتاب: الهدى لا يقف عند مقدار أول؛ يستجيب العبد لما بلغه، فيزيده الله من العلم والتقوى والبصيرة والثبات ما لم يكن له قبل الاستجابة.

المحور الرابع: سنة زيادة الهدى

عرف العبد أبوابًا أُمر أن يدخل منها على الهدى: إنابةً وتقوى، وإنصاتًا وتدبرًا، وطاعةً ومجاهدةً، وعلمًا وصحبةً وعملًا. غير أن الطريق لا يقف عند فعل السبب. وراء الاستجابة فضل يفتح فضلًا، وهداية تقود إلى هداية، وطاعة يخلق الله في القلب بعدها استعدادًا لطاعة أخرى.

الهداية في القرآن نعمة حية تقبل الزيادة. يتسع بها الفهم، ويشتد التصديق، وينمو الانقياد، وتنزل السكينة، وتؤتى التقوى، ويثبت القلب حين يعلو ثمن الحق. يبدأ العبد بما بان له، ثم يرى من آثار فضل الله ما لم يكن يراه قبل أن يصدق ويعمل.

هذه الحركة لا تتحول إلى معادلة يملك العامل مفاتيحها. الله هدى أولًا، ووفق إلى الاستجابة، ثم يزيد بحكمته ورحمته. والعبد مع ذلك فاعل مسؤول: صدق وقبل وعمل وشكر وصبر. لا طاعته ثمن يوجب على الله صورةً يختارها، ولا افتقاره عذر يبيح له ترك ما أُمر به.

تلوح السنة في خبر فتية قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟﴾ [الكهف: 13–14]. إيمان سبق، وزيادة وهبها الله، وربط ظهر أثره في القيام. تلك الحركة ستكشف في نهايتها معنى الثبات حين يهدد الحق أمن صاحبه ومكانته.

وقبل الكلفة الكبرى يلزم فهم القانون نفسه: ماذا تعني زيادة الهدى؟ وكيف يصير الوحي زيادةً في الإيمان، والسكينة قوةً على التسليم، والشكر حفظًا للنعمة؟ ثم كيف تظهر الثمرة من غير أن يمنح الإنسان نفسه شهادةً بأنه من أهلها؟

الوحدة الرابعة عشرة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]

مستمع يخرج كما دخل

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: 16–17]. مجلس واحد، ورسول واحد، وكلام واحد، ثم يخرج السامعون في اتجاهين.

الفريق الأول بلغته الألفاظ ولم يبلغ بها موضع الانتفاع. استمع حتى انتهى المجلس، ثم سأل أهل العلم سؤال المستهين أو الغافل: ماذا قال قبل قليل؟ لم يكن البعد بُعد أذن، وإنما غياب قلب لم يمنح الكلام وزنه. وختمت الآية وصفهم بالطبع على القلوب واتباع الهوى، فظهر الجزاء الإلهي وعدله، وظهر الفعل الذي اختاروه.

ويقابل السياق بين ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ و﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 16-17]. هناك قلب أعطى الهوى موقع القيادة، وهنا قلب استجاب فأعطاه الله ما يحرسه من الهوى. ليست المسافة بين الفريقين كثرة السماع؛ مركز الحكم الذي انتهى إليه السماع هو الفارق.

الهوى في هذا الموضع لا يقتصر على شهوة ظاهرة. يدخل فيه ميل النفس إلى ما يحفظ صورتها ومصلحتها وانتماءها، ثم طلبها أن يتكيف البيان معه. والتقوى تعيد ترتيب هذه القوى: لا تمحو الرغبات، لكنها تمنعها من أن تكون المرجع الأخير حين يظهر أمر الله.

وفي الجهة الأخرى قال القرآن: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ [محمد: 17]. تجاوز البيان أسماعهم إلى التصديق والقبول والسير. فالهداية السابقة هنا هداية حقيقية أنعم الله بها عليهم، لا مجرد بلوغ الحجة؛ إذ بلغ البيان الفريقين. الذي ميّزهم أن الحق صار جهةً، وأنهم أعطوا ما عرفوه مقتضاه.

ثم جاءت الزيادة: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]. الفاعل هو الله، والزيادة عطية منه. ورتبها النص على استجابة واقعة: اهتدوا. لا استقلال للعبد عن التوفيق، ولا محو لمسؤوليته. هداهم الله، فقبلوا وعملوا بعونه، فزادهم من فضله؛ واجتمعت منة البداية وأمانة السير ورجاء المزيد.

وترتيب الزيادة على الاهتداء لا يجعلها أجرةً مستحقة. القرآن يذكر سببًا شرعيًّا جرت به حكمة الله، ويظل الفضل له من أوله إلى آخره. العبد مأمور أن يستجيب، وموعود أن يرجو، ومحظور عليه أن يقف أمام ربه موقف من أدى ثمنًا وحدد المقابل.

هذه المقابلة تهدم وهم الاكتفاء بالحضور. يسمع المرء القرآن والدرس والنصيحة مرارًا، ثم لا يبقى في قلبه إلا اسم المتحدث أو موضع الخلاف معه أو أثر عاطفي ينطفئ سريعًا. وبعد ذلك يطلب مادةً جديدة، مع أن حقًّا قديمًا ما زال ينتظر خطوة. كثرة البيان لا تعوض غياب الاستجابة.

وفي المقابل يدخل معنى واحد إلى قلب صادق فيعيد ترتيب حياة كاملة. يعرف حرمة مال فيرده، أو يتبين له حق إنسان فيعتذر، أو يسمع وعدًا فيقاوم اليأس. لم يحط بالدين، ولم يبلغ الغاية، لكنه وفّى القدر الذي أضيء له. هنا يجد الهدى منفذًا، ويبدأ رجاء الزيادة.

هدى يفتح طريقًا بعد طريق

قال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 76]. جاءت الآية في مقابلة من مد له الرحمن في الضلالة، ثم ردت الميزان إلى ما يبقى عند الله. أهل الهدى لا يحملون مقدارًا جامدًا؛ يزيدهم ربهم، وتبقى أعمالهم الصالحة حين تزول الزينة التي اغتر بها غيرهم.

الزيادة أوسع من إضافة معلومة. يفتح الله للعبد معنى، فيرسخ به تصديقه، ثم يطالبه المعنى بانقياد، ويصير الانقياد عملًا، ويترك العمل في القلب خبرةً جديدة مع ربه. بهذا تنتظم المعرفة والقصد والجوارح في طريق واحد. أما العلم الذي لا يقترب من موضع الحكم، فيبقى نعمةً ناقصة الشكر مهما اتسع مخزونه.

ويتضح أثر العمل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66-68]. فعل الموعظة خير، ويأتي بعده تثبيت وأجر وهداية من لدن الله. الطاعة لا تنتهي عند لحظتها؛ تحمل أثرًا إلى ما بعدها.

يطيع العبد في موضع يخافه، ثم لا يبدأ الموقف التالي من الصفر. صار في قلبه شاهد عملي على أن الوعد أصدق من التهديد، وأن الاعتراف لا يهدمه، وأن ترك الحرام يمكن احتماله. هذا الرسوخ من خلق الله، ويحتاج إلى شكر وسؤال، لكنه أثر حقيقي لطاعة سبقت.

وفي الحديث القدسي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الله تعالى: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» رواه البخاري (6502). يبدأ القرب من الفرض الذي بان، ثم يمتد بالمداومة على النوافل، والفضل كله ينتهي إلى محبة الله لعبده.

لا يمنح الحديث العامل حقًّا على ربه، وإنما يرد الحركة كلها إلى العبودية والفضل. الفرائض مقدمة، والنوافل امتداد، والمداومة فعل العبد بعون الله، والمحبة عطية يهبها سبحانه. من طلب مقامًا عاليًا وهو يترك واجبًا واضحًا قلب ترتيب الطريق؛ ومن حفظ الفرض ثم داوم على القرب رجا فضلًا لا يملكه لنفسه.

في هذا الحديث تصحيح لنزعة تحب الأعمال البعيدة عن موضع التكليف القريب. يختار الإنسان نافلة توافق طبعه، ويؤجل فرضًا يطالبه بحق أو أمانة؛ فيكثر القرب الذي اختاره ويترك القرب الذي أحبه الله أولًا. سنة الزيادة تبدأ من الوفاء بما افترضه، ثم تتسع بالنوافل.

ومحبة الله لعبده ليست مجرد شعور يكتشفه في نفسه. يظهر أثرها في تسديده وحفظه ومعونته كما يكمل الحديث، وكل ذلك يرد العامل إلى مزيد من الشكر والخوف. كلما ذاق أثر القرب عرف أن النعمة أسبق من عمله وأوسع منه.

وهذا التسديد لا يعني عصمة الولي من الخطأ، ولا أن خواطره تصير وحيًا. يظل محتاجًا إلى النص والعلم والمراجعة والتوبة. أثر القرب أن يوفقه الله في سمعه وبصره وحركته إلى ما يحبه، لا أن يخرجه من حدود البشرية والتكليف.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]. سبق النظر إلى المجاهدة بوصفها سببًا مأمورًا؛ وهنا يظهر ما بعدها: سبل يفتحها الله. يجاهد العبد في واجب يعرفه، فيهيئ الله له علمًا أو صحبةً أو فرصة إصلاح، أو يكشف له واجبًا آخر ما كان يلتفت إليه.

لا يختار السائر شكل الفتح. ربما جاءه فهم أعمق، أو قوة على الثبات، أو انكشاف عيب كان مستورًا عنه. والنور الذي يكشف الداء زيادة، وإن آلم صاحبه؛ لأن الجاهل بمرضه آمن لنفسه، والمبصر به أقدر على التوبة. ليست كل زيادة شعورًا مريحًا، ولا كل ضيق علامة حرمان.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: 9] دلالة مباشرة على هدايتهم في مآلهم إلى جنات النعيم. ويوافق تركيب الآية أصل الطريق كله: رب يهدي، وإيمان جعله سببًا، وعمل صالح يشهد لصدق الاستجابة. تبدأ الصلة في الدنيا، ويبلغ فضلها بالعبد غايته.

من هنا لا تقاس الزيادة بكثرة الخواطر، ولا يزعم صاحبها أن كل ما يقع في نفسه نور. ميزانها الوحي، وأثرها الأصدق أن يصبح الحق أوضح حكمًا، والطاعة أقرب فعلًا، والرجوع أسرع إذا ظهر الخطأ. وما غمض رده إلى العلم والمشاورة؛ فالزيادة تقوي العبودية ولا تلغيها.

ويحسن هنا التفريق بين فتح يوسع فهم النص وفتح يهيئ القلب للوفاء به. يعرف المرء الدلالة معرفة صحيحة ولا يجد في نفسه قوة التنفيذ، فيكون مزيده ثباتًا وصبرًا. ويكون مستعدًّا للعمل محتاجًا إلى بيان أدق، فيفتح الله له باب علم. الهدى يجمع الأمرين ولا يحصرهما في صورة واحدة.

﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 17]

لم تقف آية محمد عند زيادة الهدى، بل قالت: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 17]. تدور عبارات المفسرين على أن الله وفقهم لما به يتقون، وأعطاهم من التقوى ما يصون سيرهم ويصلحهم. الإيتاء هبة، والتقوى عمل قلب وجوارح؛ يجتمع فضل الله وفعل العبد في لفظ موجز.

يكشف العطف أن المزيد لا يبقى في دائرة الفهم. هدى يتسع، وتقوى تحرسه. يعرف الإنسان الحق، ثم يحتاج إلى قوة تمنعه من بيعه عند المصلحة؛ ويعرف خطأه، ثم يحتاج إلى تواضع يعترف به؛ ويحب الطاعة، ثم يحتاج إلى إخلاص يحميها من الرياء. العلم بلا حراسة يظل معرضًا لأن يتحول إلى حجة على صاحبه.

وإيتاء التقوى لا يسقط الأمر بها. القرآن يقول للعبد: اتق الله، ثم يخبره أن الله يؤتي أهل الهدى تقواهم. يترك المحرم، ويؤدي الواجب، ويجاهد داعيه؛ والله يوفقه ويعينه ويثبت أثر العمل. من نسب النجاة إلى قوة إرادته غفل عن الإيتاء، ومن انتظر التقوى من غير مجاهدة أعرض عن الأمر.

وتظهر التقوى في المواضع التي لا يراها الناس. يحذف الباحث عبارةً أوسع من الدليل مع أنها تزيد إعجاب القراء، ويغلق التاجر بابًا لا يكتشفه المراقب، ويعدل المرء في رواية خصومة أمام من يثق به. هناك يتبين أن الهدى بدأ يحكم، وأن التقوى تجاوزت الاسم إلى الفعل.

وكلما صحت الزيادة ازداد صاحبها بعدًا عن تزكية نفسه. الذي آتاه الله تقواه يعرف قربه من الضعف لولا المعونة، فلا يحتقر المتعثر، ولا يروي ثباته كأنه خاصية في معدنه. الثمرة التي تزيد العجب تحتاج إلى مراجعة؛ فالزيادة القرآنية ترد النعمة إلى واهبها، وتزيد القلب افتقارًا إليه.

لهذا يبقى المهتدي خائفًا على ما أُعطي من غير قنوط. لا يحمل هدايته الماضية ضمانًا، ولا يعيش مذعورًا من كل خاطر. يشكر ما ظهر من النعمة، ويحرسها بالطاعة، ويسأل تمامها، ويعلم أن الله الذي أعطاه التقوى قادر أن يزيده وأن يثبته.

والمقارنة بالناس تحجب رؤية النعمة الخاصة. يفتح الله لغيره في علم لم يفتح له، ويمنحه هو صبرًا أو توبةً أو خفاء عمل. من جعل صورة واحدة معيارًا للزيادة جحد وجوهًا من الفضل، وربما حسد عبدًا على باب وُضع عليه من المسؤولية ما لا يراه.

ما عرفتَه يطلب منك خطوة

يحب الإنسان أحيانًا أن تبقى الهداية في صورة بحث لا ينتهي. يسأل عن تفصيلات بعيدة، وينتقل بين الأقوال، ويترك أصلًا واضحًا يطالبه الآن. للبحث حقه، والتثبت عبادة، غير أن صدقهما يظهر في سؤال واحد: ما القدر الذي اتضح، وما الذي صنعته به؟

وقد يعرف حقًّا قريبًا لا يحتاج إلى مزيد بحث: صلاةً يكرر إخراجها عن وقتها، أو رحمًا يعلم أنه قطعها بغير حق، أو أمانةً وعد بإنجازها ثم طال تسويفه. ثم يطلب لنفسه مشروع إصلاح كبيرًا قبل أن يبدأ بهذا القدر الواضح. هنا يصبح اتساع الخطة ستارًا لبساطة الخطوة الأولى.

سنة الزيادة تعيد ترتيب السؤال. بدل الاعتراض: لماذا لم يفتح لي أكثر؟ ينظر العبد في أمانة الفتح الأول. لا يحكم على نفسه بالحرمان، ولا يتهم ربه، ويواصل التعلم فيما غمض؛ لكنه يمنع المجهول من أن يكون ستارًا لترك المعلوم.

وليس كل تردد مراوغة؛ فمن المسائل ما يحتاج إلى جمع نصوص، ومن الوقائع ما لا يعرف حكمه حتى تحرر حقيقته. الأمانة أن يميز الإنسان بين جهل حقيقي يسأل عنه، وبين وضوح يخشاه فيضاعف حوله الأسئلة. هذا التمييز نفسه يحتاج إلى صدق ودعاء ومراجعة أهل العلم.

ويظهر الفرق في السلوك أثناء البحث. طالب البيان الصادق يحفظ ما اتفق عليه، ويكف عن المحرم المتيقن، ويعرض الواقعة كاملة، ويقبل الجواب إذا استقام دليله. أما من يريد التأجيل فيحذف ما يدينه، وينتقل بين الأجوبة، ويستعمل الخلاف في الجزئيات لهدم أصل واضح.

فتية الكهف لم يعرفوا تفاصيل ما سيجري حين آمنوا، ولم يملكوا ربط القلوب ولا نشر الرحمة في الكهف. صدقوا، وقاموا، ولجؤوا؛ فأجرى الله عليهم من فضله ما لم يكن في حسابهم. يتحرك العبد في الضوء الذي عنده، ويستقبل المزيد من واهبه.

ولا يقلب الوعد إلى ضمان لصورة محددة. عمله لا يوجب انشراحًا عاجلًا، أو جوابًا يختاره، أو منزلةً يحدد وقتها. تأتي الزيادة على وفق الحكمة: فهمًا، أو صبرًا، أو كشفًا لتقصير، أو بابًا من المسؤولية. يرجو وعد الله، ويتأدب مع اختياره.

كما لا يجعل الشعور ميزانه الوحيد. يؤدي طاعة ويجد بعدها تعبًا، بينما ينمو في داخله ثبات هادئ. ويرتاح إلى قرار لأنه وافق هواه، مع أن الراحة لا تهديه. الميزان نص صحيح، وفهم معتبر، وأثر ممتد في العمل. بعض النور مؤلم لأنه ينزع من النفس حجةً أحبتها.

ابدأ بمعنى شرعي يطالبك الآن: حق تؤديه، أو ذنب تتركه، أو اعتذار تبادر إليه، أو عبادة تحفظ وقتها. لا تنتظر اجتماع الدوافع كلها. اعمل بما تستطيع، واستعن بمن هداك إلى أصل الحق أن يزيدك فهمًا وتقوى وثباتًا.

ما الحق الذي تطلب فيه مزيد بيان، مع أن القدر المعلوم منه لم يتحول بعد إلى عمل؟

سمِّه من غير تجميل. إن احتاج إلى سؤال فاسأل، وإن احتاج إلى ترتيب فرتب، وإن بان وجهه فابدأ. تقول الخطوة الصادقة بلسان الحال: يا رب، هذا ما بلغني من هداك، فوفقني إليه وزدني من فضلك.

وحين يستقر قانون الزيادة ينفتح سؤال صورها: كيف يصير الوحي تصديقًا أرسخ، وكيف تنزل السكينة في واقعة شاقة، وكيف تبلغ المحبة موضع الاختيار، وكيف يحفظ الشكر نعمةً اعتادها القلب؟

الوحدة الخامسة عشرة: كيف يزيد الإيمان والهدى؟

سورة تنزل فتزيد قلبًا

سبق في الوحدة السادسة ورود هذه الآية لبيان اختلاف أثر السورة الواحدة في قلبين، وتعود هنا بوظيفة أخرى: بناء سنة زيادة الإيمان في القلب المستجيب. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]. فالوحي واحد، والمؤمنون يحملون إيمانًا سابقًا، ثم يقع بالنزول الجديد نمو حقيقي في ذلك الإيمان.

تحمل السورة خبرًا يضاف إلى ما صدقوا به، أو حكمًا يفتح موضعًا جديدًا للانقياد، أو وعدًا ووعيدًا يعيدان وزن الدنيا والآخرة. يصدق المؤمن ما بلغه، ويقبل مطالبه، ويضم العمل الجديد إلى سيره؛ فتزداد معرفة القلب ويقينه ومحبتُه وخوفه ورجاؤه وانقياده.

لهذا قال النص: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: 124]. المعلومة تدخل في الزيادة، لكنها لا تستوعبها. الإيمان عند أهل السنة قول واعتقاد وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وتتفاوت مراتبه في القلوب. هذا المعنى يفسر حركة الآية من غير استطراد في الجدل والمصطلحات.

وختمت الآية بالاستبشار. لا يلزم أن تحمل السورة ما يوافق راحة النفس؛ تحمل أحيانًا تكليفًا ثقيلًا أو كشفًا لخلل موجع. يفرح المؤمن لأن ربه لم يتركه في العمى، ولأن باب الإصلاح ما زال مفتوحًا. ألم المراجعة يقع داخل رحمة البيان.

وتدخل الآية المألوفة في هذا الباب. يعود الإنسان إلى نص حفظه، وقد تغيرت حاجته وموقعه، فيرى من دلالته ما كان غائبًا عنه أو يدرك موضعًا جديدًا لامتثاله. لا يخلق معنى من تجربته، بل يستقبل هدى النص نفسه بقلب صار أصدق سؤالًا وأوسع استعدادًا للعمل.

أما الألفة التي لا تحرك قرارًا فتحتاج إلى يقظة. يعرف المرء مواضع الوقف وأقوال المفسرين، ثم لا تقترب الآية من غضبه أو ماله أو عدله. التلاوة والعلم نعمتان عظيمتان، وشكرهما أن يصل النور إلى الموضع الذي من أجله نزل: القلب الذي يصدق، والجوارح التي تستجيب.

سكينة تنزل من عند الله

قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4]. نزلت السكينة في سياق الحديبية، حيث خرج المؤمنون يريدون العمرة، ثم واجهوا المنع وشروطًا ثقلت على نفوس منهم.

لم تكن الزيادة في ذلك اليوم درسًا هادئًا بعيدًا عن الامتحان. بدا ظاهر الصلح دون ما رجوه، وتأخر الدخول إلى مكة، واختلط على بعضهم وجه الحكمة. في هذا الموضع أنزل الله السكينة؛ فاستقرت القلوب تحت حكمه، وحملت ما لم تكن تملك حمله بقوتها المجردة.

السكينة فعل إلهي صريح: ﴿أَنزَلَ﴾ [الفتح: 4]. الأسباب المباحة في تهدئة النفس نافعة، لكن السكينة القرآنية أعمق من تمرين نفسي. يخلق الله في القلب طمأنينةً وثباتًا، ويرده إلى وعده وأمره، حتى لا يدفعه اضطراب الواقع إلى نقض العبودية.

السكينة لا تلغي السؤال؛ تمنع السؤال من أن يصير اعتراضًا.

قد يبقى وجه الحكمة خفيًّا، ويبقى الألم حاضرًا، وتحتاج الواقعة إلى تشاور وتدبير. ومع ذلك يعرف المؤمن أين يقف: يقبل حكم الله ورسوله، ويمنع الخوف من أن يسوقه إلى الحرام، ويؤدي ما عليه في المساحة التي يراها. يهدأ مركز القلب، وإن ظلت أطراف التجربة مضطربة.

وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: 4] يثبت إيمانًا قائمًا ثم يضيف إليه امتحانًا جديدًا. عرفوا ربهم وصدقوا رسوله، ثم جاء موقف يحتاج إلى تسليم لم يختبروه بهذه الصورة. أنزل الله ما حمل الإيمان من أصل محفوظ إلى ثبات عامل داخل واقعة شاقة.

ويظهر عمق الزيادة حين لا تتغير الواقعة سريعًا. الطريق ما زال مغلقًا، والشروط ما زالت ثقيلة، ومع ذلك يتغير القلب الذي يستقبلها. السكينة لا تستمد صدقها من زوال المانع، وإنما من بقاء العبد تحت أمر الله حتى قبل أن يرى الفتح الذي ستكشفه الأيام.

وفي هذا تصحيح لمن يربط الطمأنينة بحصول ما يريد. قد تتحقق أمنيته ويبقى القلب مضطربًا لأنه عبد النتيجة، وقد يتأخر المراد وينزل عليه من السكون ما يجعله أوثق بربه. الزيادة تقع في القلب أولًا، ثم تأتي الأحداث أو لا تأتي بالصورة التي اختارها.

بهذا المعنى لا تقاس السكينة بانعدام الحزن أو القلق البشري. خاف الأنبياء، وحزن الصالحون، واضطربت النفوس في الشدائد. العلامة أن يبقى القرار موصولًا بالله: ترتجف الجوارح ولا تباع الأمانة، وتدمع العين ولا يتحول الحزن إلى سخط، ويطلب الإنسان العلاج والمشورة وقلبه متعلق بمن يملك الشفاء والتدبير.

وقد تكون السكينة قدرةً على الانتظار. تستعجل النفس جوابًا أو نصرًا أو انكشافًا، فإذا تأخر جعلت التأخر تهمةً للطريق. ينزل الله على القلب ما يوسّع زمنه، فيحتمل أن يرى بعض الحكمة الآن ويؤجل بعضها، وأن يعمل اليوم من غير ضمان للمشهد الذي سيأتي غدًا.

وتكون أحيانًا حفظًا للسان. يشتد الموقف، فتتسابق الكلمات التي تهدم ما بناه الإيمان في سنوات. يمنح الله عبده وقفةً لا يملكها الغضب وحده، فيزن ما يقول، أو يصمت حتى يرى. لا تبدو هذه الزيادة بطولية للناس، لكنها قد تنقذ قلبًا وعلاقةً وحقًّا من أثر لحظة منفلتة.

وتظهر السكينة كذلك في قبول القرار الشرعي بعد استنفاد النظر. يبذل الإنسان وسعه في السؤال والمشاورة، ثم يصل إلى موضع لا تزيده المراجعة إلا دورانًا. هناك يحتاج إلى قلب يمضي متوكلًا، مستعدًّا للتصحيح إذا بان خطؤه، من غير أن يحول التواضع إلى عجز دائم عن الفعل.

وقد تظهر في اجتماع القلب بعد تشتته. تتنازعه الخسارة ونظر الناس وخوف المستقبل، ثم يرد الله الأشياء إلى مراتبها: هذا تكليف، وهذه مصلحة، وذلك خوف، وفوق الجميع رب عليم حكيم. لا تختفي العناصر، لكن أحدها لا يعود قادرًا على ابتلاع البقية.

وختم الآية بملك الجنود والعلم والحكمة يرد السكينة إلى مصدرها. الذي أنزلها لا يعجزه ما يخيف عباده، ويعلم ما في القلوب وما يصلحها، ويضع الفتح والمنع في مواضعهما. يستحضر المؤمن هذه المعاني كي يثق بتدبير ربه، لا كي يفرض على الأحداث الصورة التي يتمناها.

ومن السنة ما يرسخ الافتقار في قلب هذه الزيادة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثم قال: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». رواه مسلم (2655).

لا يدعو الحديث إلى قعود قلب لا مسؤولية له. الرسول صلى الله عليه وسلم جمع تقرير سلطان الله على القلوب مع الدعاء بصرفها إلى الطاعة. يقرأ المؤمن ويجاهد ويعمل، ويعرف في أثناء ذلك أن ثباته عطية. كل زيادة صحيحة تفتح باب سؤال جديد: لا تكلني إلى ما عرفت أو فعلت.

حلاوة الإيمان: حين يعاد ترتيب المحبة

قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». رواه البخاري (16)، ومسلم (43)، واللفظ للبخاري.

الحلاوة أثر يذوقه القلب، وربطها الحديث بثلاث حركات عملية: محبة تقدم الله ورسوله، وصلة تنشأ لله، ونفور من الرجوع عن الإيمان. ليست لذة عائمة تمنح صاحبها حكمًا على نفسه، وإنما ثمرة لترتيب عميق في الولاء والاختيار والوفاء.

حين تكون محبة الله ورسوله أعظم لا تموت المحاب البشرية. يظل الإنسان محبًّا لأهله وراحته وعمله ومكانته، لكن هذه المحاب تبقى في مراتبها. فإذا جاء أمر الله منع واحدةً منها من أن تتحول إلى حاكم أعلى. هنا تظهر الزيادة: يثبت الحق في أعلى الميزان، وإن ثقل الانتقال إليه.

وقد يبدأ الامتثال قبل الحلاوة المحسوسة. يترك المؤمن حرامًا وقلبه متعلق به، أو يحفظ فرضًا وهو يجاهد الفتور، أو يرد حقًّا ويجد مرارة الخسارة. صحة العبودية لا تتوقف على لذة عاجلة. يمضي لأن الله أمره، ويرجو أن يفتح له من الأنس والمحبة ما يجعل الطاعة بعد ذلك ألين على قلبه.

ثم تترك الطاعة ذاكرة إيمانية. مرّ العبد بخوف فلم يبع الحق، وبشهوة فتركها، وبخطأ فاعترف. حين يأتي امتحان جديد لا يدخل إليه خالي اليدين؛ يحمل خبرةً بأن معونة الله أدركته، وأن ما خافه لم يكن إلهًا، وأن الألم عبر وبقي أثر الصدق. هذه الذاكرة من صور زيادة الإيمان.

ومع تكرار الصدق يتبدل مذاق بعض الأشياء. ما كان يبدو حرمانًا صرفًا يصير باب نجاة، وما كان الاعتراف به مهانةً يصير خفةً من حمل الكذب، وما كان حفظ الصلاة عبئًا يصير موضع رجوع. لا تنقلب الطباع كلها، لكن القلب يبدأ في تذوق المعنى الذي أخبر به الحديث.

هذه الحلاوة لا تستخرج بالإلحاح على الشعور. تنشأ من صدق المحبة والاتباع، وقد يخفيها الله عن العبد زمنًا ليصحح قصده أو يربيه على العبادة من غير عوض عاجل. يطلبها راجيًا، ولا يجعل غيابها حجةً على ترك ما علم أنه حق.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**» ينقل الزيادة إلى شبكة العلاقات. لا يعود القرب قائمًا على المنفعة والإعجاب وحدهما؛ يدخل فيه معنى يعمر بعد تغير المصالح. يحب في صاحبه إيمانه وصدقه، وينصحه إذا أخطأ، ولا يحول المحبة إلى عصبية تعميه عن الحق.

أما كراهة الرجوع في الكفر فتدل على أن الإيمان أعاد تعريف النجاة والخسارة. الذي ذاق الهدى يرى البعد عنه نارًا، ولو زينته المصلحة أو ألبسته الجماعة اسم التقدم. هذا النفور لا يمنحه العصمة، لكنه يجعل العودة إلى الباطل غربةً عن أعمق ما عرفه من الحق.

وتنمو التقوى في داخل هذا الترتيب. كلمة ظلم كان يراها مهارةً تبدأ تؤلمه، وتساهل في الأمانة كان يسميه عرفًا يصبح موضع خوف، ورياء لطيف كان يراه تحفيزًا ينكشف له. لا يصنع حسه المرهف دينًا جديدًا، بل يرده إلى العلم؛ فيتوب مما ثبت، ويتوقف عما التبس، ويحذر الوسواس كما يحذر الغفلة.

ويمتد أثر الإيمان إلى زمن القرار. تحاصر النفس الضعيفة صاحبها في لذة الآن وخسارة الآن ونظر الناس الآن. وكلما رسخ خبر الآخرة دخل المآل في الحساب: ترك الحرام مكسب وإن نقص المال، والاعتراف رفعة وإن اهتزت الصورة، والصبر نجاة وإن طال الطريق.

وحين يدخل المآل في الحساب يخف سلطان التصفيق واللوم. لا يصبح الإنسان عديم الإحساس بنظر الناس، لكنه لا يسلّمهم مفتاح قيمته. يستطيع أن يخسر إعجابًا عاجلًا ويحفظ صدقه، لأن خبر الآخرة لم يعد فكرةً بعيدة؛ صار قوةً تشارك في وزن القرار.

ويثمر النمو تواضعًا؛ فكل فتح يكشف مقدار الجهل السابق، وكل طاعة تذكر صاحبها بمن حُرمها وبقربه هو من الحرمان. العلم الذي يرفع صاحبه فوق الناس لم يكتمل أثره، والعمل الذي يورث احتقار المتعثر يحتاج إلى توبة. حلاوة الإيمان تليّن حاملها للحق ولا تجعله مأخوذًا بنفسه.

ومع تفاوت الإيمان لا يسير القلب في خط شعوري صاعد كل يوم. يعتريه فتور، ويضعف في باب، ويحتاج إلى استدراك. بقاء أصل الاتجاه مع التوبة لا يناقض الزيادة؛ فالزيادة نفسها تُحفظ بالتجديد. الخلل أن يجعل الهبوط عذرًا لترك الطريق، أو يجعل ارتفاعًا سابقًا ضمانًا للمستقبل.

لهذا ينظر المؤمن إلى ما كلف به أكثر مما يراقب درجات خفية في داخله: صدق في الخبر، وامتثال في الأمر، وتوبة عند الزلة، ودعاء للثبات. يشكر ما يجده من حلاوة، ولا يعبدها؛ ويثبت إذا غابت، ولا يتهم الطريق لأن نفسه لم تذق في كل وقت ما تحب.

شكر الهداية من جنسها

الهداية نعمة، والنعمة تستدعي الشكر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]. الآية أصل عام في زيادة النعم، ولا تجعل وحدها دليلًا خاصًّا على كل صورة من زيادة الهدى. لكنها تضع الهدى داخل عبودية الشكر: اعتراف بالمنعم، وعمل بمقتضى النعمة، وحفظ لها من الجحود.

يبدأ الشكر بنسبة الهداية إلى الله. البيئة الصالحة والعلم والصحبة أسباب كريمة، وهي نفسها منن ساقها الله. لا يقول المرء في باطنه إن ذكاءه أو صفاء معدنه ضمن له الطريق. حين يرى الفضل سابقًا عليه يزول عنه احتقار المتعثر، ويزداد خوفه من أن يوكل إلى نفسه.

ثم يصير الحمد عملًا من جنس ما أُعطي. من عرف حكمًا في المال يشكر بنزاهة ماله، ومن أبصر خطأه يشكر بالرجوع، ومن فُتح له باب علم يشكر بتعليم أمين وتواضع، ومن نجا من عادة يغلق منافذها. اللسان يعلن المنة، والجوارح تحفظ صدق الإعلان.

وشكر الهدى يشمل صيانته من المعصية. الزلة لا تسلب المؤمن أصل هدايته بمجردها، لكن الإصرار يثقل القلب ويضعف الانتفاع. يحذر صاحب النعمة كبرًا يحول العلم إلى سلطة، وشهوةً تشتري الفتوى، وصحبةً تعيد المنكر مألوفًا، ثم يبادر إلى التوبة إذا وقع.

ويدخل في الشكر أن يدل غيره على الخير من غير استعلاء. ينقل ما علمه بصدق، ويدل على أهله فيما يجهل، ويريد وصول الحق أكثر من اتساع جمهوره. الدعوة شكر حين يبقى المدعو عبدًا لله، وتفسد حين يصير عدد الأتباع مرآةً يثبت بها الداعية لنفسه أنه من أهل الهدى.

وتطفئ الألفة بعض الشعور بالمنة. ينشأ المرء على الصلاة والقرآن، فيصير ما حُرم منه غيره خلفيةً صامتة. استعادة الشكر لا تحتاج إلى انفعال مصطنع، تحتاج إلى نظر صادق في الطرق التي كان يمكن أن يسلكها، وفي الأشخاص والكتب والمواقف التي ساق الله بها إليه الخير.

ومع ذلك لا يتحول الشكر إلى عقد مطالبة: شكرت، فيجب أن تأتيني الزيادة التي اخترتها. يشكر لأن الله يستحق الحمد ولأن العبادة حق، ويرجو الوعد العام، ويقبل حكمة العطاء. تأتي الزيادة أحيانًا صبرًا بدل الراحة، أو كشفًا لتقصير، أو مسؤوليةً أثقل من الشهرة التي تمناها.

حدد نعمة هداية بعينها: فهمًا أصلح علاقة، أو توبةً من ذنب، أو سنةً تعلمتها، أو شخصًا ساقك الله على يده إلى خير. ثم اجعل لها شكرًا مناسبًا في أيامك: ثباتًا، أو إصلاحًا لأثر قديم، أو تعليمًا أمينًا، أو حمايةً من باب يهددها.

هل شكرك للهداية يزيدك طاعة، أم تحولت معرفتك إلى أمر مألوف لا يغير فيك شيئًا؟

لا تؤخذ الإجابة من ساعة حماس. ينظر إلى المسار: هل صارت النعمة عملًا وتواضعًا وافتقارًا؟ هناك تبدأ الثمار في الظهور. غير أن الثمرة نفسها تحتاج إلى ميزان، فقد يظن الإنسان معلوماته أو راحته أو نجاحه علامةً على الهدى، بينما المحك أعمق من ذلك كله.

الوحدة السادسة عشرة: محك اتجاه القلب وثمار الهداية

حين يدخل الحق من غير اختناق

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: 125]. شرح الصدر فعل لله، وأثره أن يجد الإسلام في القلب موضع قبول واتساع. تبقى مجاهدة النفس، ويثقل بعض التكليف، لكن أصل الانقياد لا يتحول إلى اختناق دائم كلما خالف الوحي رغبةً أو عادة.

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22]. جمع النص انشراح الداخل ونور الطريق. الارتياح النفسي وحده لا يكفي، والمعلومة التي لا يقبلها القلب لا تبلغ غايتها. ثمرة الهدى تجمع ضياء الوحي وقلبًا مستعدًّا لأن يُقاد به.

وقد ينشرح الصدر لأصل الحق مع بقاء باب مخصوص شديدًا عليه. يحب العدل في الجملة، ثم يضيق به حين يكون الحق لخصمه؛ ويجب التواضع، ثم تثقل عليه مراجعة قول اشتهر به. لذلك لا يعتمد على انشراح سابق، وإنما يسأل الله أن يفتح كل موضع يصل إليه التكليف.

يظهر الانشراح في قصر المسافة بين البيان والتسليم. كان المرء يمضي أيامًا يحمي صورته، ثم صار أسرع إلى الاعتراف. وكان يضيق بكل من يحمل نصًّا يخالفه، ثم تعلم أن يفرق بين ألم التكليف والاعتراض على حكم الله. انتقلت المعركة من مقاومة الحق إلى طلب العون على امتثاله.

هذا التحول لا يجعل صاحبه سريع التأثر بكل قول منسوب إلى الدين. شرح الصدر يعمل مع العلم: يثبت النص، ويفهم دلالته، ويسأل فيما يجهل، ثم لا يتخذ التثبت طريقًا بلا نهاية. القلب المنشرح لا يبتلع الدعوى، ولا يغلق الباب حين يظهر البرهان.

بهذا تعمل أدوات الفهم تحت نور العبودية. يجمع الأدلة ويراجع السياق ويعرف الواقع، ثم يسمح للنتيجة أن تغيره. وإذا طال البحث بقي قلبه مؤدبًا: لا ينسب إلى الله ما لم يتبين، ولا يجعل غياب اليقين الكامل عذرًا لترك القدر المحكم.

وتكشف آية الاستماع أثرًا ملازمًا للهدى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 18]. يبلغ السماع غايته حين يصير اتباعًا؛ فمقدار ما دخل الحق في الحياة أصدق من مقدار ما بقي منه في الذاكرة.

لا يلزم أن يقع التغيير كاملًا في يوم واحد. بعض العادات متجذر، وبعض الحقوق يحتاج إلى ترتيب، وبعض النفوس تطول مجاهدتها. الفرق يظهر في الحركة: خطوة حقيقية، وتناقص في التبرير، وعودة بعد التعثر. البطء مع صدق السير طريق، أما السكون الذي يستعير اسم التدرج فحجاب مهذب.

ويتجلى الانشراح عندما يأتي الحق من جهة لا تحبها النفس. يبقى ألم أن يكون المخالف مصيبًا، لكن الألم لا يسقط الدليل. كل مرة يختار فيها الإنسان الصواب على انتصاره لنفسه تتسع في قلبه مساحة العبودية، ويضعف سلطان الجماعة والخصومة والمكانة.

لا تصدر هذه العلامة شهادةً نهائية. ينشرح القلب في باب ويضيق في آخر يمس مصلحةً أعمق، ويستجيب اليوم ثم يحتاج غدًا إلى توبة. فائدتها أن تكشف الاتجاه: هل صار الحق أقدر على الدخول، أم صارت النفس أقدر على صياغة الأبواب التي تمنعه؟

نور يكشف النفس قبل أن يكشف الطريق

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الحديد: 28]. النور في الآية حركة؛ يمشي به صاحبه. يدخل القرار والوجهة وطريقة رؤية المصلحة والخسارة، ولا يبقى زينةً روحيةً يصف بها نفسه.

قد يرى بهذا النور الفرق بين عذر صادق وتبرير، وبين رحمة تحفظ الحق ولين يضيعه، وبين نصيحة تريد النجاة وخصومة تريد الغلبة. لا يمنحه ذلك عصمةً من الخطأ؛ يمنحه قابليةً أكبر للمراجعة. ومن ظن كل خاطر بعد الطاعة نورًا احتاج إلى نور يكشف غروره.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]. يعود الفرقان هنا ثمرةً ضمن مسار الزيادة: قدرة يمنحها الله على الفصل بين ما يلتبس، مع مغفرة تذكر العبد بحاجته.

الفرقان الذي يصدق أثره يبدأ من داخل صاحبه. يرى ميله قبل أن يفسر ميل خصمه، ويكتشف المصلحة التي تضغط على فهمه، ويعترف بحدود علمه. من ازداد قدرةً على كشف الناس وظل أعمى عن نفسه لم يبلغ من الثمرة ما يتوهمه.

ومعرفة النفس هنا لا تعني اتهامها في كل خاطر أو احتقارها. المقصود أن يعرف المرء مواضع ميلها، فيضعها تحت المراقبة الشرعية ويستعين بالله عليها. الفرقان يورث بصيرةً عادلة: لا يزكي النفس، ولا يسحقها، وإنما يحملها على الصدق والتوبة.

لهذا يورث الهدى تواضعًا. كلما فتح الله معنىً انكشف قدر من الجهل السابق، وكلما وفق لطاعة تذكر العبد قربه من الضعف لولا المعونة. يحمل الحق بثبات، ولا يحوله إلى منصة يرى منها الناس دونه. الأمانة أقوى من الاستعلاء، والخوف على النفس أصدق من الثقة بمعدنها.

ويظهر النور عند الزلة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]. لم تنف الآية وقوع الخطأ، وإنما كشفت سرعة الذكر والاستغفار وترك الإصرار.

القلب المتجه إلى الهدى لا يبني من الذنب بيتًا يسكنه. يسميه، ويطلب المغفرة، ويرد الحقوق بحسب استطاعته، ويعود. يتكرر ضعفه أحيانًا، غير أن كل عودة تقاوم تحول الزلة إلى هوية. طول الدفاع حتى يبرد ألم المعصية علامة أخطر من وقوعها الأول.

وسرعة التوبة لا تقاس بانفعال الندم وحده. تظهر في قطع السبب الممكن، ورد المظلمة، وطلب العون، وتجديد العمل الصالح. من بكى ثم أبقى أبواب الذنب مفتوحة لم يكمل مقتضى الذكر، ومن أصلح ما يستطيع ولو بقي ألمه فقد دخل طريق العودة.

ثم وعد الله هؤلاء بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: 136]. سماهم عاملين مع ذكر زلتهم؛ لأن التوبة عمل، وترك الإصرار عمل، والطريق لا يختزل في لحظة سقوط.

ويمتد النور إلى افتقار لا ينقطع. إذا رأى المرء أثرًا صالحًا قال: هذا من فضل ربي، وسأل الثبات. ولو تحولت الثمرة إلى أمان من التقلب، صارت النعمة مدخل فتنة. المهتدي لا يعيش مشلولًا بالخوف، لكنه لا يمنح ماضيه حق ضمان المستقبل.

وتصبح الطاعة التالية أقرب، فقد صار للقلب ممر مألوف إلى الامتثال. من صدق في مواقف صغيرة يتهيأ لصدق أكبر، ومن اعتاد رد الحقوق يقل احتياجه إلى المراوغة. هذه السهولة النسبية لا تعني الاستغناء عن المجاهدة، وإنما تكشف أثر رحمة تراكمت مع الاستجابة.

ويحرس الشكر هذا كله. يذكر العبد النعمة ليعترف بالمنعم ويجدد العمل، لا ليعلن تفوقه. ويصبر على من لم يصل إلى ما وصل إليه؛ فهو يعلم أن الفتح هبة، وأنه كان قبلها في موضع يحتاج من يرفق به ويدله.

الهداية في ميزان الناس

لا تبقى ثمرات الهدى حبيسة علاقة الإنسان بنفسه. تظهر في ميزانه حين يختلف ويخاصم. من امتلأ قلبه بنور الوحي صار أقدر على قبول الحق من غيره، وعلى الفصل بين صحة الكلام وحال قائله، وعلى رد الباطل من غير أن يسقط إنسانية صاحبه.

قبول الحق من المخالف يمتحن التواضع والفرقان معًا. يستطيع المرء أن يرد كلمة صحيحة كي لا يمنح خصمه فضل الإصابة، أو أن يقبلها ثم يتحول إلى تابع له في كل شيء. الهداية تضبط الطرفين: تقبل الصواب بميزانه، وتنكر الخطأ بميزانه، ولا تجعل الخصومة مرجعًا للحقيقة.

وأشد من قبول الكلمة في الباطن أن يصحح الإنسان أثر خطئه أمام من بلغه. قد يعترف لنفسه ثم يترك طلابه أو أهله على معلومة نقلها إليهم؛ لأن التصحيح العلني يمس صورته. ثمرة الهدى أن يحمل أمانة الإصلاح بقدر انتشار الخطأ، من غير استعراض للانكسار.

ويظهر أثرها في العدل. يروي الإنسان النزاع بحيث لا يحذف ما يدينه، ويعطي الخصم حقه وإن غضبت الجماعة، ولا يستعمل خطأً حقيقيًّا لتبرير زيادة من عنده. من اتسعت عبادته وضاق عدله عند الخصام يحتاج إلى أن يسأل أين وقف النور قبل أن يبلغ ميزانه.

والرحمة ثمرة للهدى ما دامت تحت حكم الشرع. يريد صاحبها إصلاح المخطئ أكثر من إذلاله، ويفرح بتوبته أكثر من فرحه بانتصاره عليه. لا تعفي الظالم من حق المظلوم، ولا تخفي الخطر، لكنها تمنع لذة التشفي من أن تتنكر في صورة غيرة على الدين.

حين يجتمع العدل والرحمة يتغير أسلوب البيان. يقول الحق واضحًا، ويختار العبارة الأقرب إلى الفهم، ويترك الزيادة التي لا تخدم إلا غضبه. الحزم يحفظ الحد، والرحمة تحفظ مقصد الهداية. وإذا غاب أحدهما تحول الخطاب إلى قسوة تنفر أو ميوعة تضيع.

ومن أثر الهدى أن يظل الإنسان وفيًّا للحقوق اليومية التي لا تمنحه صورةً بطولية: أمانة العمل، وعدل البيت، وحفظ اللسان، والوفاء بالوعد. يثبت بعض الناس في موقف علني ثم يضعفون في الخلوة والتكرار. الاتجاه الأصدق يظهر حيث لا جمهور ولا تصفيق.

ومن هنا يدخل الثبات في الثمرات قبل أن تأتي المحنة الكبرى. الثبات اليومي هو أن يبقى الفرض محفوظًا، والحق مؤدًّى، واللسان محروسًا، وأن يعود العبد كلما مال. المواقف الكبيرة تكشف ما بناه هذا التكرار الهادئ، ولا تخلقه من فراغ.

ويتعلم المهتدي أن الجماعة نعمة لا ربًّا. ينتفع بصحبتها وعلمها وحمايتها، ثم يبقى الوحي حاكمًا عليها. فإذا ضغطت ليظلم مخالفًا أو يسكت عن خطأ، عرف أن صدق الانتماء يقتضي نصحها، وأن حفظ صورتها بالباطل خيانة لها قبل أن يكون خيانةً للحق.

هذه الثمرات تتساند: التواضع يفتح قبول الحق، وقبول الحق يسرع التوبة، والتوبة تنظف موضع النور، والنور يقيم العدل، والعدل يحفظ القلب من ظلمة الخصومة. لا تنمو كلها بالمقدار نفسه، لكن اتصالها يكشف أن المعرفة بدأت تنتظم في عبودية واحدة.

الاتجاه لا اللقطة

تلمع علامات كثيرة ولا تكفي وحدها. كثرة المعلومات نعمة وطريق عظيم، لكنها تستطيع أن تمنح الهوى أدوات أدق للدفاع عن نفسه. السؤال عما أحدثته: هل زادت الخشية والأمانة؟ هل صار قول «لا أعلم» أيسر؟ هل اقترب العلم من المال والغضب والحقوق؟

وقوة الجدل لا تساوي قوة الدليل. يحسن المبطل ترتيب كلامه، ويضعف صاحب الحق في عرضه. المهارة تخدم الهدى حين تنصف الحجة وتسمح لصاحبها بالمراجعة، وتفسده حين تصبح الغلبة غاية. إسكات الخصم نجاح مجلس، أما إقامة الحق فعبادة لها ميزان آخر.

وكثرة الأتباع وصحة الانتماء لا تمنحان شهادةً للقلب. يجتمع الناس على حق أو باطل، ويتبعون لبلاغة أو مصلحة أو هوية. والانتماء إلى السنة والعلم نعمة تحفظ أصولًا، لكنه يطالب صاحبه بالعدل والتواضع والرجوع كل يوم. الاسم الصحيح لا يحمل العمل عن صاحبه.

والتأثر الوجداني علامة خير محتملة، ثم ينتظر أثره. تدمع العين وتلين النفس، ويظل الحق الذي بكى عنده الإنسان خارج قراره. لا يحتقر الرقة، ولا يكتفي بها؛ يفتح لها بابًا إلى توبة أو دوام أو رد حق. إن لم تتحرك بقيت دعوةً جميلة لم تتم.

كذلك لا تساوي الراحة النفسية الهداية. يرتاح المرء إلى قول لأنه وافق هواه، ويضيق بحكم لأنه يطالبه بخسارة. وفي المقابل يمنح الله أهل الإيمان سكينةً حقيقية. الفرق أن السكينة تتصل بالوحي وتعين على الطاعة، أما الراحة المجردة فلا تحمل في ذاتها حكمًا.

والنجاح الدنيوي لا يثبت رضا الله عن جميع الاختيارات. المنصب والانتشار والربح نتائج تجري بأسباب، ويستعملها المؤمن في الطاعة ويخاف فتنتها. تفسير كل باب مفتوح بأنه تزكية من السماء يخلط النعمة بالاستدراج، والقدرة على الإنجاز بصحة الطريق.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم (2564). يجمع الحديث الباطن والظاهر، ويخرج الميزان من الصورة والمال، ولا يسمح بدعوى صفاء القلب أن تقوم مقام العمل.

القلب والعمل في الحديث متلازمان في موضع النظر الإلهي. صلاح الباطن يثمر فعلًا، والعمل الصالح يتغذى من قصد صادق. من احتج بقلبه على ترك الواجب، أو استعرض عمله مع قلب مملوء بالعجب والظلم، فرّق ما جمعته السنة.

لهذا لا يحكم على القلب من لقطة واحدة. يثبت الإنسان مرةً ويضعف أخرى، وتتأخر ثمرة لأن بابها أشد ابتلاء، ويظهر خيره في موضع لا يراه الناس. القاعدة الأصدق هي الحركة المتكررة: هل تقصر مدة التردد؟ هل تسرع التوبة؟ هل يقل التبرير؟ هل يزداد الافتقار مع العلم؟

ويوجه المرء هذا المحك إلى نفسه قبل غيره. يحكم على الأفعال الظاهرة بقدرها، وينصح ويحذر وفق الشرع، ويترك السرائر لله. تحويل العلامات إلى أداة لتصنيف الخلق يفسد وظيفتها؛ فقد وضعت لتوقظ العبد إلى اتجاهه، لا لتمنحه علمًا بمصائر الناس.

ولا يجعل ضعف ثمرة واحدة دليلًا على انعدام أصل الهداية. من وجد قسوةً في باب يسميها ويتداوى، ومن بطؤ رجوعه يأخذ بأسباب التوبة. التشخيص باب عمل، واليأس يحوله إلى قعود. القلب الحي يخاف من مرضه ويطلب الشفاء، ولا يكتب على نفسه خاتمةً لم يكتبها الله.

انظر إلى الأشهر الماضية، لا إلى آخر مجلس تأثرت به: ماذا غير ما تعلمته فيك؟ أي حق صار أداؤه أسرع؟ أي تبرير سقط؟ أين ظهر تواضع أو عدل أو توبة؟

اختر ثمرةً ضعيفة واحدة، وضع لها فعلًا واقعيًّا: اعتذارًا، أو حقًّا ترده، أو وقتًا ثابتًا لطاعة، أو مراجعةً لرأي. لا تبن مشروعًا ضخمًا يبعدك عن الفعل القريب. الثمرة تنمو في موضع محدد، وتحتاج إلى دوام أكثر من حاجتها إلى إعلان.

وعندما تهدد الطاعة مصلحةً أو مكانةً يظهر مقدار ما رسخ. شرح الصدر يواجه الخوف، والنور يواجه ضغط الجماعة، والتواضع يواجه خسارة الصورة، والعدل يواجه الغضب، والافتقار يواجه وهم القوة. عند هذه الحافة تتحول الثمرة الهادئة إلى ثبات مكلف.

الوحدة السابعة عشرة: حين تصبح الهداية مكلفة

إيمان سبق وربط عند القيام

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 13–14]. في آيتين تتحول سنة الزيادة إلى موقف يحمل ثمنه.

بدأت القصة بإيمان سبق: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: 13]. عرفوا ربهم وصدقوا به في بيئة يعلو فيها سلطان الشرك، ثم نسب القرآن ما تلا ذلك إلى الله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾. لم يكن ثباتهم امتدادًا آليًّا لجرأة الشباب، وإنما فضلًا نزل على استجابة حقيقية.

ووصفهم بأنهم فتية يزيد المشهد قربًا من الإنسان. كانوا في سن تتعلق فيها النفس بمكانها بين الناس وبما ينتظرها من مستقبل، ولم يدخلوا القصة وقد انقطعت صلاتهم بالدنيا. الإيمان أخذهم من قلب حياة واسعة، ثم وضعهم أمام اختيار يهدد ما يعرفونه من أمن وانتماء.

وكانوا جماعةً صغيرة في وجه بيئة أوسع. اجتماعهم لم يخلق الهدى، لكنه صار من أسباب حفظه؛ يذكر بعضهم بعضًا، ويشتركون في تسمية الباطل، ويتخذون القرار معًا. في مواضع الكلفة تكون الصحبة الصادقة رحمةً تحمل الفرد حين يضعف صوته وحده.

بعد الزيادة جاء الربط: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: 14]. الربط شد وتثبيت يحفظ القلب من الانفلات عند الخوف. وحاجتهم إليه تكشف ثقل الموقف؛ فالقلوب البشرية تضطرب حين تتقابل الحقيقة مع السلطان والقوم والمصير المجهول. الله لم يسلبهم بشريتهم، وإنما أعانها على الوفاء بما عرفت.

ثم قال: ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ [الكهف: 14]. في اللفظ اجتماع فعل الله وفعلهم: ربط على القلوب، وقيام بالجوارح واللسان. لم ينتظروا اختفاء كل خوف، ولم ينسبوا الحركة إلى صلابة خاصة في طباعهم. قاموا بما أقدرهم الله عليه، فصار القيام شاهدًا على الزيادة لا بديلًا من فضلها.

قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 14]. ابتدأوا من معرفة الله قبل إنكار آلهة قومهم. من عرف سعة الربوبية صغر في قلبه سلطان البشر، ومن رأى ملك السماوات والأرض عرف أن القوم والملك والمدينة كلها داخل ملك ربه. العقيدة هنا قوة موقف، لا معلومة معلقة فوق الحياة.

ثم أعلنوا: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ [الكهف: 14]. انتقل الإيمان من قلب خفي إلى كلمة لا تسمح بالمساومة على أصل الدين. ولم تكن الكلمة اندفاعًا بلا حجة، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ [الكهف: 15]. جمعوا التوحيد والبرهان.

وقولهم: ﴿قَوۡمُنَا﴾ [الكهف: 15] يحفظ أثر الانتماء الإنساني في قلب المفاصلة العقدية. لم يجعلهم إنكار الشرك متلذذين بإهانة قومهم، ولم يجعل القرب الاجتماعي ذريعةً للموافقة. يمكن للهداية أن تكون حازمةً ورحيمةً في وقت واحد: تسمي الباطل، وتحفظ القلب من قسوة التفوق.

كما أن اجتماعهم لم يذب مسؤولية كل واحد في الجماعة. القرآن نسب الإيمان والقيام إليهم جميعًا، فلا أحد يختبئ خلف جرأة صاحبه. الصحبة تعين، ثم يبقى لكل قلب موقفه بين يدي الله. الجماعة التي تحفظ الهدى تقوي المسؤولية ولا تستبدلها.

وحين استحال عليهم حفظ الدين في تلك البيئة قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: 16]. تركوا سعة المدينة إلى ضيق الكهف، ورأوا باب الرحمة في الموضع الذي تراه العين حرمانًا.

لم تكن الحركة فرارًا من كل مسؤولية اجتماعية، ولا دعوةً عامة إلى العزلة. المقام هدد أصل الدين، فكان الاعتزال وسيلة لحفظه. في أحوال أخرى تكون العبادة في البقاء والدعوة والصبر وأداء الحقوق. صورة الثبات يحددها الشرع والقدرة والواقع، لا ميل النفس الدائم إلى المواجهة أو السلامة.

دخلوا الكهف بلا ضمان لتفاصيل النجاة. أخذوا بسبب يمكنهم، أما نشر الرحمة وتهيئة المرفق فمن الله. هنا يبلغ الافتقار صفاءه: يختار العبد ما يحفظ دينه، ثم يعبر إلى موضع لا يملك نهايته، واثقًا بأن ربه يستطيع أن يجعل الصخر مأوى، والوحدة حفظًا، والضيق سعةً من رحمته.

ونشر الرحمة لا يلزم أن يأتي أولًا في صورة راحة يشعرون بها. تكون الرحمة في صرف العدو، أو حفظ الدين، أو نوم لا يملكون تدبيره، أو مآل يجعل قصتهم آيةً للناس. العبد يسأل الرحمة، ويترك لربه أن يختار صورتها وزمن ظهورها.

وكان دعاؤهم قبل ذلك: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. لم يطلبوا نجاة الجسد وحدها، طلبوا الرحمة والرشد. ينجو الإنسان من خطر عاجل ويخسر وجهته، أما هؤلاء فطلبوا من الله أن يصون القرار نفسه وأن يهيئ لهم ما يعينهم على الوفاء به.

انتقلوا من مدينة مألوفة إلى كهف مجهول، لكنهم لم ينتقلوا من سلطان إلى فراغ. رب السماوات والأرض هو رب الكهف، والرحمة التي سألوها لا تضيق بجدرانه. حين تنمو الهداية يتغير تعريف المكان الآمن: ليس حيث تبقى المصالح كلها، وإنما حيث يستطيع القلب أن يبقى عبدًا لله.

الربط لا يلغي الخوف

من أقسى الأوهام أن يظن الإنسان أن الثابت لا يخاف. فإذا اضطرب قلبه عد اضطرابه دليلًا على ضعف الطريق، وتراجع لأنه لم يجد في نفسه صورة البطل التي تخيلها. القرآن ذكر الربط لأن الخوف حاضر، وذكر القيام لأن الخوف لم يأخذ الكلمة الأخيرة.

الربط لا يصنع حجرًا. يصنع قلبًا يعرف إلى من يعود.

لا يمنع الربط سرعة النبض أو ثقل الصدر أو ازدحام الاحتمالات. أثره أن تبقى بين القلب وربه عروة لا يقطعها الاضطراب، فيرجع إلى الوحي والدعاء بدل أن يستسلم لأول مخرج يقدمه الخوف. هذه عافية باطنة لا يراها من يراقب ظاهر الجسد وحده.

يبقى المرء واعيًا بما يمكن أن يخسره: وظيفة، أو مكانة، أو قبولًا اجتماعيًّا، أو مستقبلًا خطط له طويلًا. ويشعر بثقل العاقبة على من يحبهم. ثم يمنحه الله قدرةً على وضع هذه المخاوف داخل ميزان أوسع، فلا تعيد تسمية الحرام، ولا تحول المصلحة إلى رب يأمر وينهى.

يخاف صاحب منصب من خسارة عمله إذا امتنع عن تزوير أو ظلم، ويخاف الباحث من اهتزاز منزلته إذا رجع عن قول اشتهر به، ويخاف الوالدان من عزلة ابنهما حين يحفظان له دينه وسط ضغط واسع. الخوف مفهوم، والمحنة في السلطة التي يمنحها الإنسان له.

القيام بالحق مع الخوف من أعظم صور التوفيق. يرى العبد ضعفه ومعونة ربه في لحظة واحدة. لو غاب الخوف تمامًا لربما نسب الثبات إلى طبيعته، أما حين يعرف مقدار ما كان يمكن أن يتراجع ثم يثبته الله، يصبح الحمد أصدق والافتقار أبقى.

لهذا يحتاج الثابت إلى الدعاء أكثر من حاجته إلى رواية قوته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» كما تقدّم، رواه مسلم (2655). يأتي الدعاء في قلب الثبات، قبل الفتنة وأثناءها وبعد النجاة منها.

السكينة والربط يلتقيان في حفظ مركز القلب، ويختلف المقام الذي يبرزهما. السكينة تسكن اضطرابه إلى حكم الله ووعده، والربط يشدّه حين يكاد الخوف أن يفك عقد عزمه. كلاهما فضل، وكلاهما لا يعفي صاحبه من القيام والتدبير والصبر.

ويصل فضل الله إلى القلب بطرائق لا يحصيها: آية يستحضرها في وقتها، وصاحب يثبته، ودعاء يفتح له باب الرجاء، وسبب عملي يقلل الفوضى حوله. كلها أبواب يجري الله بها معونته، ولا تتحول واحدة منها إلى قوة مستقلة عن واهبها.

والربط لا يمنع الأخذ بالأسباب. الفتية آووا إلى الكهف، ثم أرسلوا واحدًا منهم بالطعام وأمروه بالتلطف والحذر في بقية القصة. الثابت لا يكشف نفسه بلا مصلحة، ولا يحتقر التخطيط، ولا يسمي التهور توكلًا. يحفظ الحق ويقلل الضرر ما دام لا يشتري السلامة بالتنازل عن أصل واجب.

كما أن الشريعة لا تطلب كل خسارة. تبيح الرخص في مواضعها، وتراعي الإكراه والعجز، وتحفظ النفس والأهل والمال. الثبات ليس بحثًا عن الألم، وإنما وفاء بالتكليف حيث لا رخصة، واستعمال للرخصة حيث شرعت، من غير تحايل يجعل الخوف فقيهًا يصنع لنفسه الحكم.

يخطئ من ينتظر قوةً كاملة قبل أن يعمل. القوة تنزل أحيانًا في أثناء الخطوة، كما جاء الربط عند القيام. يبدأ العبد بما يقدر عليه: يثبت الحكم، ويستشير، ويهيئ البديل، ويقول الكلمة بقدرها؛ ثم يرى من معونة الله ما لم يكن يملكه وهو واقف عند باب القرار.

ويخطئ كذلك من يجعل ثباته السابق رصيدًا مضمونًا. الموقف الذي نجح فيه نعمة تحتاج إلى شكر، ولا يكتب له العصمة في الموقف التالي. ربما ثبت في المال وضعف في المكانة، أو أعلن الحق أمام خصم وعجز عن الاعتذار لأهله. أبواب الكلفة تكشف فقرًا جديدًا في كل مرة.

الخوف حاضر. والعبودية أرفع منه.

كلمة الحق من داخل القصر

في بيت فرعون كان رجل مؤمن يكتم إيمانه، فلما بلغ الأمر تهديد موسى عليه السلام بالقتل قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28]. لم يكن كتمه السابق حكمًا أبديًّا عليه؛ وجاء موضع صار فيه البيان أمانةً لا يؤديها الصمت.

خاطب القوم من داخل معرفته بمجلسهم: إن كان موسى كاذبًا فعليه كذبه، وإن كان صادقًا أصابهم بعض ما يعدهم. ثم تقدم في الإنذار وذكّرهم بمصائر الأحزاب ويوم التناد. الإيمان لم يلغ فقهه بالناس والسياسة، وإنما حرر هذا الفقه من خدمة القصر وحده.

وكان قوله مكلفًا لأنه خرج من داخل النظام نفسه. القرب من القوة يمنح صاحبه فرصًا للتأثير، ويمنحه في الوقت نفسه أعذارًا لا تنتهي لتأجيل الكلمة. مؤمن آل فرعون لم يجعل إمكان البقاء قرب السلطان حجةً دائمة، وعرف اللحظة التي صار الصمت فيها مشاركةً في الخطر.

ومع وضوح موقفه ظل يقول: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ويذكّرهم بملكهم، ويخاف عليهم من بأس الله [غافر: 29–32]. الثبات لا يساوي خشونة الأسلوب. من زيادة الهدى أن يعرف الإنسان كيف يبلغ الحق بأقرب طريق إلى الفهم، من غير أن يخفف معناه أو يجعل الحكمة اسمًا للسكوت.

هذه الصورة قريبة من الباحث حين يتبين له ضعف قول درّسه واشتهر به. الرجوع يهدد صورةً بناها في سنوات، ويمنح خصومه مادةً يفرحون بها. الهداية المكلفة أن يحرر المسألة، ويعلن التصحيح بقدره، ويحفظ للعلم أمانته. مكانته لا تصونها دعوى العصمة، وإنما صدقه مع الحق.

وتقرب من صاحب القرار حين تعرض عليه معاملة محرمة تعده باستمرار مشروع أو منفعة فريق. يتثبت من الحكم والواقع، ويبحث عن البدائل، ثم يرفض الحرام إذا بان. نقص الربح أهون من أن يصبح الرزق قوةً تعيد تعريف أمر الله.

وتقرب من كل جماعة تضغط على أفرادها ليظلموا مخالفًا أو يسكتوا عن ظلم وقع عليه. العدل هنا مكلف اجتماعيًّا؛ يغضب القريب، ويُساء فهم الموقف، وربما استعمل الخصم الاعتراف لمصلحته. ومع ذلك يقول المؤمن الحق بقدره، ولا يتحول إلى أداة لأي طرف. انتماؤه لله قبل الاصطفاف.

ثلاث صور يجمعها معنى واحد: موضع آمن يطلب من الإنسان أن يدفع ثمن بقائه من صدقه. حين يرفض البيع لا يحتقر من ضعف، ولا يزكي نفسه، وإنما يسأل أن يربط الله قلبه ويهيئ له رشدًا في الكلمة والطريقة والعاقبة.

حين يصغر الأمن والمكانة أمام الحق

كان السحرة قبل البينة يطلبون الأجر والقرب من فرعون، فلما جاءهم الحق سجدوا، ثم هددهم بالقطع والصلب. قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: 72]. في هذه اللحظة ظهرت ثمرة الهدى: أعيد ترتيب ما يستحق أن يُحفظ وما يمكن أن يُفقد.

لم تعد المكانة التي جاؤوا يطلبونها قادرةً على شراء موقفهم، ولم يعد الأمن الذي يحتكره السلطان أعلى من البينة. زيادة الهدى لا تضيف رأيًا جديدًا إلى قائمة الآراء؛ تغير مركز القيمة في القلب، فيصغر ما كان عظيمًا حين يقف أمام الله والحق والآخرة.

ومع هذا الثبات لم يستغنوا عن الدعاء. قالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]. طلبوا أن يفرغ الله الصبر عليهم؛ فالتهديد حقيقي، والثبات الذي يحتاجونه فضل حقيقي.

وقال المؤمنون حين برزوا لجالوت وجنوده: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 250]. الصبر يفرغ من الله، والأقدام يثبتها، ثم يبذل العبد ما يستطيع. لا تدخل النفس على الكلفة بخطاب عن قوتها الداخلية وحدها.

وكلفة الهداية لا تقع دائمًا في سجن أو تهديد بالقتل. بيئة العمل تعاقب برفض الترقية، والوسط العلمي يعاقب بسقوط الهيبة، والجماعة تعاقب بالعزلة، والمحيط الاجتماعي يرهق من يحفظ هويته بسخرية متكررة. لا تضخم هذه الآلام حتى تساوي المحن الكبرى، ولا تحتقر أثرها في قلب يتعرض لها كل يوم.

الاستعداد قبل ساعة الضغط جزء من الثبات. يتعلم الحكم قبل أن تعرض الصفقة، ويهيئ بديلًا معقولًا، ويعرف من يستشيره، ويصحب من يذكره بالله، ويدرب لسانه على كلمة صادقة هادئة. الأسباب لا تخلق الربط، لكنها من شكر الهدى ومن فقه المسؤولية.

وتتكرر الكلفة بعد الموقف الأول. إعلان الحق لحظة، ثم يأتي صبر الأيام: آثار القرار، ونظرات الناس، وضيق البدائل، وحاجة الأسرة إلى الطمأنة. الثبات الممدوح لا يقتصر على ساعة الاندفاع؛ يبقى وفيًّا حين يهدأ المشهد وتبدأ الفواتير الخفية.

وإذا جاءت الكلفة لم يطالب نفسه بزوال كل رهبة. يذكر أن الفتية احتاجوا إلى ربط، وأن السحرة سألوا صبرًا، وأن مؤمنًا كتم ثم تكلم حين وجب البيان. يزن مقامه بالشرع، ويتحرك بما يقدر عليه، ويمنع الخوف من أن يصنع له دينًا آخر.

ولا تكون الكلفة وحدها دليل صحة. يخسر الإنسان بسبب خطأ في الفهم أو سوء في التقدير، ثم يسمي خسارته ابتلاءً على الحق. قبل الصبر يلزمه نص صحيح، وفهم معتبر، وتحرير للواقع. الثبات على الوهم عناد، والثبات على ما بان من أمر الله عبادة.

ومن فقهه أن يعرف ما يظهر وما يكتم، وما يعجل وما يؤجل، وأين تكون الرخصة وأين ينتهي مجالها. الفتية أعلنوا ثم اعتزلوا، ومؤمن آل فرعون كتم ثم صدع. لا صورة واحدة لكل مقام؛ الهداية تنير الميزان قبل أن تقوي القدم.

وحين يوفَّق إلى موقف صادق لا يجعله تاجًا دائمًا. يشكر الله، ويستغفر من نقصه، ويخاف أن يعجب بما أُعطي. أقسى ما يصيب الثبات أن يتحول بعد النجاح إلى اعتماد على النفس؛ فالافتقار الذي طلب الربط قبل الموقف هو نفسه الذي يحفظ أثره بعده.

لهذا يقول أهل النور: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: 8]. لديهم نور يسعى، ومع ذلك يسألون تمامه والمغفرة. لا يجحدون النعمة ولا يأمنون النقص؛ يحملون الهدى في مقام الشكر والخوف والرجاء.

هدى بلغ القلب، فاستجاب العبد بتوفيق الله، فزاده الله فهمًا وتقوى وسكينة، وظهرت الثمرة في التوبة والعدل والتواضع، ثم دخلت موضع الكلفة فاحتاجت إلى ربط وصبر. وكلما ارتفع السائر درجة عاد إلى الدعاء نفسه: أتمم لنا نورنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا.

غير أن الطريق لا يبقى مفتوحًا بلا موانع. يدخل الهوى من موضع المصلحة، والكبر من موضع المعرفة، والإعراض من موضع التأجيل، والإصرار من موضع الزلة التي لم تُعالج. وبعد أن ظهر كيف ينمو النور، يقترب السؤال عن الحجب التي تقف بين القلب وبين المزيد.

المحور الخامس: موانع الهداية

انتهى المحور السابق عند فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى، وربط على قلوبهم حين قاموا بالحق. تلك الصورة المضيئة لا تمنح المهتدي أمانًا من نفسه، ولا تجعل ما مضى من الطاعة ضمانًا يغنيه عن الحراسة والافتقار. ما دام قلبه لا يستقل بثباته، وما دام الإنسان يتقلب بين رغبة وخوف وعادة ومصلحة، بقي محتاجًا أن يعرف من أين يدخل الحجاب بينه وبين النور.

لا يبدأ الطريق المقابل دائمًا بإنكار معلن. قد يبدأ بأن يبتعد المرء عن موضع التذكير قبل أن يسمع، أو يسمح لمراده أن يحدد من الحق ما يقبله، أو يحمي عملًا فاسدًا بقصة جديدة عن نفسه. وقد يدخل الموروث والمكانة والنجاح الدنيوي في ميزان النظر، ثم يتكرر الذنب حتى يخفت ألمه، وتأتي من الخارج أصوات تزين وتضغط وتعيد الرسالة حتى تألفها النفس.

تختلف صور المانع، وتلتقي عند انقلاب خفي في مقام العبودية. الرغبة التي كان ينبغي أن تُعرض على أمر الله تصبح قاضيةً عليه، والنعمة التي تستحق الشكر تتحول إلى برهان على سلامة الطريق، والانتماء الذي يعين صاحبه يصير ميزانًا للحق، والخطيئة التي كان يخجل منها تغدو واقعًا يطالب النص أن يتكيف معه. يبدأ التحول من استجابة يملكها العبد، ثم يقوى بالتكرار والتبرير وما يحيط به من مؤثرات.

وتلوح قصة إبليس وراء هذه الحركات كلها. جاءه الأمر واضحًا، فامتنع، ورفع تصوره عن نفسه فوق مقتضى العبودية، ثم حمى امتناعه بحجة، وأقام على ما اختار حتى صار سقوطه مشروعًا يدعو إليه غيره. لا يحتاج مدخل المحور إلى استيفاء القصة؛ يكفي أن يرى القارئ في طرفها الأول أن المعرفة لا تنجي قلبًا يرفض الخضوع، وفي طرفها الآخر أن المضل يدعو ويزين، ولا يملك أن يجبر عبدًا على الاستجابة.

لا تمنح هذه المعاني أحدًا سلطة الحكم على بواطن الناس. قد يخفى الدليل، أو تشتبه الواقعة، أو لا يبلغ البيان على وجهه، أو يحتاج المتردد إلى زمن وسؤال. والله أعلم بمن قامت عليه الحجة، وأعلم بما في الصدور. وظيفة هذه الصفحات أن ترد المرآة إلى النفس: ماذا أفعل حين يقترب الحق من موضع لا أريد تغييره؟ وهل أقصر الطريق إلى الاعتراف، أم أبني حول اختياري حجابًا جديدًا؟

وتبدأ الحراسة من افتقار صادق. علّم الله نبيه أن يقول: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 97-98]. الاستعاذة إقرار بأن النجاة ليست ثمرة قوة نفسية مستقلة، وهي كذلك عبادة تدفع صاحبها إلى إغلاق الباب الذي يعرفه، وقطع السبب الذي يملكه، والعودة إلى الذكر قبل أن يشتد البعد.

يمتد النظر من الإعراض الذي يمنع اكتمال السماع، إلى الهوى والاستكبار حين يحضر الحق ولا ترضى النفس بحكمه، ثم إلى العمل الفاسد حين يحتاج إلى كذب أو ظلم يحميه. وبعد ذلك يظهر سلطان ما يملكه الإنسان أو يرثه أو يخشى فقده، ثم أثر الذنب إذا عاد حتى يصنع حجابًا. ومن خارج القلب تأتي دعوة الشيطان، وقرين السوء، وسلطة القادة، وضغط الجماهير والمنصات. يبقى الخيط واحدًا: تأثير حقيقي لا يلغي الاختيار، ومسؤولية حقيقية لا تستغني عن عون الله، وباب رجوع مفتوح ما دام العبد يسمع النداء ويقدر أن ينيب.

الوحدة الثامنة عشرة: الإعراض: أول الطريق الآخر

الابتعاد قبل الاعتراض

قال الله تعالى بعد الوعد الذي افتتح به حياة الإنسان في الأرض: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 123-124]. جاء الهدى من الله، ثم نُسب الاتباع والإعراض إلى العبد. لم تعرض الآيات قلبًا ساكنًا وقع عليه مصيره من غير موقف، بل ذكرًا حاضرًا وطريقين يتجه إليهما الإنسان.

الإعراض أوسع من التكذيب الصريح. المكذب يواجه الخبر بالرد، أما المعرض فقد يمنع المواجهة من أصلها: يبتعد عن المجلس، أو يقطع القراءة عند الموضع الذي يمسه، أو يسمع بقدر لا يسمح للكلمة أن تستقر وتطالبه. يطمئن إلى أنه لم يرد الحق، مع أنه رتب حياته حتى لا يلتقي به لقاءً كاملًا.

وعُلّق الإعراض بذكر الله؛ الذكر يعيد إلى الإنسان ما تعمل الغفلة على إبعاده: ربه، وعبوديته، ومآله، وما قدمت يداه. وقد يكون المعرض صاحب معرفة عامة بالدين، لكنه يخشى المعرفة حين تنزل من العموم إلى الواقعة، وتنتقل من فضيلة يحبها إلى حكم يعيد ترتيب يومه أو علاقته أو عادته.

قال سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: 4]. تكرر مجيء الآيات، وتكرر في الجهة المقابلة فعل الإعراض. كثرة البيان لا تنفع قلبًا يتخذ في كل مرة حركةً إلى الجانب؛ فقد تصبح الفرص المتتابعة شاهدًا على رسوخ الموقف بدل أن تكون سببًا في زواله.

ولا يلزم أن يقول المعرض: لن أسمع. تكفيه ترتيبات صغيرة تبدو منفصلة: يؤجل السؤال، ويختار صحبة لا تذكره بالباب الذي يخشاه، وينتقل عند كل حديث قريب إلى تفصيل جانبي، ويعد نفسه بوقت أنسب لا يأتي. يظل الباب في ظاهره مفتوحًا، لكن الطريق إليه تمتلئ بالعوائق التي صنعها صاحبه.

يختلف هذا عن جهل صادق يطلب البيان. الجاهل يقول: لا أعلم، ثم يقترب ممن يبين له، ويعرض الواقعة كما هي، ويقبل أن يحتاج إلى وقت لفهمها. أما الإعراض فيدير المسافة عن البيان نفسه؛ لا يريد أن يتضح الأمر لأن وضوحه سيحمّله مسؤولية لم يعد يستطيع إنكارها.

وقد يبدأ الجهل صادقًا ثم يتحول إلى إعراض في موضع أدق: لا حين يترك الإنسان العمل بما عرف فقط، بل حين يتعمد ألا يستكمل سماع ما يخشى أن يتضح. يقرأ أول الباب ثم يقف عند الحد الذي بدأت المطالبة تقترب منه، أو يسأل سؤالًا عامًا ويرفض تحرير الواقعة الخاصة. وظيفة هذه الوحدة كشف صناعة المسافة عن البيان نفسه.

ومن صور الإعراض أن يبني المرء يومًا لا فراغ فيه للوقوف. تتابع المهمات واللقاءات والأخبار، ويظل الانتقال من شأن إلى شأن أسرع من أن يسمح لسؤال واحد بالاكتمال. ليست كثرة العمل مذمومة في ذاتها؛ الخطر أن تتحول الحركة الدائمة إلى ملجأ من لحظة سكون يعرف الإنسان أنها ستضعه أمام ما يؤجله.

في بيت مضطرب يعرف أحد أفراده أن عادته في الغضب تؤذي من حوله، لكنه يرفض كل حديث يتجاوز أخطاء الآخرين إلى مسؤوليته. يقبل النصيحة في ضبط الأسرة ما دامت تمنحه أدوات لتقويمهم، فإذا اقتربت من لسانه ونبرته أغلق الحوار بدعوى أن التوقيت غير مناسب. لم ينكر فضيلة الحلم؛ أبعدها عن موضع التكليف.

وقد يعرف المرء أن عبادةً ظاهرة تضعف في حياته، فيكثر من الاستماع إلى مواد عامة عن الإيمان ويبتعد عن بابها المحدد. يأنس بالكلام عن محبة الله، ويثقل عليه أن يراجع مواقيته وتفريطه. يصبح العموم الدافئ وسيلةً للهروب من تفصيل يطلب فعلًا، مع أن صدق المحبة يُرى في الموضع الذي يأمر فيه المحبوب.

الإعراض الأول لا يبدو لصاحبه طريقًا آخر. يبدو استراحةً قصيرة أو تأجيلًا حكيمًا. غير أن ما يتكرر يتعلمه القلب؛ يتعلم أن نجاته من الألم في الابتعاد عن الذكر، وأن الراحة تأتي كلما أغلق نافذةً كانت ستدخله إلى المراجعة. عندئذ لا يبتعد عن حكم واحد فقط، بل يكوّن عادةً في التلقي.

حين ينتقي الإنسان ما يتذكره

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: 57]. اجتمع التذكير والإعراض ونسيان العمل. لا يريد الإنسان أحيانًا أن يسمع الآية لأن الآية تعيد إلى الذاكرة الأخلاقية فعلًا حاول أن يضعه خارج الحساب.

النسيان في هذا الموضع ليس دائمًا فقدان المعلومة من الذهن. قد يتذكر تفاصيل الواقعة، لكنه ينتقي منها ما يحفظ صورته. يستحضر استفزاز الآخر وينسى بدايته، ويذكر ما تحمله من تعب ويغفل عما حمّل غيره، ويروي المقصد الحسن ويحذف الوسيلة الظالمة. تتشكل ذاكرة تخفف المسؤولية، ثم يصبح الذكر الذي يعيد الصورة كاملةً ثقيلًا.

عندئذ لا يُرد النص من جهة دلالته، بل يُبعد عن الواقعة. يقول صاحبه: هذه الآية في قوم آخرين، أو هذا الباب لا يشبه ما عندي، أو لا ينبغي التشدد في تنزيل الأحكام على الناس. وكل جملة قد تصح في موضعها، لكنها تعمل هنا لتمنع الحكم العام من ملامسة فعل واضح.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61]. الدعوة محددة: تعالوا إلى المرجع الذي تزعمون الإيمان به. وجاء الجواب حركةً ظاهرة في الاتجاه المقابل. لم يكن النقص غياب النص، بل رفض الاقتراب من حكمه في موضع النزاع.

هذه الآية تصف المنافقين، فلا تُنقل أحكامها إلى كل متردد أو متأخر. غير أنها تكشف هيئةً يخافها المؤمن على نفسه: حين يُدعى إلى ما أنزل الله، هل يقترب ليعلم ويسلم، أم يكثر من الأسباب التي تبقيه خارج مجلس الحكم؟ التحذير من الحركة لا يبيح الحكم على البواطن.

وقد يكون الصدود مهذب العبارة. لا يرفع الإنسان صوته، ولا يعلن خصومةً مع السنة، لكنه يبدل موضوع الحديث كلما وصل إلى واجبه، ويطلب مزيدًا من الآراء بعد أن استقر عنده وجه معتبر، ويعيد صياغة السؤال حتى تسقط منه الجزئية التي تثقل عليه. ظاهر الطريق بحث، واتجاهه الفعلي ابتعاد.

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22]. جاءت ﴿ثُمَّ﴾ بعد التذكير، فظهر ثقل ما يقع بعد وصول البيان. لا يحمل هذا الوعيد على كل عاصٍ زل، لكنه يمنع القلب من تهوين الإعراض كأنه فراغ لا أثر له.

أخطر ما يفقده المعرض فرص التصحيح. من بقي قريبًا من الذكر يسمع ما يراجعه، ويرى التناقض بين دعواه وعمله، ويجد في قلبه ألمًا يدفعه إلى الرجوع. أما من اختار المسافة، فيحيط نفسه بما يصدّق روايته، فيهدأ الألم ويحسب أن المسألة انتهت، مع أن الذي ضعف هو إنذار القلب.

حياة تمتلئ كي لا تسمع

وقد تمتلئ حياة الإنسان بأعمال نافعة حتى لا يبقى فيها موضع للمراجعة. ينتقل من مهمة إلى زيارة، ومن خدمة إلى اجتماع، ويظل قادرًا على الحديث في أبواب كثيرة إلا الباب الذي يحتاج إلى وقفة صامتة مع نفسه. المشكلة ليست كثرة الخير، بل أن تتحول الحركة إلى طريقة منظمة لئلا يكتمل سؤال واحد.

وقد يكون التعلم نفسه جزءًا من هذه الحركة إذا بقي دائمًا في البدايات. يفتح بابًا جديدًا كلما اقترب الباب السابق من تكليف محدد، فيشعر بالنمو لأن معارفه تتسع بينما يظل الموضع المؤجل ثابتًا. الإعراض هنا لا يرفض العلم؛ يستخدم الانتقال المستمر كي لا يستقر علم بعينه في موضع القرار.

ولهذا يختبر الإعراض بقدر القدرة على المكث: هل يستطيع المرء أن يبقى مع سؤال يزعجه حتى يحرره، وأن يسمع الجواب كاملًا قبل أن ينتقل إلى شأن آخر؟ قد تكون الوسائل كلها مباحة، لكن ترتيبها يكشف هل تخدم طلب الهدى أم تحرس المسافة عنه.

ويستطيع الإنسان أن يطوّع حتى الوعظ ليبقى بعيدًا. يسمع كلامًا شديدًا فيوزعه على خصومه، أو يسمع كلامًا في الرجاء فيجعله حمايةً من التوبة، أو يسمع فضائل النية فيستغني بها عن إصلاح الفعل. لم يرفض النص، لكنه غير جهة الخطاب؛ أخرجه من مرآة النفس إلى نافذة يراقب منها غيره.

وقد سبق في وحدة الطاعة والاعتصام حديث أبي هريرة رضي الله عنه في دخول الأمة الجنة إلا من أبى، ويعود هنا بموضع الشاهد: «مَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» رواه البخاري (7280). فالإباء ليس إعلانًا نظريًّا فحسب؛ قد يظهر في الموقف العملي المتكرر من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

لا يسوي الحديث بين ذنب عارض ومسار من الإباء، ولا يخرج العاصي من الأمة. المؤمن يضعف ويستغفر ويرجع. لكنه يكشف أن الامتناع لا يحتاج إلى تصريح يقول فيه صاحبه إنه يرفض النجاة؛ قد يظهر في علاقة متكررة بالسنة: يسمعها، ثم لا يمنحها حق الحكم حين تخالف عادته.

المحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم لا تبقى وجدانًا معزولًا عن بيانه. من أحب صوته وسيرته ثم عامل أمره كاقتراح تاريخي عند موضع المخالفة، فقد فصل ما جمعه الإيمان. لا يُطلب منه أن يفهم كل حديث وحده، بل أن يطلب صحته ومعناه، ثم يدخل عليه مستعدًّا للطاعة لا للتخلص من المطالبة.

ومن الحراسة أن يختار المرء أوقاتًا لا يدخلها الضجيج. ليس المقصود اعتزال الحياة أو قطع وسائلها، بل حفظ مساحة يسمع فيها القرآن في سياقه، ويقرأ بابًا كاملًا، ويترك السؤال يبلغ نهايته. القلب الذي لا يجد لحظةً بلا مدافعة سيملؤه ما يتكرر حوله، ثم يظن أن ذلك صوته الخالص.

وقد يكون الرجوع من الإعراض محتاجًا إلى رفق وتدرج، لا إلى صدمة متهورة. بعض الأبواب موصول بخوف عميق أو علاقة معقدة، فيبدأ صاحبه بالعلم، ويراعي القدرة والمآل، ويطلب عونًا مأمونًا. لكن التدرج لا يُعرف باسمه، يُعرف باتجاهه: إن كان يقرب خطوةً بعد خطوة فهو طريق، وإن كان يحفظ المسافة كما هي فقد صار اسمًا مهذبًا للإقامة.

ومن صوره أن يرتب الإنسان تعلّمه بحيث يبقى الباب الحساس دائمًا خارج المنهج. يقرأ في فضائل عامة، ويؤجل باب الحقوق الذي يمسه، أو يتوسع في مسائل بعيدة ويترك مسألة قريبة تتكرر في يومه. لا يلزم أن يقصد الخداع بوضوح؛ يكفي أن يصبح اختيار موضوعات التعلم نفسه وسيلةً لئلا يصل إلى موضع المطالبة.

وقد يفضح الإعراضَ غضبٌ شديد من مجرد طرح السؤال. ليس كل غضب عنادًا؛ قد يمس السؤال جرحًا أو خوفًا. لكن ما يحدث بعد هدوء النفس هو موضع النظر: هل تعود طالبةً للبيان، أم تجعل انفعالها القديم حجةً دائمة لإخراج المسألة من حياتها؟ الألم يفسر بعض التأخر، لكنه لا ينبغي أن يتحول إلى باب مغلق أمام الحق.

وربما ظن الإنسان أن المشكلة انتهت لأنه لم يعد يشعر بها. لكن الإعراض نفسه يطفئ حضورها في الوعي: ما لا يسمعه لا يقلقه، وما لا يسميه لا يطالبه. لذلك لا تجعل هدوءك الداخلي برهانًا على السلامة؛ اسأل سؤالًا أشد صدقًا: هل زالت المخالفة، أم أن الذي زال هو الصوت الذي كان يوقظني إليها؟

والقرب من الذكر لا يقتضي تعرضًا دائمًا لمواد تخيف النفس من غير فقه. يحتاج القلب إلى قرآن يتلى بتدبر، وسنة تفهم في سياقها، وعلم يجمع بين الحكم والرحمة. المطلوب أن يترك الجهل المتعمد، من غير أن يعيش في توتر لا ينتهي. البيان الصحيح يقوده إلى عبودية مقدورة، لا إلى فزع مبهم.

ارجع إلى موضع الذكر

محك هذه الوحدة باب واحد تتجنب اكتمال سماعه. ربما كان متعلقًا بعبادة أهملتها، أو عادة تؤذي أهلك، أو صلة قطعتها، أو مسؤولية تؤخرها. لا تحشد أبواب حياتك كلها، ولا تمنح نفسك حكمًا نهائيًّا؛ سمِّ الموضع الذي يزداد فيه انشغالك كلما اقترب البيان.

العمل الأول أن تعود إلى نص واحد في هذا الباب، فتقرأه في سياقه وتفهمه من مصدر معتبر، ثم تمنع نفسك من تحويله فورًا إلى قضية الآخرين. اكتب ما يطلبه منك أنت، وما بقي مجهولًا يحتاج إلى سؤال، وما ظهر بقدر لا يسمح لك بتأجيله وراء المجهول.

ثم اجعل للسماع أثرًا واحدًا يناسب قدرتك: موعدًا ثابتًا لعبادة ضيعتها، أو توقفًا عن كلمة تتكرر، أو جلسةً هادئة تفتح بها سؤالًا ظل مغلقًا. لا تنتظر أن يزول كل خوف قبل الحركة؛ أحيانًا لا يعرف القلب صدق رجوعه حتى يضع قدمه في أول الطريق.

واستعن بالله من غير أن تحتج بضعفك. الضعف يفتح باب الدعاء والطلب والاستعانة، ولا يمنح الإعراض اسم العجز. قل: يا رب، لا تجعل راحتي في البعد عن ذكرك، وأعنّي أن أسمع ما يغيرني. ثم ابق قريبًا من موضع البيان؛ فمن رحمة الله أن يريك الباب الذي كنت تدير وجهك عنه.

وقد يعود الإنسان إلى السماع، ويكتمل عنده من الحق ما يكفي، ثم يسمع في داخله اعتراضًا أعمق: أعلم، لكنني لا أريد أن يكون هذا الحكم فوق مرادي. هنا تنتقل المعركة من مسافة الأذن إلى موضع السيادة في القلب: من الذي يملك الكلمة الأخيرة، الوحي أم ما أريده أنا؟

الوحدة التاسعة عشرة: الهوى والاستكبار: حين ترفض النفس حكم الحق

حين يصير المراد ميزانًا

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]. تعرض الآية هوىً تجاوز الميل العابر حتى صار مطاعًا يقدم صاحبه ما يشتهيه على هدى الله.

الميل جزء من الابتلاء البشري. يحب الإنسان الراحة والقبول والمال، ويكره الخسارة والحرج، ولا يؤاخذ على مجرد الخاطر الذي يعرض ثم يجاهده. يبدأ سلطان الهوى عندما تصبح الرغبة مرجعًا: تقبل من الحكم ما يوافقها، وتضيق بما يخالفها، ثم تستدعي العقل ليصوغ لها أسبابًا تبدو مستقلة عنها.

لا يرفض صاحب الهوى الأدلة كلها. قد يحفظ النصوص ويحسن ترتيبها، لكنه يغير معيار الترجيح بحسب موقعه. يكبر عنده احتمال الرخصة حين تمسه المسألة، ويشتد في الاحتمال نفسه على غيره؛ يطلب برهانًا قاطعًا لما يكرهه، ويكتفي بوجه بعيد لما يحبه. الخلل في الميزان قبل أن يظهر في النتيجة.

قال الله لداود عليه السلام: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26]. جاء التحذير في مقام الحكم، حيث يحتاج الناظر إلى جمع الواقعة والدليل والعدل بين الأطراف.

الهوى لا يفسد شعورًا جانبيًّا فقط، يستطيع أن يغير وصف الواقع واستعمال الحجة، ثم يقود القرار بعيدًا عن السبيل.

الهوى لا يطلب دائمًا شهوةً ظاهرة، قد يطلب صورةً جميلة عن النفس. يريد الإنسان أن يبقى رحيمًا في أعين الناس فيسمي ترك الحزم رحمة، أو قويًّا فيسمي الاعتراف ضعفًا، أو وفيًّا لقراره فيجمع كل خبر يؤيده. تتبدل الرغبات، وتبقى الوظيفة واحدة: أن يظل المراد الشخصي فوق حكم الحق.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50]. وردت الآية بعد حجة مخصوصة على المعاندين، فلا تتحول إلى تهمة لكل من خالف فهمنا. وهي تقرر أصلًا باقيا: من أعرض عن هدى الله لا يدخل فراغًا محايدًا، يبقى معرضًا لقيادة الهوى وإن سماها استقلالًا.

ولا يعرف الهوى من مجرد موافقة المصلحة. قد يكون الحق موافقًا لما يحب الإنسان، وقد يخطئ طالب الحق مع صدق قصده. موضع الفحص هو الطريق: هل وصف الواقعة كاملة؟ هل جمع ما يخالف نتيجته؟ هل بقي ميزانه واحدًا عندما انتقل الحكم من عدوه إلى قريبه؟ وهل كان مستعدًّا في الأصل لجواب لا يريده؟

أما قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23] فقد تنوعت عبارات المفسرين فيه. حمله جماعة على علم الله بحال هذا العبد واستحقاقه، وقيل: على علم قام عند المتبع ثم آثر هواه عليه. والقدر المحرر أن الإضلال فعل لله يقع بعلم وحكمة، وأن الآية لا تبيح جعل كل صاحب معصية عالمًا معاندًا، ولا اختزال اللفظ في معنى واحد مع تعدد ما نُقل فيه.

هذا التحرير يحفظ طرفي القضية. لا يقع شيء في القلوب خارج علم الله ومشيئته، ولا يعاقب سبحانه عبدًا ظلمًا. والعبد في السياق اتخذ هواه إلهًا، فالفعل منسوب إليه حقيقة. يختار ويتبع، ثم يجري عليه من حكم الله ما يشاء عدلًا وحكمة. لا استقلال للعبد، ولا جبر يبرئ اختياره.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]. تكرار الصورة في القرآن يبين أن الخطر ليس وجود رغبة، بل منحها طاعةً لا تراجعها عبودية. وحين يبلغ الهوى هذا المقام لا يكفي صاحبَه مزيد من الحجج ما دام قد حسم سلفًا من الذي سيطاع.

قد يهزم الإنسان هواه في باب ثم يطيعه في باب آخر. يزهد في المال ويحمي حب الرئاسة، أو يضبط شهوة ويترك لنفسه لذة الغلبة في الخصومة. لذلك لا تمنحه مجاهدة سابقة حصانةً عامة؛ كل موضع تعارض امتحان جديد، وكل نصر يحتاج بعده إلى شكر وحراسة.

ومن أدق علاماته تغير الأسئلة. طالب الحق يسأل: ماذا يدل النص، وكيف تجتمع الأدلة، وما حقيقة الواقعة؟ أما من حسم مراده فيسأل: ما المخرج؟ ومن قال بهذا؟ وكيف أرد على من يعترض؟ قد تكون هذه الأسئلة مشروعةً في مواضعها، لكن ترتيبها يكشف أحيانًا أن الغاية حماية النتيجة لا اكتشافها.

ولا يعالج الهوى باتهام كل رغبة. الشرع يقر حاجات الإنسان ويفتح لها أبوابًا مباحة، والعقل يوازن بين المصالح. العلاج أن يبقى الحكم الأعلى لله، وأن يعرف المرء رغبته فلا يقدسها ولا ينكر وجودها. إنكار الميل يجعله يعمل خفيًّا، وتسميته تضعه أمام ميزان الوحي.

﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12]

إذا تحكم المراد احتاجت النفس أحيانًا إلى مرتبة أخرى تحميه: أن ترفض النزول تحت الحكم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34]. جمع النص الإباء في الفعل والاستكبار في القلب، ثم كشف مآل الموقف.

لم يكن الأمر ملتبس المصدر، ولا كانت العبادة موجهةً إلى آدم؛ إنما كان السجود امتثالًا لأمر الله وتكريمًا لمن كرمه. وحين سئل إبليس عن امتناعه لم يرجع إلى نقص في البيان، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76]. جعل تصوره عن نفسه حاكمًا على الأمر.

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: 76].

كلمة قصيرة رفعت «أنا» فوق مقام العبودية. اختار إبليس وصفًا من أوصاف الخلقة، وبنى عليه فضلًا لم يثبته الله، ثم جعل الفضل الموهوم مسوغًا للعصيان. وحتى لو صح ما ادعاه من تفاضل المادة، لم يكن ذلك يبيح رد أمر الخالق. القياس الذي يهدم النص ليس علمًا يهدي؛ هو أداة استعملها الكبر لحماية الإباء.

قال له ربه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12]. يتوسط الأمرُ السؤالَ كله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. في مقام العبودية لا يملك المأمور أن يجعل رضاه عن حكمة الأمر شرطًا للامتثال. قد يسأل طلبًا للفهم بعد التسليم، أما أن يرد الأمر لأنه لم يوافق منزلته التي تخيلها لنفسه فذلك هو موضع السقوط.

هنا يتبين الفرق بين الهوى والاستكبار. الهوى يجعل المراد الشخصي ميزانًا لقبول الحق، والاستكبار يأنف أن يكون فوق النفس حكم، أو أن يأتيها التصحيح ممن تراه دونها. قد لا تكون في المسألة لذة حسية، ويظل القبول ثقيلًا لأن الاعتراف سيخفض رتبة صنعتها النفس في عيونها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم (91).

حرر الحديث المرض من المظهر السطحي. حسن الثوب لا يساوي الكبر؛ الكبر بطر الحق واحتقار الناس. يجتمع الجانبان حين يرفض المرء كلامًا صحيحًا لأن قائله أصغر سنًّا أو أقل منزلة، أو حين يطعن في قدر الشخص ليعفي نفسه من وزن حجته. ينزل الناس في عينه كي لا ينزل هو للحق.

وقد يختبئ الاستكبار خلف الحرص على الهيبة: «إن رجعت الآن سقطت كلمتي»، أو «لن يسمع الناس مني بعد هذا». قد تكون إدارة أثر التصحيح مطلوبة، لكن الكبر يظهر حين تصبح المحافظة على مقام المتكلم أصلًا أعلى من إظهار الحق. الحكمة تبحث عن أصدق طريق للرجوع؛ والكبرياء يبحث عن طريق يبقي الرجوع بلا كلفة على صورة صاحبه.

ومن الاستكبار ما لا يرفع صوته. يعرف الإنسان أن الكلمة التي قيلت له صواب، فلا يردها بالحجة، لكنه يمنع أثرها من الظهور حتى لا يُنسب الفضل إلى قائلها. يغير القرار في صمت، أو يعيد الفكرة بعد زمن كأنها خرجت منه. استجاب للمعنى، وبقيت نفسه تأبى مقام الاعتراف؛ وما بقي من الكبر قد يكون أدق مما سقط.

العلم لا يعصم صاحبه إذا لم يثمر عبودية. عرف إبليس الأمر، وعرف من أمره، ثم استعمل ما عنده من إدراك في صناعة حجة للامتناع. كل معرفة تزيد قدرة الإنسان على البيان والجدل تزيد مسؤوليته أن يخفضها للوحي؛ وإلا صارت الأدوات التي كان يرجى أن تهديه حصنًا أدق لهواه.

ولا يصح اتهام كل عالم أو صاحب خبرة بالكبر لمجرد ثباته على رأيه. قد يكون الدليل معه، ويكون اعتراض غيره ضعيفًا. المحك أن يظل مستعدًّا لوزن الكلام بميزان واحد، وألا يجعل رتبته الشخصية جزءًا من البرهان، وألا يرى الرجوع نقصًا في قدره أمام الله.

من التبرير إلى الإصرار

لم يقف إبليس عند امتناع أعقبه ندم. لما انكشف خطؤه لم يقل: ظلمت نفسي، بل ثبت على حجته، ثم قال: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: 14]. طلب مهلة، ولم يجعلها زمنًا للتوبة؛ أراد أن يوسع فيها أثر السقوط الذي اختاره.

ثم أعلن: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 16-17]. نسب الإغواء إلى الله في مقام الاحتجاج، وأغفل إباءه واستكباره، ثم حوّل موقفه الشخصي إلى عداوة للصراط وأهله.

هذه الدورة هي القصة المؤسسة للمحور: أمر، فإباء، فاستكبار، فتفسير يصون «الأنا»، ثم إصرار، فطلب زمن يضاعف الأثر، فدعوة الآخرين إلى الطريق نفسه. لا يلزم أن تجتمع هذه المراحل في كل عاصٍ، ولا أن تقع بالسرعة ذاتها، لكنها تكشف كيف يختلف الذنب الذي يفتح التوبة عن الذنب الذي يحاط بسياج من التبرير.

وفي البشر قد يظهر الكبر في مشهد صغير لا يحتاج إلى جمهور ولا مشروع. يبين طالبٌ لمعلمه خطأً في معلومة، أو يصيب الابن في اعتراض أدبي على أبيه، فيعرف الكبير وجه الصواب ثم يجد في نفسه ثقلًا لأن الاعتراف جاءه ممن اعتاد أن يكون هو المعلِّم. هنا يقع الامتحان خالصًا تقريبًا: هل تنزل النفس للحق ولو جاءها ممن هو دونها سنًّا أو منزلة؟

ومن مكر النفس أن تحول عجزها عن عبادة إلى طعن في العبادة نفسها: يعجز عن خلق فيسخر من أهله، أو يفشل في ضبط لسانه فيتهم المتثبتين بالتصنع. وليس كل نقد للمتدينين من هذا الباب؛ فيهم خطأ ونقص. الخطر أن تتحول مرارة التقصير من ألم يدعو إلى التوبة إلى عداء للمعيار الذي كشف التقصير.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]. تكرر فعل الرؤية، ثم اختلف الاتخاذ.

لا تمنحنا الآية حق الحكم بأن من لم يقتنع بدليلنا مصروف عن الآيات؛ ربما ضعف استدلالنا أو خفيت عليه دلالة. وهي تضع أمام النفس خوفًا أدق: قد ترى السبيل ثم لا تتخذه، لا لأن علاماته غابت، بل لأن اتخاذه يطلب منك أن تتخلى عن منزلة أو قصة أو مراد صار عزيزًا.

وقال الله في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]. هذا خبر عن قوم كشف الله باطنهم، فلا يسقط على كل مخالف. لكنه يهدم وهمًا عامًا: اليقين الذهني وحده لا يحمل قلبًا اختار الظلم والعلو إلى الانقياد. يحتاج العلم إلى نفس تقبل أن تكون عبدًا.

اخفض النفس للحق

محك الوحدة رأي أو قرار تشتد حاجتك النفسية إلى بقائه. سمِّ ما يحميه: راحة، أو وجاهة، أو سلطة، أو صورة صواب قديمة. تسمية المصلحة لا تثبت خطأ الرأي، لكنها تخرج القوة الخفية من الظلام، وتلزمك أن تبحث كما لو كانت النتيجة لا تمسك شخصيًّا.

والعمل الأساسي أن تمنح تصحيحًا واحدًا جاءك من شخص تحت سلطتك حقه الكامل. اسمعه من غير مقاطعة، وافصل منزلته عن صدق قوله، ثم أظهر أثر الصواب حيث يلزم. لا يكفي أن تغير موقفك في السر إذا كان بقاء النسبة إلى نفسك يظلم صاحبه أو يثبت للناس خطأً قديمًا.

هذه الخطوة لا تعني أن كل ناقد مصيب، ولا أن التواضع سيولة تتبع آخر صوت. تزن الحجة، وترد الضعيف، وتمضي بما ترجح بعد بذل الوسع. الفرق أن النفس لا تدخل بوصفها دليلًا، وأن باب المراجعة يبقى مفتوحًا من غير اضطراب ولا تمثيل للتواضع.

واستعن بالله؛ فالمرء لا يخرج من سلطان هواه بقوة يدعيها لنفسه. قل: يا رب، أرني مرادي إذا لبس لباس الدليل، واخفضني لأمرك إذا ثقل عليّ النزول، ولا تجعل ما علمتُه مادةً أستكبر بها. ثم بادر بما ظهر، فالتأجيل يمنح التبرير زمنًا ليشتد.

إذا انكشف لك الهوى فلا تجعل انكشافه مادةً لاحتقار نفسك؛ احمد الله الذي أراك موضع المجاهدة، وخف أن تعود فتغطيه. رؤية الداء بداية عون، لا شهادة نجاة، والعمل الصادق هو أن يتغير الميزان عند القرار التالي.

إذا رفضت النفس حكم الحق حمت رفضها غالبًا بفعل في الخارج: كذب يثبت الرواية، أو ظلم يسكت المعترض، أو فسق يوسع المسافة بين القول والعمل. عندئذ لا يبقى المانع رغبةً أو منزلةً في الداخل؛ يصبح عملًا يحتاج صاحبه كل يوم إلى تشويه جزء من الحقيقة كي يواصل العيش معه.

الوحدة العشرون: فساد العمل الذي يحجب البصيرة

أوصاف رسخت في مقاومة الحق

تتكرر في القرآن صيغ نفي الهداية عن أقوام وُصفوا بالظلم أو الفسق أو الكذب والإسراف. لا تُقرأ هذه الصيغ خارج سياقاتها، ولا تُنقل إلى كل من وقع في معصية ثم ندم. إنها تكشف علاقةً بين عمل أقام عليه صاحبه، وموقف من الحق صار ذلك العمل جزءًا من مقاومته.

قال تعالى عن المشركين: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3]. صنعوا للشرك تفسيرًا دينيًّا يقدمه طريقًا إلى القرب.

لم يكن الكذب في السياق خبرًا عابرًا؛ كان افتراءً على الله يحمي عبادةً باطلة. حين ثقل عليهم أن يتركوا الأولياء الذين اتخذوهم، أعادوا تعريف الفعل نفسه: لسنا نعبدهم استقلالًا، إنما نطلب القرب. صار الكذب حارسًا للعمل، وصار العمل محتاجًا إلى الكذب كي يبقى مقبولًا في وعي أصحابه.

وفي قصة مؤمن آل فرعون قال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28]. كان القوم يندفعون إلى قتل رجل يقول ربي الله، فجاءهم صوت من داخل بيت فرعون يردهم إلى احتمال الصدق وعاقبة التسرع.

لا يحتاج فهم الآية إلى القطع في مرجع الوصف المختلف فيه عند المفسرين؛ السياق يقيم ميزانًا واضحًا: الإسراف والكذب ليسا طريقًا إلى الرشد. قوم يملكون السلطان، ويواجهون دعوة موسى بالتهمة والقتل، لا يجوز لهم أن يسموا اندفاعهم حفظًا للنظام ثم يطلبوا الهداية من الطريق نفسه الذي يسرف في الدم ويزور الحقيقة.

وقال تعالى في محاجة إبراهيم عليه السلام للملك: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258]. آتاه الله الملك، فاستعمل النعمة في محاجة الخليل في ربه. ولما انتقلت الحجة إلى طلوع الشمس من المشرق انقطع جوابه، ولم يتحول الانقطاع إلى إيمان.

الظلم في المشهد ليس انفعالًا منفردًا. إنه وضع الملك في غير غايته، ودعوى ما لا يملك، ومقاومة للتوحيد بعد إقامة الحجة. حين يستند العمل الفاسد إلى قدرة أو امتياز، يصبح الاعتراف بالحقيقة تهديدًا لبناء كامل؛ لذلك يحتاج صاحبه إلى قهر الدليل أو إبعاد حامله بدل أن يراجع نفسه.

وقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. سبق العلم بالرسالة، ثم جاء الأذى والزيغ، ثم ذكر الجزاء الإلهي ونفي الهداية عن القوم الفاسقين.

لا تستوفي هذه الوحدة تفصيل الإزاغة؛ موضعها يأتي بعد بيان الموانع. الذي يلزم هنا أن الفسق لم يبق خارج القلب. خرج القوم عن الطاعة وآذوا الرسول مع علمهم، فصار عملهم جزءًا من الطريق الذي عوقبوا عليه. الفعل لا ينتهي عند الجوارح؛ يعود إلى البصيرة التي صدر عنها ويؤثر في استعدادها للحق.

تختلف هذه السياقات، ويجمعها رسوخ مقاومة: افتراء يحمي الشرك، وإسراف وكذب في مواجهة الرسول، وظلم يستعمل الملك لدفع التوحيد، وفسق أعقب علمًا وأذى. لا تتحدث النصوص عن مؤمن زل ثم بادر إلى التوبة، ولا عن مخطئ جهل وجه الصواب. إنها تحذر من وصف أقام عليه قوم وجعلوه طريقًا.

وباب التوبة لا تغلقه هذه الأوصاف. من صدق بعد الكذب، ورد المظلمة، وأصلح بعد الفسق، وأناب إلى الله، لم يبق مصرًّا على الحال التي توعدها النص. رحمة الله لا تجعل الذنب بلا أثر، ووعيده لا يحول الذنب إلى قدر لا رجعة منه. موضع الخوف هو الإقامة والحماية، وموضع الرجاء صدق الرجوع.

عمل يحتاج إلى رواية تحميه

لا يقع الفعل الفاسد في الخارج ثم يترك النظر كما كان. يواجه صاحبه سؤالًا يهدد راحته: كيف أعيش مع معرفتي أنني ظلمت أو كذبت؟ أمامه أن يعترف ويصلح، أو أن يعيد صياغة الواقعة حتى يبدو ما فعله مقبولًا. إذا اختار الثاني بدأ الحجاب من داخل الرواية.

يميل والد إلى أحد أبنائه في العطية أو الحكم، ثم يصعب عليه أن يرى أثر ميله. فيبدأ بتغيير صورة المحروم: يصفه بالجحود، ويجمع أخطاءه القديمة، ويجعل اعتراضه دليلًا على عدم الاستحقاق. لم يعد الظلم وحده هو المشكلة؛ صار الظلم محتاجًا إلى رواية أخلاقية تحفظ للظالم صورة العدل في عينه.

وفي خصومة عامة قد يعرف المتكلم أن خبرًا ناقصًا سيضر بمن يخالفه، فينقله بصيغة توهم اليقين. حين يواجه بالجزء المحذوف لا يناقش أثر الحذف، بل يقول إن الطرف الآخر ارتكب ما هو أكبر. انتقل من سؤال صدق خبره إلى محاكمة خصمه، لأن بقاء الخصم مذنبًا في الجملة يريحه من أمانة الجزئية.

هكذا يصنع العمل لغةً تحميه. الظلم يسمى حزمًا، والكذب إدارةً للرسالة، والتمييز وفاءً، والتشفي غيرةً على الحق. الأسماء وحدها لا تغير الأحكام، لكنها تخفف ألم الفعل وتسمح بتكراره. كلما قبل القلب الاسم الجديد، صار الرجوع إلى الاسم الشرعي أشد إيلامًا.

وقد تصدق الجمل واحدةً واحدة، ثم يكذب مجموعها. يذكر الإنسان وقائع منتقاة، ويخفي ما يغير دلالتها، ويقدم الاستثناء كأنه الأصل؛ فلا ينطق بكذبة صريحة، لكنه يصنع في ذهن السامع صورة يعلم أنها ستنهار لو اكتملت التفاصيل. أمانة الحقيقة أوسع من سلامة كل جملة منفردة.

فساد العمل يضغط على استعمال الدليل. لا يجعل كل فاسق مخطئًا في كل مسألة، ولا يمنح كل صالح عصمةً في الفهم. لكنه يخلق مصلحةً في نتيجة بعينها. من بقيت في يده مظلمة يخشى من النص الذي يطالبه بها، فيقرأه تحت ضغط الخسارة؛ ومن بنى مكانته على رواية يخشى كل شاهد يفتحها.

لهذا لا تنفصل التزكية عن العلم. الأدوات العلمية لازمة، وجمع النصوص والقرائن واجب، غير أن الأداة تعمل في قلب له محاب ومخاوف. يستطيع الإنسان أن يحسن البحث عن وجوه اللغة، ثم ينتقي منها ما يحمي فعله. إصلاح القصد والعمل لا يغني عن العلم، والعلم وحده لا يعالج إرادةً ترفض نتيجته.

والعمل الفاسد لا يكتفي بأن يقع؛ قد يطلب بعده علمًا يخدم بقاءه. قبل الفعل كان صاحبه يسمع القولين بهدوء، وبعده صار أحدهما يهدد ماضيه ومكاسبه. لا يجعل ذلك القول الآخر باطلًا، لكنه يكشف خطرًا أدق: أن تتحول حاجته الشخصية إلى قرينة علمية تعمل في ترجيحه وهو لا يشعر.

ثم قد تكبر الرواية حتى تصبح ذاكرة جماعية لفريق شارك في الفعل نفسه. يكرر أفراده تفسيرًا واحدًا، حتى لا تعود المراجعة تصحيحًا شخصيًّا، بل تهديدًا لسلسلة من القرارات والولاءات. عندها لا يحتاج الخطأ إلى مدافع واحد؛ يصنع حول نفسه بيئةً كاملة تحفظ قصته وتقاوم فتح أصلها من جديد.

والفسق في أصله خروج، والسياقات القرآنية تحدد درجته وحكمه. لا يصح أن يصف المرء كل مخالف أو عاصٍ بأنه من القوم الذين نفى الله عنهم الهداية، ولا أن يجعل اللفظ أداةً لإسقاط الناس. المقصود أن الخروج المتعمد عن الطاعة، إذا صار مقامًا يقاوم الحق، يعرض صاحبه لحرمان لا يملكه لنفسه.

من رحمة الشريعة أنها لا تطلب من المذنب أن يصنع ماضيًا جديدًا، بل أن يصدق في الحاضر. لا يستطيع محو ما قاله، لكنه يستطيع تصحيحه؛ ولا يملك إلغاء أثر كل ظلم فورًا، لكنه يبدأ برد ما يقدر عليه. بهذا يتوقف العمل الفاسد عن طلب كذب جديد كل يوم.

وأحيانًا يفك اعتراف واحد عقدًا صنعتها سنوات من الدفاع. ما دام الأصل مخفيًّا يحتاج صاحبه إلى عشرات التفاصيل ليشرح آثاره، فإذا سمّى الحقيقة عادت الوقائع إلى بساطتها المؤلمة. ألم الصدق ثقيل، لكنه أخف من حياة تحتاج إلى حراسة كل كلمة حتى لا ينكشف تناقضها.

والبصيرة لا تعود بقرار ذاتي مجرد. يطلب العبد من الله أن يريه الحق، ويستغفره من اختياره، ويأخذ بالأسباب العلمية والعملية. إصلاح الفعل يرفع ضغطًا صنعه بنفسه، ثم يبقى الفتح من فضل الله؛ فلا يعجب بصدقه، ولا يرى توبته ثمنًا أوجب به النور.

الصدق طريق، والكذب طريق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا» رواه مسلم (2607).

ثم قال صلى الله عليه وسلم: «وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». جعل الحديث كل خصلة طريقًا يقود إلى ما بعدها.

الصدق لا يقتصر على مطابقة لفظة لواقعة. يدخل فيه صدق الإنسان مع نفسه، وصدق وصفه للموقف، وصدق عرضه على من يستفتيه أو يستشيره. من تحرى الصدق صار الاعتراف أقرب؛ لأنه لا يحتاج كل مرة إلى حماية صورة مختلفة. وقد تؤلمه الحقيقة، لكنها تعيد قدمه إلى أرض ثابتة.

والكذب يفسد معرفة المرء بنفسه قبل أن يضلل غيره. يكرر رواية صنعها حتى يألفها، ثم يبني عليها قرارات وعلاقات. بعد زمن يصبح فتح أصل القصة تهديدًا لأجزاء كثيرة من حياته، فيزيد دفاعه عنها. لم تعد الكذبة وسيلةً صغيرة؛ صارت بابًا إلى فجور يحمي بعضه بعضًا.

ويبدأ تشويه الحقيقة أحيانًا بنصفها. يقول الإنسان ما وقع، ويسكت عما يغير دلالته، ثم يحتج بأنه لم ينطق بباطل. لكن أمانة الخطاب لا تتعلق بالمفردات وحدها؛ تتعلق بالصورة التي تعمد أن يخرج بها السامع. من صنع فهمًا يعلم أنه غير مطابق للواقع لم تنجه صحة عباراته من فساد قصده وأثره.

ويشتد الخطر حين يُنصر الحق بوسيلة باطلة. يظن المرء أن سلامة القضية العامة تجيز مبالغةً أو اجتزاءً أو خبرًا لم يثبت. غير أن الوحي لا يحتاج إلى كذب يحمله، والقضية الصحيحة تتضرر ممن يجعلها مبررًا لترك الصدق. الذي يتعلم الكذب لن يتوقف دائمًا عند حدود المصلحة الأولى.

الصدق يفتح منفذًا للنور في أكثر المواضع ألمًا. يقول الإنسان: لم أثبت، أو نقلت ما لا أعلم، أو أخفيت جزءًا، أو ظلمت في الحكم. تنقص صورته عند بعض الناس لحظةً، لكنه يخرج من الحاجة إلى حماية الوهم. والاعتراف الذي يبدو خسارة قد يكون أول مرة يرى فيها الواقعة كما هي.

أما الظلم فيحتاج إلى عتمة تناسبه. لو رأى الظالم حق من أمامه كاملًا لتعذر عليه الاستمرار، فيضخم خطأه، أو ينزع عنه صفة الاستحقاق، أو يقسم الناس إلى من يستحق العدل ومن لا يستحقه. كل مظلمة جديدة تطلب من القلب أن يطفئ مصباحًا آخر.

ومن هنا يفهم نفي الهداية في سياق الظلم من غير أن يتحول إلى قاعدة آلية على كل واقعة. الله يهدي من يشاء فضلا، ويعاقب من يشاء عدلًا، ولا يظلم أحدًا. والنصوص تبين أن الإقامة على الظلم والكذب ليست محايدة تجاه البصيرة؛ هي طريق يخاف صاحبه أن يزداد بعدًا إذا لم يبادر إلى الإصلاح.

أزل ما يضطرّك إلى تشويه الحقيقة

محك الوحدة سلوك قائم لا تستطيع حمايته إلا بحذف أو مبالغة أو ظلم. لا تسأل أولًا عن مقدار اضطراب شعورك؛ اسأل: ما الحقيقة التي أخشى ظهورها لأنها ستطالبني بتغيير عملي؟ وما الجملة التي أكررها كي أبقي الفعل في مكانه؟

العمل الأساسي أن تصحح حقيقة واحدة شوهتها. أكمل خبرًا نقلته ناقصًا، أو ارفع اتهامًا لم يثبت، أو أعد توصيف فعل سميته باسم ألطف. إن تعلق الأمر بحق إنسان، فابدأ بما يرد الحق بحسب الشرع والقدرة. لا تجعل انتظار حل شامل عذرًا لإبقاء جزء واضح من الظلم.

يخيف الاعترافَ أحيانًا أن بناءً من العلاقات والقرارات قام على الرواية القديمة. ولا يعد الوحي بأن الصدق بلا كلفة؛ لكنه لا يترك صاحبه في الوهم أيضًا. الكذب الذي يريحك اليوم يحمّلك غدًا حقوقًا جديدة، ويجعل قلبك محتاجًا إلى كذب آخر يحمي الأول. وكل يوم تأخير يزيد ثمن الرجوع.

لا تجعل الإصلاح ثمنًا تطالب به الله بكشف خاص. تصلح لأن الصدق والعدل أمره، وتستعين به على ما عجزت عنه، وترجو أن يفتح لك من هدايته. ربما بقيت مسائل تحتاج إلى بحث بعد التوبة، لكنك أزلت مانعًا كنت مسؤولًا عن صنعه.

والاعتراف هنا عبادة للسر قبل العلن؛ قد لا يحتاج كل خطأ إلى إعلان واسع، لكنه يحتاج بينك وبين الله إلى اسم صادق وفعل يصلحه من غير تأخير؛ فالتأجيل يوسع حاجة الوهم إلى الحماية.

وحين يضعف سلطان العمل الفاسد قد يظهر مانع آخر: نعمة أو نسب أو بيئة أو مصلحة يراها الإنسان جزءًا من نفسه. لا يحتاج هذا المانع دائمًا إلى كذبة ظاهرة؛ يكفي أن يجعل ما يملكه أو يرثه برهانًا على أنه الأحق، وأن يزن الهدى بما يحفظ له عالمه القريب.

الوحدة الحادية والعشرون: حين يصبح الانتماء والمصلحة أقوى من الحق

الجنة التي صارت برهانًا

قال الله تعالى في صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]. لم يكتف الرجل بالانتفاع بما آتاه الله؛ جعل كثرة المال وقوة النفر ميزانًا يقيس به نفسه وصاحبه، ثم دخل إلى الغيب من الباب نفسه.

قال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 35–36]. انتقل من وصف ما يملك إلى حكم على دوام الدنيا ومآل الآخرة.

لم يقل: أرجو بقاءها، ولا قال: أسأل الله أن يحفظها. صارت النعمة في وعيه دليلًا على أنها لا تزول، ثم دليلًا على أنه سيؤتى خيرًا منها إن كان ثمة بعث. لم يعد النجاح أمرًا يحتاج إلى شكر ومحاسبة؛ صار شهادةً يمنحها لنفسه على سلامة الطريق ومحبة الله له.

هذا التحول من أخطر عمل المصلحة في البصيرة. لا تطلب المصلحة أن تبقى فحسب؛ تعيد تفسير الحقائق كي يصبح بقاؤها معقولًا ومستحقًّا. إذا ربح الإنسان ظن أن اختياره كله صحيح، وإذا كثر أتباعه حسب الكثرة برهانًا، وإذا استقر له نفوذ صعب عليه أن يتصور أن الفتح قد يكون امتحانًا لا تزكية.

جاءه التذكير من صاحب أقل مالًا ونفرًا: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 37–38]. أعاده من الثمرة التي جمعها إلى الخلق الذي لم يصنعه.

لم يرد الناصح على المال بمال أكثر، ولا على النفر بنفر أعز. أعاد مركز النظر إلى الله: هو الخالق، وهو الرب، والعبد لا يكتسب من كثرة ما في يده حقًّا في تغيير حقائق الإيمان. حين يستعيد القلب أصله يضع النعمة في موضعها: عطاء يوجب الشكر، لا مرتبة تسمح لصاحبها أن يحاكم الوحي.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: 39-40]. اعترف بالتفاوت، ورفض أن يجعله حكمًا نهائيًّا.

قول ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39] يعيد النعمة إلى واهبها، ويمنع صاحبها من بناء الأمان على قدرته. لم يطلب منه أن يكره جنته أو يهمل أسبابها؛ طلب أن يدخلها عبدًا. الفرق كبير بين من يرى الثمرة أمانةً في يده ومن يراها برهانًا على أنه فوق المراجعة.

وظل الرجل داخل الميزان الذي صنعته جنته حتى أحيط بثمره، فقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 42]. انكشف عجز النفر والمال حين احتاج إليهما.

لا تعني القصة أن زوال كل نعمة عقوبة معلومة، ولا أن الغنى قرينة ضلال. القرآن يذم الظلم والكفر الذي قام في قلب صاحب الجنتين، ويكشف وهمًا يتكرر: أن النجاح الدنيوي يمنح صاحبه تفسيرًا معصومًا لنفسه. وقد يوسع الله على مستقيم وفاجر، ويضيق على نبي وصالح؛ فلا تكون الدنيا وحدها ميزان القرب.

تأتي قوة القصة من أن المصلحة لم تكن خارج النظر، بل أعادت تشكيله. رأى الرجل نفسه أعز لأن عنده نفرًا، ورأى جنته أبقى لأنها ناجحة، ورأى آخرته مضمونة لأن دنياه مزدهرة. لم يقل له أحد: اترك مصلحتك، إنما قيل له: لا تجعلها مصدر العقيدة ولا ميزان الناس.

وفي الواقع قد تكون الجنة مشروعًا ناجحًا، أو سمعةً راسخة، أو بيتًا يلتف حوله الناس، أو علمًا كثر به التلاميذ. هذه كلها نعم ومسؤوليات. يبدأ الحجاب حين يقول صاحبها في باطنه: لو كان في طريقي خلل لما أعطيت هذا كله، ثم يجعل استمرار العطاء حجةً ترد كل نصيحة.

وختمت القصة بقول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: 44]. عندما سقطت أسباب الحماية ظهر ما كان ثابتًا قبل سقوطها: الولاية لله. لم تخلق الكارثة الحقيقة، إنما نزعت الستار عن اعتماد وضعه صاحبه في غير موضعه.

العبد المهتدي لا ينتظر زوال النعمة حتى يعرف حدودها. يراجعها وهي مزدهرة: من أين جاءت، ولمن تنسب، وفي أي طاعة تستعمل، وما الحق الذي قد تمنعه من رؤيته؟ الشكر ليس لفظًا بعد النجاح؛ هو إبقاء النجاح تحت حكم المنعم، واستعداد أن يسمع صاحبه من الأقل منه مالًا ونفرًا.

وقد يكون الحجاب حول صاحب النعمة مصنوعًا بأيدي من حوله. يفسرون كل توسع بأنه توفيق خاص، ويبعدون عنه الأخبار التي تزعجه، ويعدون المراجعة حسدًا. لا يحتاج أن يأمرهم بالكذب؛ يكفي أن يعرفوا ما يرضيه. لذلك تكون النصيحة التي تؤلم نعمته أحيانًا من تمام حفظها، لا عدوانًا عليها.

الموروث حين يتحول من نعمة إلى حجة

قال الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. لم يذكروا برهانًا على الطريق، بل جعلوا وجود الآباء عليه دليلًا على الهدى. امتزج الاعتقاد بالهوية حتى بدا فحصه تهديدًا للأسرة والتاريخ.

الموروث ليس مذمومًا في ذاته. يتلقى الإنسان من أهله اللغة والدين والأخلاق، وينتفع بعلم السابقين وتجربتهم، ولا يستطيع كل مسلم أن يستنبط الأحكام بنفسه. التقليد المعتبر لأهل العلم حاجة مشروعة. المذموم أن يمنح السابقون العصمة لمجرد السبق، وأن يصبح المألوف حاكمًا على ما أنزل الله.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23]. نسب القرآن هذا الاحتجاج إلى المترفين، فاجتمع فيهم سلطان الموروث ومصلحة الامتياز.

المترف لا يدافع عن فكرة مجردة فقط. النظام الموروث يمنحه مكانته، والاعتراف بخطئه قد يغير ترتيب المجتمع الذي يستفيد منه. لذلك تبدو المحافظة على الآباء وفاءً، وهي في باطنها أحيانًا محافظة على موقع الحاضر. كلما تداخلت العقيدة بالمصلحة احتاج الفحص إلى صدق أشد.

جاءهم السؤال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: 24]. لم يأمرهم الوحي بإهانة الآباء أو محو التاريخ؛ طالبهم بقبول الأهدى. الوفاء لا يكون بتحويل خطأ الميت إلى دين دائم، والمحبة لا تمنح أحدًا حق الوقوف بين العبد وربه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]. المقابلة بين المنزل والمألوف تكشف مركز الحكم: أيهما يتبع إذا افترقا؟

ولا يختص هذا المانع ببيئات فاسدة، قد يقع داخل مدرسة معتبرة أو أسرة صالحة. يختلط على الإنسان صحة الأصل بعصمة كل عادة أو اجتهاد، فيتحول الشعار الصحيح إلى غطاء لخيارات بشرية. عندها يبدو نقد الخطأ خروجًا من الهوية كلها، ويصبح الانتماء الذي كان نعمةً حجابًا عن مراجعة بعض ما جرى باسمه.

في الأسرة قد يبقى عرف يظلم بعض أفرادها، ويقال لمن يسأل عنه: هكذا وجدنا أهلنا. يثقل التغيير لأن العادة مرتبطة بالاحترام والصلات، لا لأن دليلها قوي. المطلوب فقه يجمع الحق والأدب: يراجع الموروث من غير تشفٍّ، ويحفظ مكانة الأهل من غير أن يجعل محبتهم تشريعًا.

لا يحتاج القلب إلى كراهية انتمائه كي يتحرر من سلطانه. يشكر ما فيه من خير، وينسب الفضل إلى الله، ويزن ما ورثه بالوحي، ويقبل أن يكون في البيت أو المدرسة أو الجماعة صواب وخطأ. النضج الإيماني لا يطلب هوية بلا جذور، يطلب جذورًا لا تمنع الشجرة من التوجه إلى نور الله.

والهوية تمنح الإنسان أمانًا ومعنى، ولذلك يكون فحصها مؤلمًا. يخشى أن يؤدي نقد جزء منها إلى فقد الانتماء كله، فيدافع عن الجزئي كما يدافع عن أصل الدين. التحرير يبدأ بالفصل: ما الذي ثبت بوحي، وما الذي هو اجتهاد، وما الذي هو عادة؟ حين تتمايز الطبقات يمكن حفظ الصحيح وترك الخطأ من غير انهيار.

كما أن مخالفة الموروث لا تكون فضيلة لذاتها. قد يتبع الإنسان الجديد لهوى التميز كما اتبع غيره القديم لهوى الألفة. الميزان ليس القدم ولا الحداثة، ولا موافقة الجماعة ولا مخالفتها؛ الميزان ما جاء به الله وفُهم بأدواته المعتبرة. النفس تستطيع أن تصنع هويتها حتى من شعار التحرر.

حين تعيد المصلحة تفسير الدليل

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: 107]. وردت الآية في سياق الكفر بعد الإيمان، مع استثناء المكره وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فلا تُنزل أحكامها على كل مسلم قدم مصلحةً في معصية.

لكن التعبير يكشف أصلًا يعمل بدرجات: استحباب الدنيا على الآخرة. ليست المشكلة دائمًا غياب العلم بالآخرة؛ قد تكون الآخرة معلومةً في اللسان، ثم يغيب وزنها ساعة القرار. القريب حاضر بحواسه وثمنه عاجل، أما الباقي فيحتاج إلى إيمان يجعله داخل الحساب الفعلي.

وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 16-17]. الإيثار اختيار بين محبوبين، لا مجرد معرفة نظرية. قد يقر الإنسان أن الآخرة خير، ثم يتصرف كأن البقاء كله في الفرصة التي أمامه. الخلل بين ما يعتقده في الجملة وما يحكم فعله عند التعارض.

المصلحة المشروعة معتبرة في الشريعة. حفظ النفس والمال والأسرة مقاصد، والضرورة والإكراه والرخص أبواب لها ضوابطها. الانحراف أن تمنح المصلحة نفسها حق تعريف الحكم، وأن يبدأ الإنسان بالنتيجة التي يريدها ثم يطلب من النص صيغةً تحفظها. عندئذ لا يعود يزن المصلحة بالشرع؛ يزن الشرع بالمصلحة.

وأحيانًا لا تنتظر المصلحة لحظة تنفيذ الحكم؛ تدخل قبله في تصوير الواقع نفسه. صاحب الامتياز يصف امتيازه ضرورةً، ومن ربط دخله بنظام معين يضخم ضرر تغييره، ومن اعتاد موقعًا اجتماعيًّا يرى البديل غير واقعي قبل أن يختبره. هكذا لا تقول النفس دائمًا: لن أطيع؛ بل تعيد رسم الوقائع حتى يبدو ما تريده هو المعقول الوحيد.

يستعمل المرء تقدير المآلات بصدق حين يختار طريقةً أرفق أو زمنًا أنسب لتنفيذ حق ثابت، وتبقى خطته متجهةً نحوه. ويستعمله ستارًا حين لا ينتهي التأجيل إلى خطوة، وكلما قرب وقت العمل ظهرت مفسدة جديدة. اتجاه الحركة أصدق من جمال المصطلح.

ومن علاماتها اختلال معيار الإثبات تبعًا لما يهدد الموجود. يطالب بدراسة مطولة لكل ضرر محتمل في التغيير، بينما يقبل بطمأنينة تقديرات ضعيفة إذا أبقت النظام الذي ينتفع به. ليست القضية هنا مجرد ميل نفسي؛ لقد دخلت المصلحة في صناعة ما يعده «واقعًا» و«احتمالًا معتبرًا».

زن ما تملك بما أنزل الله

محك هذه الوحدة شيء تملكه أو ترثه أو تخشى خسارته حتى صار جزءًا من تفسيرك للحق: نعمة، أو مكانة، أو عرف، أو انتماء. اسأل: هل أراه أمانةً تحت حكم الله، أم أستعمل وجوده برهانًا على أن طريقي كله صحيح؟

العمل الأساسي أن تراجع مسألة واحدة تحميها هويتك أو مصلحتك. ابدأ من النص والسياق والفهم المعتبر، لا من سؤال: كيف أبقي كل شيء كما هو؟ اكتب الثمن الواقعي الذي تخشاه، ثم افصل بين ثبوت الحكم وطريقة تنزيله؛ فقد يحتاج التنفيذ إلى حكمة وتدرج، ولا يحتاج الحق إلى إنكار.

إن كانت المسألة موروثةً عن أهلك، فاجمع البر بالوالدين والأقارب مع الامتناع عن الباطل. لا تجعل التصحيح مناسبةً لإذلالهم، ولا تجعل الأدب ذريعةً لدوام الخطأ. يستطيع المؤمن أن يقول كلمةً رفيقةً ثابتة، وأن يحتمل شيئًا من سوء الفهم من غير أن يبيع حكم ربه.

ولا يكفي أن تقول إن الوحي فوق الانتماء في العبارة العامة. يظهر الترتيب عندما يمس التصحيح عادةً عزيزة أو امتيازًا قائمًا. هناك يعرف القلب هل يحب أهله في الله، أم يجعل محبتهم بابًا يمنع عنه حكم الله.

وإن كانت نعمةً ناجحة، فادخل عليها بقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39]. راجع أثرها في ميزانك: هل زادتك شكرًا وقابليةً للنصح، أم جعلتك ترى المخالف أقل قيمة؟ النعمة التي تردك إلى واهبها هدى، والتي ترفعك عن حكمه فتنة ولو اتسع ظاهرها.

واستعن بالله على كلفة المفارقة؛ فالإنسان اجتماعي، وفقد القبول يؤلمه. لا يحتج بهذا الألم على ترك ما بان، ولا يدعي بطولةً لا يملكها. يطلب بدائل مباحة، ويختار الرفق، ويثبت خطوةً بعد خطوة. الهداية لا تطلب منه أن يقطع كل رابطة، بل أن يعيد كل رابطة إلى مرتبتها تحت عبودية الله.

والمؤمن لا يطلب فقرًا ولا عزلةً ليصح قلبه؛ يطلب أن يبقى ما عنده خادمًا للعبودية، لا سيدًا عليها.

كل مرة تُجعل فيها المصلحة دليلًا يتعلم القلب أن العالم القريب هو الحكم. ومع التكرار قد لا يحتاج أحد إلى الضغط عليه؛ يحمل في داخله نظرة الأسرة ومكانة الطبقة وخوف الخسارة. ثم يأتي الذنب المتكرر فيصنع أثرًا أعمق: لا يحمي شيئًا خارج القلب فقط، بل يغير حساسيته من الداخل.

الوحدة الثانية والعشرون: الذنب الذي يصنع حجابًا

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: 14]

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. وردت الآية في المكذبين بيوم الدين الذين يعتدون ويصفون آيات الله بأنها أساطير الأولين. وربطت الران بما كانوا يكسبون؛ أعمال تتكرر وتستقر حتى تغطي القلب وتؤثر في تلقيه للحق.

في الوحدة السابقة كان النظر إلى العمل الفاسد حين يحتاج إلى رواية تحميه وتقاوم انكشاف الحق. أما هنا فالسؤال عن أثر الكسب المتكرر في القلب نفسه: كيف يخف ألم الذنب حتى يصنع حجابًا. ولا تُنقل النهاية التي وصف بها أولئك إلى كل مؤمن وقع في ذنب ثم ندم؛ فالمؤمن يزل ويستغفر، ويضعف ثم يعود، وقد يبقى أصل الإيمان والتعظيم حيًّا مع المعصية. لكن الآية تمنع تهوين الكسب المتكرر؛ فما تفعله الجوارح لا يمر خارج القلب كأنه جسم مغلق لا يتأثر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ» رواه الترمذي (3334)، وقال: حديث حسن صحيح.

جمع الحديث طريقين بعد الخطيئة. نزع واستغفار وتوبة تصقل القلب، أو عودة تضيف أثرًا إلى أثر. لم يجعل الوقوع تعريفًا نهائيًّا للعبد، ولم يجعله حادثًا بلا نتيجة. السؤال الفاصل: ماذا يحدث بعد الذنب؟ هل يقطعه صاحبه ويعود، أم يكرر ثم يوسع حياته كي تتسع له؟

الران لا يلزم أن يشعر به صاحبه في صورة ظلمة حسية أو انقباض دائم. يظهر أثره في تغير العلاقة بالمعصية والذكر. كان الفعل يهزه، ثم صار يمر بخفة؛ كان النص يوقظه، ثم صار يبحث فورًا عن استثناء؛ كان يستغفر منكسرًا، ثم صار يعالج القلق بتغيير اسم الذنب.

ليس في الحديث سلم زمني يحق لنا أن نطبقه على الأشخاص أو نحدد به مقدار ما في القلوب. المقصود بيان الأثر والتراكم، وفتح باب الصقل بالتوبة. يعلم الله مقدار كل قلب، ولا يجوز لأحد أن يقول عن معين إن الران قد استولى عليه. المرآة تعود إلى حركة النفس نفسها.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**نزع واستغفر وتاب**» يجمع أركان حركة الرجوع. النزع مفارقة للفعل، والاستغفار طلب المغفرة، والتوبة عودة إلى الله. لا يكفي أن يكره المرء النتيجة وهو متمسك بالسبب، ولا أن يردد الاستغفار ولسانه أو يده ماضية في اختيار الطريق نفسه.

وقد يحتاج نزع الذنب إلى ترتيب لا إلى لحظة شعورية خاطفة. من رسخت عنده عادة لا يملك دائمًا أن يمحو داعيها فورًا، لكنه يملك أن يخرج من الإقامة عليها: يغلق مدخلًا، ويطلب عونًا، ويبتعد عن زمن أو مكان يضعفه، ويبني بديلًا مباحًا. بقاء الصراع ليس الهزيمة؛ الخطر أن يتحول الصراع إلى عذر للبقاء.

الخطأ الذي يعقبه انكسار ليس كالخطأ الذي يعقبه دفاع. الأول يؤلم صاحبه لأنه ما زال يرى المسافة بينه وبين أمر الله، والثاني يطلب أن يغير الميزان حتى تزول المسافة في الوهم. قد يظل الفعل واحدًا في الظاهر، بينما يختلف اتجاه القلب اختلافًا عظيمًا.

بعد حديث الران لا يملك العبد أن يقول: هذه خطيئة صغيرة لا تبلغ قلبي.

ولا يملك أن يقول: بلغ الأثر حدًّا لا ينفع معه رجوع.

الذي حذر من النكتة السوداء هو الذي أخبر أن النزع والاستغفار والتوبة تصقل القلب. الخوف يدفع إلى المبادرة، والرجاء يمنع اليأس. إذا فصل أحدهما عن الآخر انقلب التحذير قنوطًا أو انقلب الرجاء أمنًا يجرئ على العودة.

عودًا عودًا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ» رواه مسلم (144). العرض يتكرر، وفي كل مرة يقع شرب أو إنكار.

يشبه الحديث التتابع بنسج الحصير عودًا بعد عود. لا تأتي الفتنة دائمًا في حدث عظيم يعرف الإنسان أنه سيغيره، قد تأتي في نظرة، أو كلمة، أو مكسب يسير، أو سكوت يرضي المجلس. كل مرة تبدو صغيرة، ومجموع المرات يصنع هيئةً للقلب.

إشراب الفتنة أعمق من مرورها. تمر على المؤمن خواطر ومشاهد ودعوات لا يختار أصل ورودها، ثم يكون موقفه منها. إذا قبلها وأدخلها وسكن إليها تركت أثرًا، وإذا أنكرها بقلبه وما قدر عليه من عمل تكونت فيه مقاومة. مجرد الابتلاء لا يساوي السقوط.

ويصف الحديث مآلًا مخيفًا للقلب الذي تتابع عليه القبول حتى يصير «لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». غاية الخطر ليست كثرة المخالفات فقط، انقلاب الأداة التي يعرف بها الإنسان المخالفة.

هذه النهاية لا تقع حتمًا لكل من عثر، ولا نملك أن نرتب لها عددًا من المرات. الحديث يرسم اتجاهين: قبول يترك أثرًا، وإنكار يترك أثرًا. لذلك تكون كل مواجهة فرصةً صغيرة لبناء القلب، لا مجرد اختبار ينتهي بانتهاء اللحظة.

يبدأ الاعتياد في اللسان بكلمة كان المرء يستثقلها، ثم يقولها حياءً من الجلساء، ثم يفتح هو بابها. ويبدأ في النظر بمشهد يصرف عنه بصره، ثم يطيل قليلًا، ثم يبحث عنه. ويبدأ في الأمانة بتجاوز يعتذر عنه مرة، ثم يدخل في تعريف «الطريقة المعتادة».

لا يحتاج التكرار إلى قرار واعٍ في كل مرة. العادة تختصر الطريق؛ ما كان يحتاج إلى صراع يصبح أسرع، وما كان يوقظ الضمير يحتاج إلى صوت أعلى. هذه السهولة المكتسبة لا تسقط المسؤولية، لكنها تفسر لماذا كانت المبادرة في أول الطريق رحمةً بالنفس.

من أخطر خداع التأجيل أن يقول الإنسان: سأترك حين تهدأ ظروفي. لا يدري ما الذي سيتغير قبل أن تهدأ، ربما يقوى الداعي وتضعف الحساسية ويكثر ما يتصل بالذنب. التوبة التي تبدو صعبة اليوم قد تكون أيسر من توبة يؤجلها صاحبها عامًا آخر.

والاعتياد لا يحول الحرام إلى طبع لا تكليف معه. قد يخف الألم، وتبقى القدرة على اتخاذ أسباب الرجوع بدرجات. يبدأ العبد بما يملك، ويستعين بمن يثق به عند الحاجة، ولا ينتظر أن تعود حساسيته كاملة قبل أن يترك. أحيانًا يعود الشعور بعد أن يبدأ العمل، لا قبله.

من ألم الزلة إلى الدفاع عنها

الزلة تؤلم القلب الحي. يستحي صاحبها من ربه، ويكره أن تكون جزءًا من سيره، ويشعر بالتناقض بين ما يؤمن به وما فعل. هذا الألم وحده لا يكفي للتوبة، لكنه نعمة؛ لأنه يدل على أن المعصية لم تصبح طبيعيةً كاملة في وعيه.

يبدأ الخطر حين يعالج الألم بتغيير الاسم بدل تغيير الفعل. يقول: الناس كلهم يفعلون، أو لم أؤذ أحدًا، أو الظروف أقوى مني، أو رحمة الله واسعة. لكل جملة معنى صحيح في موضعها، ثم تستعمل هنا لتسكين القلب من غير نزع ولا إصلاح.

الاستغفار الذي يفتح التوبة يواجه الذنب باسمه، والرجاء الذي يحيي القلب يذكر سعة المغفرة مع صدق الإنابة. أما استعمال المغفرة لإبطال الأمر والنهي فليس رجاءً؛ هو مطالبة بأن تعمل رحمة الله في جهة واحدة، من غير أن يستجيب العبد للرحمة التي بعثت إليه التحذير.

ومع طول المعصية تتصل بها أشياء أخرى: أوقات، وعلاقات، وأسرار، ومصالح، وصورة أمام الناس. تصبح التوبة في وعي صاحبها هدم عالم، فيدافع عن الفعل بعنف أكبر من حجمه. ليس دفاعه دليلًا على قوة الشبهة دائمًا، قد يكون مقدار ما يخشى فقده إذا اعترف.

وأشد ما يفعله الذنب أن ينتقل في شعور صاحبه من فعلٍ صدر منه إلى هويةٍ يعرّف بها نفسه. عندها يسمع إنكار الفعل إنكارًا لوجوده كله، ويغلق باب النصيحة قبل أن يفرق بين كرامته وصحة عمله. والوحي يفتح له فصلًا رحيمًا وحازمًا معًا: أنت مسؤول عما فعلت، لكنك لست محكومًا أن تبقى أسيرًا له.

الحزم يسمّي الخطر، والرحمة تفتح حركةً ممكنة. التهوين يترك صاحب الذنب في الطريق، والتعيير قد يدفعه إلى التشبث به. النص النبوي جمع بين أثر الخطيئة وطريق الصقل؛ لا يجامل القلب في مرضه، ولا يقطع عنه رجاء العلاج.

وقد يرسخ الذنب لأنه يخدم حاجةً حقيقية في النفس: فراغًا، أو وحدةً، أو شهوةً، أو طلب قبول، أو تسكين ألم. هنا لا يكفي أن يعرف صاحبه ضرر الفعل؛ يحتاج أن يرى الوظيفة التي صار يؤديها، حتى لا يعود إليها كلما تجددت الحاجة. فهم السبب يعين على قطع الطريق، ولا يمنح الحرام شرعيةً بسبب الألم الذي استغله.

ومع التكرار يقصر الطريق بين الحاجة والفعل. يكاد المحفز يستدعي الاستجابة قبل أن تتسع مساحة المراجعة، فيشعر المرء أن اختياره صار أضيق مما كان. هنا تظهر خطورة المقدمات: كل تكرار لا يضيف ذنبًا فحسب، بل يدرّب سلسلةً كاملة من الإحساس والتبرير والفعل حتى تعمل بسرعة أكبر.

وإذا تعلق الذنب بحقوق الخلق زادت حوله طبقة أخرى من الحجاب؛ لأن الرجوع لم يعد ترك عادة في الخفاء، بل اعترافًا بحق خارج النفس قد يكلّف مالًا أو تصحيحًا أو مواجهة. هذه الكلفة لا تُبحث هنا من جهة تفصيل التوبة، وإنما من جهة تفسير سبب اشتداد الدفاع كلما طال الذنب واتسع أثره.

ولا يقاس أثر الذنب بحجمه في أعين الناس وحدها. قد يستصغر المرء كلمة لأنها لا تُعاقب قانونًا، أو نظرة لأنها لم يرها أحد، بينما قيمتها القلبية في دلالتها على الاستجابة والتكرار. الكبائر أعظم خطرًا بلا شك، غير أن احتقار الصغائر يفتح باب الجرأة ويضعف معنى المراقبة.

ولا يقلب المؤمن هذا الخوف إلى وسواس. الشريعة تفرق بين العمد والخطأ، وبين الوسوسة والفعل، وبين الزلة والإصرار. وهذه الدقة نفسها تحفظ حرارة الخوف: فلا يهوّن ما يميت الحس، ولا يضخم كل خاطر حتى يفتح باب اليأس. المطلوب قلب يقظ، لا قلب مذعور من نفسه في كل لحظة.

ولا تنتظر حتى تزول لذة المعصية من قلبك لتصدق توبتك. قد يبقى الميل وتبدأ العبودية من مقاومته؛ فترك ما تحبه النفس لأن الله حرمه من أصدق صور المجاهدة. اسأل ربك أن يبغّض إليك المعصية، لكن لا تجعل اكتمال النفرة شرطًا يسبق الطاعة.

ومن أعظم ما يحفظ التوبة ألا يحولها صاحبها إلى مشهد اجتماعي. يخبر من يحتاج إلى إخباره، ويصلح الأثر الذي وصل إلى الناس، ولا يجعل تفاصيل الذنب مادةً لطلب الإعجاب بانكساره. الستر نعمة، والتصحيح واجب بقدره، والعبودية بين العبد وربه أصدق من صناعة صورة جديدة.

والتوبة المتكررة ليست نفاقًا ما دام العبد كل مرة صادقًا في العزم عند توبته، ثم غلبته نفسه فعاد فندم. الخطر أن يخطط للعودة وهو يستغفر، أو يتخذ سعة المغفرة تصريحًا بالإقامة. المؤمن لا يمل من طرق الباب، ولا يأمن مكر نفسه.

التذكر الذي يعيد البصر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. مسهم الطائف، فلم تصبح اللحظة تعريفًا أبديًّا لهم. تذكروا، فعادت البصيرة، وانكشف لهم ما غطته الفتنة.

التذكر يعيد إلى الوعي ما غاب: نظر الله، وحكمه، ووعده، وعاقبة الطريق، وحقيقة الضعف. لا يخلق حكمًا جديدًا، بل يعيد سلطان الحق إلى موضع غلبت عليه الرغبة. من رحمة الله أن يبقى في القلب صوت يوقظه، وأن يبعث إليه آية أو نصيحة قبل أن يعتاد البعد.

ولا يكتمل التذكر إذا بقي معرفةً بلا رجوع. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201] يصف انكشاف الطريق، ثم يكون على العبد أن يمشي فيه. يرى المدخل فيغلقه، ويرى الكذبة فيصححها، ويرى ضعفه فيستعين. البصيرة نعمة، وشكرها حركة.

محك الذنب في هذه الوحدة هو ما يفعله التكرار بالحس: هل بقي الفعل غريبًا يؤلمك، أم صار مألوفًا يحتاج إلى صوت أعلى كي تراه؟ هل تغيرت لغتك من «أخطأت» إلى أسماء تخفف الفعل؟ هذا المحك يقيس صناعة الحجاب، أما تفصيل بناء الرجوع فسيأتي في محور العودة.

ويكفي هنا إجراء واحد يوقف تغذية العادة: تعرّف أقرب مقدمة تسبق الفعل، ثم ضع بينها وبين الاستجابة مسافةً عملية. الغرض في هذا الموضع ليس استيفاء خطة التوبة، بل منع التكرار من أن يواصل تدريب القلب على الطريق نفسه.

وإذا ظهرت لك الحاجة التي يغطيها الذنب فسمِّها كما هي؛ فقد يكون فهمها مفتاحًا إلى علاج مشروع لاحقًا. لا تجعل الحاجة حجة للفعل، ولا تجعل الحديث عن العلاج يسبق قطع الاستمرار. تفصيل البديل ورد الحقوق وإصلاح الأثر سيأتي حيث تكون وظيفة الكتاب هي العودة لا تشخيص الحجاب.

لا تحول الخوف من الران إلى وسواس يفتش القلب بعد كل خاطر. من تاب وجاهد يحسن الظن بربه، ويشتغل بالطاعة، ولا يطالب نفسه بإحساس دائم بالنقاء. يخاف من الإصرار، ويرجو المغفرة، ويعلم أن الله أرحم به من نفسه، وأن صدق الخوف يثمر عملًا لا شللًا.

وكل رجوع صادق يثبت أن باب الرحمة أقرب من باب اليأس.

والعبد لا يعيش وحده. بعد أن يقطع من داخله سببًا، يجد من الخارج دعوات تكرر الطريق وتزينه: شيطان يعد، وقرين يهون، وقائد يطلب الولاء، ومنصة تختار ما يتكرر أمامه. هذه القوى لا تخلق اختياره، لكنها تدخل في صناعة الفتنة، ويحتاج أثرها إلى ميزان يجمع الحذر والمسؤولية.

الوحدة الثالثة والعشرون: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]: صناعة الضلال من حول الإنسان

الخطبة التي تسقط عذر الإكراه

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]. جاءت الكلمة بعد انقضاء زمن الاختيار.

يعترف الشيطان أن وعد الله كان الحق، وأن وعده انتهى إلى الإخلاف. لم يكن التنافس بين قوتين متساويتين تجهل النفس أيهما أصدق، كان هناك وحي ووعد من الله، وفي الجهة الأخرى دعوة وتزيين. ثم يحدد حدود قدرته: لم يكن له سلطان إكراه، وإنما دعا فوجد استجابة.

لا تنفي الآية أثر الشيطان، فقد وصف القرآن وسوسته وتزيينه ووعده وتخويفه، وجعل الاستعاذة منه عبادةً لازمة. لكنها ترد أثره إلى حده: عدو يدعو ويقرب ويكرر، لا خالق لإرادة الإنسان ولا قوة تسقط التكليف عنه. إنكار أثر الخارج سذاجة، وتحويله إلى عذر كامل هروب من المسؤولية.

وتكشف الآية فعلين متقابلين: دعوة من المضل، واستجابة من المدعو. قد تكون الدعوة متكررةً ومحيطة، وقد تضعف النفس تحت ضغطها، ويعلم الله تفاوت القدرة والعلم والبيئة. يبقى للعبد مع ذلك قدر من الاختيار يحاسب عليه، ويحتاج في استعماله إلى هداية الله وعونه.

وفي قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22] لا توجد دعوة إلى جلد النفس أو اليأس. بعد القضاء لا تنفع اللومة، أما قبل انقضاء العمر فهي كلمة توقظ المسؤولية: لا تسلم قرارك لعدو ثم تنتظر منه أن يحمل عنك العاقبة. لوم النفس النافع يعيدها إلى التوبة والفعل، ولا يحبسها في العجز.

تعود قصة إبليس هنا من زاوية غير زاوية الكبر. سبق أن ظهر كيف أبى واستكبر وبرر، أما الآن فيظهر بوصفه داعيًا. تحوّل سقوطه إلى مشروع: يقعد على الصراط، ويأتي الناس من الجهات، ويزين ويعد. ومع اتساع مشروعه يبقى اعترافه الأخير شاهدًا: الدعوة لم تكن إجبارًا.

سبق أن عُرضت الصحبة الصالحة بوصفها حاضنةً تعين العبد على التذكر والطاعة من غير أن تخلق الهداية. وهنا يظهر الوجه المقابل للمؤثر الخارجي: القرين يقرب معنى ويبعد آخر، والقائد يملك المنبر والسلطة،

والجمهور يكافئ ويعاقب، والمنصة تنتقي وتكرر. تختلف قوة التأثير، ولا تتحول أي منها إلى رب يخلق اختيار العبد. المسلم يعرف البيئة، ويطلب الحماية، ثم يرد نفسه إلى مسؤوليته.

خطوات لا تعرض النهاية من أولها

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 168-169]. سماها القرآن خطوات.

والخطوة الخارجية لا تعرض النهاية كاملة. قد تبدأ برسالة يرسلها صديق على سبيل المزاح، ثم حساب يُتابَع لأن الجماعة تتابعه، ثم ألفة بلغة ما كان المرء يستعملها، ثم دفاع عن الجو كله حتى لا يفقد مكانه بينهم. وقد تبدأ بتنازل صغير يطلبه قائد موثوق، ثم يصبح تكراره معياراً للولاء. هكذا يعمل التأثير من جرعات يحتمل كلٌّ منها وحده ما لا تحتمله النهاية مجتمعة.

لهذا كان الأمر ألا نتبع الخطوات، لا ألا نبلغ النهاية فقط. من انتظر حتى يصير السوء فاحشةً ظاهرة فقد ترك للعدو مسافة طويلة يعمل فيها. الحراسة تبدأ عند الاتجاه: ما الذي يفتح هذه المشاهدة؟ وما الذي يجعل هذه الكلمة التالية أيسر؟ وما الباب الذي أقول عنه الآن إنه مجرد تجربة؟

ولا تأتي الدعوة الخارجية دائمًا في صورة شهوة. قد يخوفه صاحب مكانة من فقد الجماعة إن اعترف، أو يمدحه جمهور على حدةٍ تجاوزت العدل، أو يزين له قريب السكوت باسم حفظ الأسرة. الخطر أن يستعير المؤثر لغةً محترمة فيجعل صاحبها يبتعد عن أمر الله وهو يظن أنه يحمي قيمة أخرى.

ومن أثر التزيين أن يضخم المؤثر كلفة الطاعة ويخفي بدائلها: يصور الاعتذار إذلالًا، وترك المكسب نهايةً للرزق، والتثبت تفويتًا لا يعوض، ومخالفة الجماعة عزلةً كاملة. لا يخلق هذه المخاوف من عدم، لكنه يرتبها في ساعة الضعف حتى يبدو الطريق المحرم هو الطريق الواقعي الوحيد.

الاستعاذة الصادقة لا تنفصل عن قطع الخطوة. يقول العبد: أعوذ بالله من الشيطان، ثم يغلق ما يفتح عليه الباب، ويؤخر القرار في ساعة الغضب، ويطلب الأصل قبل النشر، ويبتعد عن المجلس الذي يعرف اتجاهه. اللجوء بالقلب والعمل معًا هو مقتضى معرفة العدو.

وإن زللت بعد الاحتياط فلا تجعل العثرة بابًا ثانيًا للشيطان. يريد منك الذنب، ثم يريد بعده أن تيأس من الرجوع. ارجع إلى التذكر والتوبة، وفتش عن الثغرة التي دخل منها. من أغلق باب اليأس وإن تعثر لم يمنح الشيطان النصر كاملًا.

القرين الذي يجعل الباطل مألوفًا

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 36-37]. وردت الآيتان هنا في موضعهما الخارجي: قرين يلازم ويصد ويشارك في صناعة الوهم.

سبق الإعراض عن ذكر الرحمن في الآية، ثم جاء تقييض القرين. لا يثبت النص أن الإنسان ضحية بريئة أُرسل إليه القرين من غير سبب؛ يربط بين إعراضه عن الذكر وبين ما يصاحبه. ومع ذلك فالقرين قوة حقيقية بعد ذلك، يقرب الباطل ويمنح صاحبه تفسيرًا يطمئن إليه.

لا يحتاج القرين إلى أمر صريح في كل مرة. يكفي أن يعيد تسمية الأشياء: التثبت جبن، والحياء عقدة، والتوبة ضعف، والظلم قوة، والسخرية وعي. ومع طول الصحبة ينتقل القاموس من المجلس إلى داخل النفس، فيستعمله الإنسان وحده حتى إذا غاب أصحابه.

ويظهر ضغط القرين حين تصبح التوبة مكلفة اجتماعيًّا. قد يترك المرء ذنبًا في خلوته، ثم يعجز عن إعلان تغيّره أمام أصدقاء بنى قربه منهم عليه؛ يخاف الغربة والتهكم وفقد الجماعة. إرادته لم تختف، لكنها دخلت امتحانًا أثقل: هل يبقى انتماؤه أسبق من الحق الذي انكشف له؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27-29]. جاءه الذكر، ثم دخل الخليل بينه وبين السبيل.

في ذلك اليوم لا يبقى من حرارة الصحبة إلا اسم «فلان» وندم يعض صاحبه يديه.

لم يخلق الخليل قلبه، ولم يمنع وصول الذكر؛ لكنه جعل مخالفة الرسول أثقل من مخالفة الصديق، وقرب طريقًا حتى صار مألوفًا. الصحبة تُعرف بالاتجاه الذي تتركه: هل تجعل الاعتراف أيسر، أم تمد صاحبها بألف حجة كي يبقى كما هو؟

لا يلزم أن يطابق الصديق صاحبه في كل رأي، ولا أن يقطع المسلم كل مخالف. الخليل المضل هو الذي يضعف تعظيم الحق، ويهون الذنب، ويعاقب التوبة بالسخرية أو النبذ. قد يمنح انتماءً وفرحًا، ثم يسلب صاحبه القدرة على قول: هذا لا يرضي الله.

ومقاومة أثره لا تبدأ دائمًا بقطيعة مفاجئة. قد يحتاج الإنسان إلى تقليل الخلوة والمشاركة، وإعادة بناء صلات صالحة، ووضع حدود واضحة، ثم الابتعاد إذا لم تحفظ الحدود دينه. المهم ألا يكتفي بتشخيص الأثر وهو يسلّم نفسه للجرعة نفسها كل يوم.

السادة والكبراء وخصومة الأتباع

حكى الله قول الأتباع: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 67-68]. عرفوا بعد فوات العمل أن المكانة ليست دليلًا، وأن الطاعة لم تنقل تبعة الاختيار عنهم.

للقائد أثر لا يملكه الفرد العادي. يحدد ما يقال وما يسكت عنه، ويمنح بعض الأخبار صفة اليقين، ويجعل النقد ولاءً أو خيانة. إذا صدق وعدل امتد خيره، وإذا زين الباطل اتسع ضرره. لذلك لا تتساوى مسؤولية من دعا الناس مع مسؤولية من ضل وحده.

غير أن كبر مسؤولية المتبوع لا يبرئ التابع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: 31]. يقف الفريقان في خصومة واحدة.

يقول المستضعفون للمستكبرين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31]، فيرد المستكبرون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: 32]. ثم يقول المستضعفون: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [سبأ: 33]. أثبتوا ضغطًا مستمرًّا لا وهمًا.

في المشهد حقيقتان لا تلغي إحداهما الأخرى. كان هناك مكر بالليل والنهار وأمر من أصحاب السلطان، وكان الهدى قد جاء المستضعفين فاستجابوا للمكر. لا يختزل الناس في ضحايا بلا إرادة، ولا ينكر أن السلطة والدعاية تستطيعان تضييق مساحة الاختيار وإغراء النفس وتخويفها.

لا يقال للتابع عادةً: اترك الحق كله. يبدأ الطريق بصمت عن خطأ صغير حفظًا للصف، ثم بعبارة يكررها وهو لا يوقن بها، ثم بدفاع عما كان ينكره. كل تنازل يجعل التالي أقل غرابة، حتى يجد نفسه في نهاية لم يخترها يوم بدأ أول صمت.

والقائد نفسه قد يصبح أسير جمهوره. يصفقون لثقته، ويهاجمون من يراجعه، ويكررون عباراته حتى يرى الكثرة شاهدًا على الصواب. صنع لهم روايةً، ثم صنعوا له مرآة لا تظهر إلا ما يحب. من هنا تتضاعف حاجته إلى من يصدق معه، وإلى خوف من الله أكبر من حاجته إلى التصفيق.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» رواه مسلم (2674).

الكلمة لا تنتهي بخروجها من صاحبها. كل من يعمل بها يمد أثرها، من غير أن يسقط إثم التابع. يحمل الحديث العالم والداعية والقائد والكاتب أمانةً مضاعفة، ويحمل كل إنسان نصيبه؛ فقد يفتح في بيته أو مجلسه باب استهانة، أو يرسل مادةً تضل غيره بعد أن ينساها.

كما يفتح باب الرجاء في الجهة الأخرى. من دل على هدى، وصحح معلومة، وأوقف إشاعة، وأعان على توبة، امتد خيره. لا تحصر الدعوة في المنابر؛ كل إعادة نشر، وكل عبارة يقتدي بها صغير، وكل عرف يصنعه المرء حوله، دعوة بقدرها.

منصة تنتقي وتكرر

اتسعت صناعة التأثير حتى صار الإنسان يدخل إلى منصة تحمل إليه آلاف الأصوات، لكنه لا يراها متساوية. يظهر له ما يطيل بقاءه ويثير تفاعله، ويتكرر ما اقترب منه سابقًا، ثم يبدو الجزء المختار كأنه صورة العالم. لا تخلق المنصة اعتقاده، لكنها ترتب المواد التي تغذيه.

الخطر الشرعي في هذا الباب ليس اسم التقنية، بل حركات عرفها الوحي: تكرار يخفف غرابة الباطل، وتزيين يختار أجمل وجه له، وانتقاء يخفي بقية الصورة، وجمهور يضغط على قائله، وداعية يتحمل أثر ما نشر، ومتلقٍّ يستجيب أو يتثبت.

يبدأ صانع المحتوى برأي يراه، ثم يكتشف أن النسخة الأشد منه تجلب انتشارًا أكبر. يحذف القيود التي تبطئ الرسالة، ويختار المثال الأغرب، ويضع عنوانًا أوسع من المضمون. بعد زمن لا يعود الجمهور متلقيًا فقط؛ يحدد له ما يجب أن يقوله كي يحافظ على موقعه.

والمتلقي يشارك في صناعة ما يأتيه. يتابع ويعجب ويعيد، فتتعلم المنصة ما يثيره، ثم تزيده منه. لا يملك نظامها كله، لكنه يملك قدرًا من ترتيب مصادره، وحذف ما يفسده، والبحث خارج ما يعرض، والتوقف قبل أن يمنح الخبر حياةً جديدة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. التثبت عبادة قبل النشر، لأن الخبر قد يتحول بفعل المتلقي إلى أذى لا يرده الندم.

المقطع المبتور صورة شائعة لهذا الخلل. تكون الجملة صحيحة في سياقها، ثم تقطع من سؤالها وقيدها، وتوضع تحت عنوان يحول معناها. لا يكفي أن يسأل الناشر: هل قالها؟ يسأل كذلك: هل حملتها للناس على المعنى الذي أراده السياق، أم استعملت صدق اللفظ لصناعة دلالة كاذبة؟

والتكرار لا يحول الباطل إلى حق، لكنه يجعله مألوفًا. عبارة كان القلب ينكرها يسمعها عشرات المرات، فينتقل من رفضها إلى احتمالها، ثم إلى استعمالها. لذلك لا تكفي الثقة بالقدرة على التمييز مع إبقاء المورد نفسه مفتوحًا؛ ما يتكرر يربي الذوق قبل أن يشعر صاحبه.

لا يكون العلاج بترك كل منصة؛ فيها علم وصلة وخير. العلاج أن تدخل في حكم العبودية: تختار ما يعين، وتغلق ما يفسد، وتطلب الأصل الكامل، وتفصل الخبر عن التعليق، ولا تزن الصواب بعدد المشاركات. التقنية وسيلة، لكن استعمالها عمل يحاسب عليه العبد.

استردّ قرارك من مصدر واحد

محك هذه الوحدة مصدر خارجي تطمئن إلى قوله قبل أن ترى دليله، أو تخشى مخالفته أكثر مما تخشى مخالفة الحق. قد يكون شخصًا، أو مجلسًا، أو قائدًا، أو حسابًا. لا تتهم كل من حولك؛ سمِّ مصدرًا واحدًا ترى أثره في ضعف التثبت أو تهوين الذنب.

العمل الأساسي أن تقطع مسار استجابة واحدًا لهذا المصدر. أوقف متابعةً مدةً معلومة، أو امتنع عن إعادة النشر حتى ترجع إلى الأصل، أو ضع حدًّا لمجلس يطبع المعصية، أو اطلب من قائدك دليلًا في أمر يمس الحلال والحرام. القرار المحدد أصدق من شكوى عامة من التأثير.

ثم راجع ما يخرج منك. احذف خبرًا لم يثبت، وصحح معلومةً شوهتها، ولا تجعل جمهورك يدفعك إلى قول لا ترضى أن تلقى الله به. أنت متلقٍّ في موضع، وداعٍ في موضع آخر؛ والآية التي تحمل غيرك مسؤولية التأثير تحملك مسؤولية الاستجابة والنشر.

استعذ بالله من همزات الشياطين ومن حضورهم، وخذ بسبب النجاة. لا يملك الشيطان أن يجبرك، ولا القرين أن يخلق اختيارك، ولا القائد أن يحمل عنك تبعته، ولا المنصة أن تنقر بإصبعك. وكل واحد منها يستطيع أن يقرب خطوةً ويكرر رسالةً ويضعف مقاومة؛ لذلك يجتمع الافتقار مع القرار.

قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]. تنفعك هذه الكلمة الآن، تلوم نفسك لومًا يفتح التوبة، وتقطع ما تستطيع، وتعود إلى ذكر ربك. لا تنتظر يومًا يتبرأ فيه كل من اتبعته، فقد جاءك اليوم من الوحي ما يكفي لتسترد اختيارك.

الإعراض والهوى والكبر والعمل الفاسد والمصلحة والذنب والمؤثر الخارجي ليست قوى آلية تفرض مآلًا واحدًا. هي موانع يختار العبد منها ويستجيب، وقد يعاقب الله من أقام على زيغه بما يشاء من الإزاغة والصرف والطبع عدلًا وحكمة. وقبل أن يستحكم الجزاء يبقى النداء قائمًا: ارجع.

ومن هنا يقف القلب أمام قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. بدأ الزيغ منهم، ثم جاءت الإزاغة من الله. لا تُفصل العقوبة هنا، لكن يكفي أن يعلم العبد أن اختياره لا يمر بلا أثر، وأن المبادرة بالتوبة أرحم من اختبار قلبه إلى أي مدى يستطيع التأجيل.

المحور السادس: سنة زيادة الزيغ

ـانتهى المحور السابق عند اللحظة التي لا يعود فيها المانع خاطراً عابرًا، بل يصير موقفًا يختاره العبد ويحميه. أعرض، أو اتبع هواه، أو استكبر، أو أقام على عمل يحتاج إلى الكذب والظلم، أو جعل المصلحة والانتماء فوق حكم الله. وكل حركة من هذه الحركات تقع في القلب، ثم تترك فيه أثرًا لا يراه الناس كاملًا.

لكن أثر الاختيار لا يبقى كله في يد صاحبه. القلب مخلوق لله، وتقلبه وتصريفه بيده، والهداية فضل، والإزاغة الجزائية عدل. وهنا ينتقل الكتاب من المانع الذي يصنعه العبد إلى العقوبة التي لا يملك دفعها بقوته إذا أصر على الطريق: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

بدأت الآية بفعلهم ثم ذكرت فعل الله فيهم. زاغوا، فأزاغ قلوبهم. لم يُكرهوا على الميل ثم يعاقبوا عليه، ولم يخرج جزاؤهم عن ملك الله. العبد اختار طريقًا، وربه حكم فيه بعدل وحكمة. وبين الفعلين مسافة يخاف المؤمن أن يقطعها وهو يظن أن التأجيل لا يغير قلبه.

وهذه العقوبات أخبار الله عن أحوالٍ وسننٍ كشفها؛ لا يملك البشر توزيع أحكام الطبع والختم على الأعيان. وظيفة القارئ هنا أن يخاف الطريق المؤدي إليها في نفسه.

المقصود أن يتغير سؤال القارئ. بدل أن يسأل: على من خُتم؟ يسأل: ما الحق الذي صار الرجوع إليه أثقل لأنني أخرته؟ وما المعصية التي خف ألمها في قلبي؟ وما الرواية التي بنيتها حتى أرى عملي حسنًا؟ هذه أسئلة حراسة ومبادرة، لا أحكام هلاك.

وقد سبق في محور زيادة الهدى ورود حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بوظيفة حفظ الافتقار مع نمو الإيمان، ويعود هنا نصًّا مركزيًّا في باب صرف القلوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثم قال: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» رواه مسلم (2655).

علّم النبي صلى الله عليه وسلم الأمة بهذا الدعاء أن تعمل وهي مفتقرة. يسمع العبد ويقرر ويتوب ويغلق باب الفتنة، ثم يعلم أن سلامة قلبه ليست ملكًا ثابتًا في يده. يسأل رب القلوب أن يصرفه إلى الطاعة، ويخاف أن يختبر نفسه بالإقامة على ما يسخط الله.

يتكون المحور من حركتين. تقرأ الأولى الزيغ والانصراف ورفض الإيمان عند مجيء البيان، ثم ما يعقب ذلك من إزاغة وصرف وتقليب. وتقف الثانية مع المرض والران والقسوة والتزيين والطبع والختم، وتلحق بها صور الوقر وعمى القلب؛ تسمع كل لفظ في سياقه، من غير تسوية بينها أو ترتيبها في سلّم حتمي.

وتحمل قصة صاحب الآيات الحركتين معًا. آتاه الله آياته، ثم انسلخ منها وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. لم ينقصه اتصال بالبيان، لكن العلم فقد سلطانه على المراد. وحين أخرج الآيات من موضع الحكم لم تبق المعرفة زينة محايدة؛ صارت حجة عليه، ووجد الشيطان طريقًا إلى قلب غادر حصنه.

ومع شدة هذا الباب يبقى التحذير نفسه رحمة. رؤية الخطر نور، والخوف الذي يحرك التوبة هداية. القنوط يساوي بين من أقام على الزيغ ومن انكسر ورجع، ويجعل أوصاف العقوبة قدرًا يعتذر به العبد عن المبادرة. لذلك ينتهي المحور عند باب العودة، ويهيئ القلب للدخول فيه في المحور الأخير.

الوحدة الرابعة والعشرون: من الزيغ إلى صرف القلب

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: 5]

قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. عرفوا رسالة موسى، ثم آذوه وخرجوا عن مقتضى ما علموا. لم تبدأ القصة بقلب أزاغه الله من غير مقدمة؛ بدأت بعلم لم يخضع له صاحبه، وبأذى صار موقفًا متكررًا من الرسول والحق الذي جاء به.

العلم في السياق يزيد المسؤولية ولا يصنع الهداية وحده. قال لهم: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾ [الصف: 5]، فالأذى لم ينشأ من غياب البيان. عرفوا الرسول، لكن المعرفة لم تحكم سلوكهم. وبين أن تعرف الحق وأن تخضع له تدخل الإرادة والمحبة والخوف والمصلحة؛ وهناك يظهر ما إذا كان العلم يقود القلب أو يخدم ما اختاره من قبل.

وجاءت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: 5] لتربط الجزاء بما سبق. الزيغ الأول منسوب إليهم، ثم جاءت الإزاغة من الله عقوبةً عادلة. مالوا عن الاستقامة التي عرفوها، فعوقبوا في موضع الهداية نفسه، ولم يظلمهم ربهم شيئًا.

هذا الترتيب يحمي القلب من خطأين. لا يحتج بالقدر فيقول: أزاغ الله قلبي فلا مسؤولية عليّ، فقد قدّم النص زيغه. ولا يغتر بقدرته فيحسب قلبه تحت أمره، يؤخر الطاعة اليوم ثم يستعيد رقته متى أراد. مسؤوليته ثابتة، وسيادته على قلبه وهم يهدمه القرآن.

الزلة ليست كالإقامة على الزيغ. قد يضعف المؤمن ثم يندم ويتوب، وقد يحمي الإنسان ميله حتى يصير الفسق وصفًا يحكم طريقه. موضع الخوف فيما يحدث بعد الخطأ: هل تقصر المسافة إلى الرجوع، أم يبني القلب حول اختياره حمايةً جديدة؟

يعرف رجل أن خصومته تجاوزت العدل، ويؤجل الاعتذار حتى يهدأ المجلس. ثم يروي الواقعة مرات، وفي كل مرة يضيف تفصيلًا يبرئه وينقص من حق خصمه. بعد أشهر لم يعد الاعتذار كلمةً ثقيلة فحسب؛ صار تهديدًا لصورة كاملة بناها أمام أهله وأصحابه. الدليل لم يتغير، لكن التأجيل غيّر هيئة المتلقي وكلفة الرجوع.

لهذا لا يختبر المؤمن قلبه بالمخالفة. ما بان من الحق يحتاج إلى أول استجابة مقدورة؛ رد حق، أو توقف عن أذى، أو سؤال صادق، أو اعتراف لا ينتظر ظرفًا مثاليًّا. القدرة على سماع الحكم اليوم ليست وعدًا مكتوبًا للغد.

صاحب الآيات الذي انسلخ منها

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: 175]. لم يسمه القرآن، ولا يحتاج المقصود إلى تعليق الهداية بهوية تاريخية مختلف فيها؛ العبرة بالحركة التي صاغها الوحي وجعلها نبأً يتلى على كل من أوتي من العلم نصيبًا.

بدأت القصة بإيتاء من الله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾. كان البيان نعمةً وصلته، ولم تكن الآيات ثمرة ذكائه وحده. ثم جاء فعله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]. لفظ الانسلاخ يرسم خروجًا بعد ملابسة؛ كانت المعرفة تحيط بالسلوك وتطالبه، ثم فصل صاحبها نفسه عن سلطانها.

لم يقل النص إن الآيات انسلخت منه، بل نسب الحركة إليه. العلم لم يطرده، والبيان لم يخنه؛ هو الذي غادر مقتضاه. وحين وقع الانسلاخ جاء: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175]. وجد الشيطان قلبًا خرج من حصن الآيات فلحقه وأدركه، ولم يكن اتباعه عذرًا يمحو الحركة الأولى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: 176]. الرفعة بالآيات فضل من الله، وليست ملكًا يضمنه العلم لصاحبه. وفي الجهة الأخرى فعل الرجل: أخلد واتبع. اختار العاجل حين ثقل مقتضى الآيات، واستعمل ما عنده من معرفة في خدمة الميل.

الإخلاد إلى الأرض أعمق من حب مباح للدنيا. السياق يقابله بالرفعة بالآيات، فيكشف اختيارًا جعل القريب أثقل في الميزان من نداء الوحي. عندئذ تصير المعرفة أشد خطرًا؛ تمنح الهوى لغةً ومخارج، وتتيح لصاحبها أن يعرض انحيازه في صورة تحقيق أو مصلحة أو واقعية.

ويكمل النص: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: 176]. مثل شديد يكشف استقرار اللهث في الحالين، حتى غدا الهوى صفةً ملازمة لا عارضًا سريع الزوال.

ذروة القصة أن الآيات التي تصلح سببًا للرفع صارت شاهدًا على الانسلاخ. العلم لا يبقى محايدًا حين يرفض صاحبه عبوديته؛ يقوده إلى التواضع والعمل، أو يتحول إلى مادة تزيد قدرته على التبرير. لذلك كان خوف العالم من قلبه جزءًا من أمانته العلمية، وكان رجوعه إذا بان له الحق كمالًا في علمه لا هزيمةً لشخصه.

ويثقل الرجوع أكثر حين يكون للقرار تاريخ وأتباع. يصدر مسؤول تنظيمًا، ثم يبني عليه فريقه عملًا طويلًا، وبعد مدة تظهر ثغرة كان تصحيحها مبكرًا أيسر. الآن صار الاعتراف يعني تعديل إجراءات وتفسير سنوات من العمل. وكل يوم تأخير يضيف كلفةً جديدة، حتى لا يعود القلب يصارع الدليل وحده، بل عالمًا بناه القرار حول نفسه.

ولا يطلب النص من القارئ أن يفتش عن قصة كاملة تشبه صاحب الآيات. يبدأ من موضع أصغر: معنى تعلمه ولم يعد يحكمه، حق أقر به ثم أخلد عند كلفته، أو آية كان يراها واضحة ثم صار يضيق بها بعد ارتباط مصلحته بخلافها. هناك يبدأ قطع دورة الانسلاخ قبل أن يتسع أثرها.

من الرفض الأول إلى الانصراف

قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110]. جاءت الآية في قوم اقترحوا الآيات وأقسموا أنهم سيؤمنون، فكشف الله أن القضية تجاوزت نقص علامة جديدة بعد قيام البيان.

تربط الآية تقليب الأفئدة والأبصار بعدم الإيمان أول مرة، في قوم قامت عليهم الحجة في سياقهم. ويقترب التحذير من القارئ بسؤال أشد: حين يتضح لي من الحق ما يكفي للعمل، هل أفي بما ظهر أم أطلب علامةً أخرى لأشتري زمنًا لمصلحتي؟

حتى طلب البيان قد يتحول بعد الرفض المتكرر إلى وسيلة للتأجيل. السؤال الصادق يفتح احتمال أن يتغير الموقف؛ أما السؤال الدفاعي فيطلب جوابًا جديدًا من غير أن يسمح لأي جواب أن يغيّر شيئًا. ليست كثرة الأسئلة هي المشكلة، بل قلب يسأل كي يبقى حيث هو.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127]. نزل الوحي في مجلسهم، فكان أول همهم أن يضمنوا الخروج من غير أن يراهم أحد.

صوّرت الآية انصرافًا بالجسد يكشف انصرافًا أعمق في القصد. تواطؤوا بالنظر قبل الحركة، ثم جاء الجزاء من جنس طريقهم: انصرفوا، فصرف الله قلوبهم، وبيّن العلة: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127]. كانوا قريبين من السورة مكانًا، بعيدين عن عبوديتها قلبًا.

السياق في المنافقين الذين يتسللون عن الوحي ويحمون بعضهم بعضًا. والعبرة التي تقترب من المؤمن مخيفة: أن تصبح سلامته من أعين الناس أهم من سلامة قلبه، وأن يهرب من البيان إذا ضمن أن أحدًا لا يراه.

ويقع الانصراف من غير خروج من المجلس. يبقى الإنسان في مكانه، لكنه يشتغل بترتيب أوراقه، أو يفتح حديثًا جانبيًّا، أو يراقب من حوله كلما اقترب الكلام من موضعه. لم يعلن اعتراضًا؛ أنهى حضوره القلبي قبل أن يكتمل الخطاب.

ويحدث الانصراف في أقرب العلاقات: يفتح زوج أو صديق بابًا يؤلم، فينقل الآخر الحديث إلى خطأ مختلف، أو يستدعي قضية قديمة، أو ينهي الحوار قبل أن يكتمل السؤال. يخف الألم لحظتها، فيتعلم القلب أن النجاة في قطع المواجهة. ومع كل نجاح لهذا الهروب يصبح الرجوع إلى الموضع نفسه أثقل.

فالفقه الذي نفته الآية يتجاوز حفظ الألفاظ. يعرف الإنسان الحكم، ثم لا يفقه لماذا نزل الوحي ولا ما يطلبه منه في هذه الساعة. الفقه الذي يهدي يجمع المعنى والمقام والعبودية؛ يجعل السورة خطابًا من الرب، لا مادةً يلتقط منها المرء ما يحفظ صورته.

ارجع إلى أول موضع من الزيغ

محك الوحدة حق واحد تعرف أن موقفك منه تغير مع الزمن. لا تبحث هنا عن كل مانع من موانع الهداية؛ ارجع إلى أول مرة بان لك فيها هذا الحق، ثم قارنها بلغتك نحوه اليوم. وظيفة المحك اكتشاف المسافة التي أضافها الزيغ المتكرر بين الدليل والقلب.

اسأل: هل تغير الدليل، أم تغير ما صار معلقًا بقبوله؟ قد تكون حول القرار اليوم مسؤوليات وعلاقات ووعود لم تكن موجودة في البداية. هذه الزيادات تفسر اشتداد الكلفة، لكنها لا تحول الاختيار القديم إلى حقيقة شرعية جديدة.

فاقطع دورة التأجيل بخطوة تتجه إلى الأصل الذي تعرفه: افتح السؤال الذي أغلقتَه، أو صحح القرار الذي تعلم خطأه، أو أوقف أثرًا ما زال يتسع. المقصود أن تمنع الزيغ الأول من اكتساب طبقة جديدة، لا أن تنتظر عودة الشعور القديم قبل أن تتحرك.

واستعن بالدعاء النبوي الذي افتتح به المحور: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». لا تقله وأنت تحمي الباب الذي يصرفك عن الطاعة. صدق الافتقار أن تستعمل ما بقي لك من قدرة في جهة ما سألت.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» رواه مسلم (118).

جاء الأمر بالمبادرة قبل وصف الفتنة. العمل الصالح لا يشتري للإنسان عصمةً، لكنه طاعة تهيئ القلب للثبات حين يختلط الطريق ويغلو الثمن. والمبادرة تقطع وهم الوقت المفتوح؛ فلا أحد يضمن أن تبقى رؤيته وقدرته ورغبته على الحال نفسها.

وظيفة الحديث أن يوقظ الإرادة قبل أن يأتي الظلام الذي يبيع فيه المرء دينه بعرض قريب.

إذا عرفت بابًا يساومك على الحق، فأغلقه وهو في قلبك فتنة، قبل أن تعيد تسميته حكمةً أو ضرورة.

وحين يقطع العبد أول موضع من الزيغ يشكر الله ولا يزكي نفسه. أبقاه قادرًا على السماع والاعتراف، ومنحه فرصةً يجهل امتدادها. وربما عاد عن القرار وبقي في قلبه حب الصورة أو مرارة الخسارة؛ والتوفيق الكامل أن يصلح الله الفعل والقصد معًا.

أما التأجيل الطويل فلا يبقي أثره نفورًا من حكم بعينه فقط. تتغير الأداة التي يرى بها الإنسان الأحكام، ويضعف إحساسه بالخطأ، ويصبح القبيح حسنًا، ويغدو القلب مريضًا أو قاسيًا أو مطبوعًا عليه بحسب ما دل عليه كل سياق. هنا تبدأ الوحدة التالية.

الوحدة الخامسة والعشرون: حين يستحكم الحجاب في القلب

أوصاف لا مراتب: المرض والران

يصف القرآن حجب القلوب بألفاظ متعددة: مرض، وران، وقسوة، وتزيين، وطبع، وختم، ووقر وعمى. لكل لفظ سياقه والجهة التي يكشفها من علاقة القلب بالحق. هذه أوصاف تتجاور وتتداخل بحسب

أحوال الناس، ولا ترسم مراحل مرتبة يلزم أن يمر بها كل منحرف. ويأتي التحرير اللغوي والتفسيري الموسع لهذه الفروق في الملحق العلمي؛ أما المتن فيقتصر على وظيفتها في مسار الزيغ والعودة.

والرحمة لا تفرغ الألفاظ من وعيدها. الرب الذي فتح باب التوبة هو الذي حذر من الطريق المؤدي إلى الحرمان. صدق الرجاء يدفع إلى إصلاح القلب قبل أن يصير الباطل عنده حسنًا والحق ثقيلاً.

قال الله تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]. المرض هنا خلل في القلب ظهر في الكذب والخداع والفساد مع دعوى الإصلاح، ثم جاءت زيادة من الله وربط العذاب بما كانوا يكذبون.

يعرض السياق مرضًا قائمًا وسلوكًا يمده، ثم زيادةً جزائية. وهكذا تعمل سنة الزيادة في الطريق المقابل لسنة زيادة الإيمان. لم يصبهم شيء لا صلة له باختيارهم، ولم تكن الزيادة أثرًا نفسيًّا مستقلًّا عن حكم الله؛ كذبوا وأقاموا على الخداع، فزادهم الله مرضًا عدلًا.

ولفظ المرض يتنوع بحسب السياق؛ يأتي في أبواب النفاق أو الشهوة أو الاضطراب، فلا يحمل معنى واحدًا خارج موضعه، ولا يلزم أن يكون كل من وُصف به خارجًا من الإسلام. الجامع أن علاقة القلب بالحق فقدت سلامتها، وصار فيه ما يشوش القبول أو يفسد الإرادة.

وفي السورة نفسها التي زادت المؤمنين إيمانًا قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125]. الوحي واحد، لكن هيئة الاستقبال مختلفة. المؤمن يصدق ويقبل ويضم مقتضى السورة إلى سيره، والمريض يتلقاها من داخل مقاومته، فيضيف إلى مرضه رفضًا جديدًا.

ختم السياق خبرهم بأنهم ماتوا على الكفر. وفي هذا تبلغ دلالة الآية شدتها: التلقي المتكرر ليس حيادًا؛ فالإنسان لا يمر بالوحي دائمًا كما كان، واستجاباته المتتابعة تبني فيه قابليةً أو صدودًا.

ومن علامات المرض أن يحتاج الظاهر والباطن إلى لغتين مختلفتين: خطاب يطمئن الآخرين، وقصد يحفظ مصلحة خفية، وصورة إصلاح تمنع السؤال عن الأثر الحقيقي. كلما طال هذا الانقسام صار الصدق مهددًا لبناء أوسع، لا لموقف منفرد فقط.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. سبق النص في وحدة الذنب بوظيفة بيان أثر التكرار وفتح طريق الصقل بالتوبة، ويعود هنا ليبين نوعًا آخر من الحجاب: غطاءً يصنعه الكسب ويعلو موضع الرؤية.

جاء الران في قوم كذبوا بيوم الدين واعتدوا ووصفوا الآيات بأساطير الأولين. والتحذير يبقى على شدته: ما تفعله الجوارح واللسان يدخل في تشكيل القلب الذي سيسمع الموعظة التالية. العمل لا يقع خارج الداخل ثم يتركه كما كان.

وقد يكون أخوف آثار الران شعورًا يشبه الراحة. كانت المعصية توقظ القلب ثم خف ألمها، وكانت النصيحة تؤلمه لأنها تكشفه ثم صار يسخر منها. ليس كل انخفاض للضيق شفاءً؛ أحيانًا يكون الذي ضعف هو جهاز الإنذار نفسه.

المرض يصف خللًا في سلامة القلب وقابليته، والران يصور غطاءً علاه بما كان يكسب. يجتمعان في إنسان، ويفترقان في دلالة اللفظ والسياق. ولهذا جمعهما العرض في حركة واحدة من غير أن يذيبه أحدهما في الآخر أو يجعلهما درجتين لازمتين في طريق واحد.

حين يقسو القلب وينقلب المعيار

قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: 13]. بدأ السياق بنقض الميثاق، ثم ذكر اللعنة والقسوة، وظهرت آثارها في التحريف والنسيان.

القسوة غير الحزم في الحق. القلب القاسي لا تلينه الموعظة على الوجه الذي ينبغي، ولا يحمل الذكر إلى التوبة، وربما استعمل النص نفسه في التحريف. أما القلب الرحيم فيثبت عند الحد، لكنه يظل خاضعًا لله، متألمًا من الظلم، قابلًا للمراجعة.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16]. خاطبت الآية المؤمنين وفتحت لهم باب الخشوع قبل أن يشبهوا من طال عليهم الأمد.

ذكر القسوة هنا يوقظ المؤمن قبل أن يطول به الأمد ويألف سماع الحق بلا خشوع. مرور الأعوام مع الدين لا يغني إذا غاب الخشوع والعمل؛ والتأجيل والنسيان يحولان الوحي من خطاب حاضر إلى تاريخ مألوف.

ومحك القسوة ليس مقدار المعرفة، بل ما بقي للذكر من قدرة على إيقاظ القلب. قد يمارس المرء تعليمًا أو خدمةً دينية بكفاءة، ثم تمر عليه النصوص في موضع نفسه كما تمر إجراءات العمل: يعرفها ولا تتوقف عندها إرادته. السؤال المخيف: هل ما زال كلام الله يستطيع أن يقطع عادةً، أو يرد مظلمةً، أو يفتح سجدة توبة؟

ووصف القرآن صورًا أخرى للحجاب من جهة السمع والنظر. قال سبحانه حكايةً عن المعرضين: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: 5]. الوقر هنا وصف لحال الصدود وعدم الانتفاع بالمسموع، لا بيان لآفة حسية.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. قد تعمل العين وتغيب البصيرة التي تعتبر بالآيات. الوقر وعمى القلب يضيفان إلى الاستقراء جهتين: تعطل الانتفاع بالمسموع، وتعطل النظر الذي يعبر من المشهد إلى دلالته.

ثم يبلغ الخلل موضع التقويم نفسه. قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: 8]. غاية الخطر أن يرى الإنسان السوء حسنًا، فيفقد الدافع الذي كان يمكن أن يعيده.

يأتي التزيين من الشيطان أو النفس أو المضلين، وينسبه القرآن إلى الله في سياقات جزائية بحسب الموضع. فلا تجمع النصوص في صيغة سطحية واحدة. الجامع أن السوء فقد قبحه في عين صاحبه، ودخلت عليه رواية جعلته فضيلةً أو ضرورةً أو علامة وعي.

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: 103–104]. كثرة الجهد لا تمنح العمل صفة الهداية إذا ضل عن الوحي.

يهدم النص عبادة النية والإنجاز. يتعب الإنسان ويضحي ويبني مشروعًا واسعًا، ثم يجعل مقدار التعب دليلًا على صواب الطريق. لكن السؤال القرآني يبقى فوق حرارة المقصد: هل العمل إيمان وطاعة على هدى، أم سعي فقد ميزانه وصار صاحبه يحسن الظن به لأنه صنعه؟

والآيات هنا في مسار آخر غير خطأ المجتهد الذي استكمل شروط الاجتهاد وبذل وسعه؛ المقصود أن حسن القصد والشعور بالإحسان لا يكفيان وحدهما. وكلما عظم المشروع زادت حاجته إلى ميزان خارج دائرة أصحابه، وإلى قدرة على سماع ما لا يحبون.

وقد يظهر التزيين في مربٍّ اشتهر بالحزم حتى صار نجاحه مرتبطًا بهذه الصورة. يلاحظ أن بعض عباراته تهين من تحت يده وتغلقهم عن التعلم، لكنه يفسر خوفهم بأنه احترام، ويعد كل اعتراض ضعفًا في الجيل. لم يبدأ يريد الإيذاء؛ غير أن نجاح صورة «الحازم» صار شاهدًا عنده على صحة الوسيلة، ثم أعاد تسمية أثرها حتى يظل حسنًا في عينه.

ويبدأ التزيين بتغيير الأسماء: يسمى الظلم حزمًا، والتشهير نصيحة، والتعصب ثباتًا، والخوف حكمة، وجمع المال رسالة. والأسماء وحدها لا تكشف الحقيقة؛ يردها الوحي إلى الفعل والحق الذي ترتب عليه. علامة الخطر كثرة الأسماء المشرقة التي تمنع العمل من العودة إلى نص واضح وحق مستقل.

القسوة تضعف لين القلب للذكر، والتزيين يقلب حكمه على العمل. قد يجتمعان، وقد يظهر أحدهما من غير الآخر، وليس أحدهما رتبةً لازمة بعد صاحبه. جمعهما في هذه الحركة يكشف الصلة من غير صناعة سلّم: قلب لا يلين، ثم معيار لا يرى السوء على حقيقته.

الطبع والختم: حين يُحرم القلب الانتفاع

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155]. ربطت الباء الطبع بالكفر ونقض الميثاق وما سبقهما من جرائم، فلم يقع الجزاء في فراغ.

وقال سبحانه في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. سبق الطبع مسار من الإيمان الظاهر ثم الكفر، واتخاذ الأيمان جنة، والصد عن سبيل الله. اختاروا وحموا الباطل، ثم جاء الحرمان في موضع الفقه.

أما قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: 7] فجاء في قوم استوى عندهم الإنذار وعدمه، صورة مخيفة لحرمان القلب الانتفاع بالبيان.

وسبق في محور الموانع قول الله تعالى في متبع هواه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: 23]. كان موضعه هناك كشف الهوى الذي صار معبودًا، ويعود هنا شاهدًا على النهاية التي يخافها القلب حين يرفض سلطان الهدى.

الطبع والختم متقاربان في معنى الحيلولة دون الانتفاع، ولا يلزم أن يكونا مترادفين من كل وجه أو أن نحدد بينهما ترتيبًا لم يحدده النص. يكفي القارئ أن يعلم شدة العقوبة، وصلتها بالكفر والإصرار في هذه السياقات، وأن يخاف الطريق الذي يفضي إلى حرمان القلب من الهدى.

ولهذا لا يكون سماع هذه الألفاظ بابًا لليأس، بل للمبادرة. ما دام العبد يسمع ويسأل ويتألم ويقدر على عمل، فبابه أن يتوب ويقطع السبب قبل أن يستثقل الرجوع أكثر. الخوف الصادق من الختم يدفع إلى الباب المفتوح، لا إلى الاستسلام.

القلب بين الخوف والعودة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» رواه البخاري (52)، ومسلم (1599).

جاء الحديث في بيان الحلال والحرام والشبهات، فربط سلامة التعامل الظاهر بصلاح القلب. القلب موضع القصد والتعظيم والخوف والاختيار، ومنه ينتظم الجسد في الطاعة أو الفساد. لذلك تمس عقوبات القلب مركز القيادة كله، ولا تقف عند خسارة لذة أو شعور عابر.

وصلاح القلب ليس دعوى يقابل بها الإنسان ظاهر عمله. جعل الحديث صلاح الجسد ثمرةً لصلاحه، فلا يحتج أحد بصفاء نيته على ظلم أو ترك واجب. القلب الصالح يترك أثره في الجوارح، ويكشف الامتحان مقدار سلطان ما فيه من تعظيم وصدق.

وتظل صور من الخير موجودة مع تغير مركز الولاء. يصلي الإنسان، ثم يجعل مكانته فوق العدل؛ أو يتعلم، ثم يجعل علمه فوق التسليم؛ أو يدعو، ثم يجعل الجمهور فوق الصدق. الحسنة لا تزول من الوجود، لكن المعنى الذي يجمع الأعمال لله يتعرض لخطر عظيم.

لا تبدأ فحص القلب من سؤال غامض: «هل قلبي قاسٍ؟». ابدأ بما يمكن رؤيته في علاقتك بالحق: شيء كنت تستحي منه ثم صار عاديًّا، أو نصيحة كانت توقفك ثم صرت تسخر منها، أو حق كنت تعترف به سريعًا ثم أصبحت تحتاج إلى حيل كثيرة قبل أن تسميه. التحول في الحس نفسه إنذار يحتاج إلى رجوع.

وراقب أثر الوحي في الموضع نفسه. ليس السؤال كم تحفظ من النصوص، بل هل بقي للنص الذي تعرفه سلطان يوقفك حين تأتي المصلحة أو العادة؟ إذا صار أول عمل بعد سماعه البحث عما يبعده عن حالك، فالمشكلة لم تعد نقص معلومة وحده؛ هناك حجاب يحتاج إلى صدق مع الله.

واختر بابًا واحدًا لا مشروعًا كاملًا. اجمع نصوصه المحكمة، واعرض واقعك بتمامه على عالم أو ناصح لا ينتفع ببقاء الحال، ثم لاحظ الشيء الذي تتمنى ألا يسألك عنه. هذه النقطة غالبًا أصدق من الكلام العام عن سلامة النية.

والمراجعة لا تقاس بجمال الاعتراف، بل بما سمحت للحق أن يغيره. قد يكون الأثر وقف كلمة اعتدتَها، أو ردَّ حق، أو إزالةَ وصف ظالم، أو قبولَ تصحيح ممن كنت تستصغره. الكلفة الصغيرة هنا دليل أن المراجعة خرجت من المشاعر إلى الحكم.

ولا تستوفِ في هذا الموضع خطة التوبة كلها. إذا بان سوءٌ زيّنته طويلًا، فأول وظيفة الآن أن يسقط عنه الاسم الحسن في عينك وأن تعترف بأنه سوء. بعد انكشافه تأتي أعمال القطع والإصلاح ورد الحقوق في محور العودة؛ أما الحجاب فأخطر ما يفعله أن يمنعك أصلًا من رؤية الحاجة إليها.

وأن ترى الحجاب قبل استحكامه نعمة؛ لأن التزيين الكامل يجعل صاحبه يحسن الظن بالفعل نفسه. فاستقبل ألم الانكشاف بوصفه عودةً للبصيرة، لا فضيحةً ينبغي إسكاتها. قد يكون وجع الاعتراف أصدق علامة حياة في موضع ظننته راحة.

ولا تحول هذا الفحص إلى مراقبة مرضية لكل خاطر. المقصود اتجاهات ظاهرة تتكرر في التلقي والعمل: قلة التأثر بالحق، وسرعة تبرير المخالفة، وتبدل الأسماء، وثقل الرجوع. هذه تعالج بالذكر والطاعة والصدق والصحبة والتوبة، مع افتقار القلب إلى ربه لا إلى تشخيصات يبتكرها لنفسه.

محك الوحدة موضع تعرف أن حسك تجاهه تغير: مخالفة كانت ثقيلة ثم خفت، أو ظلم كان قبيحًا ثم صار في لغتك ضرورة، أو نص كان يقودك ثم صار مجرد مادة للجدل. اسأل: متى تغير الاسم؟ وما الكسب أو الصحبة أو التكرار الذي صاحبه؟ وما أول خطوة تعيد الحكم إلى اسمه؟

يكفي في نهاية الوحدة أن تصحح هذا الاسم وتفتح باب الرجوع: أوقف ما تعلم سوءه، واطلب البيان فيما اشتبه، ولا تجعل هدوء الضمير بعد طول الاعتياد حجةً على سلامة الفعل. التفصيل العملي سيأتي بعد قليل حين ينتقل الكتاب من وصف الحجاب إلى طريق العودة.

شدة هذه الأوصاف من شدة قيمة القلب. المرض والران والقسوة والتزيين والطبع والختم والوقر وعمى القلب ليست قائمةً لتصنيف الناس؛ هي نداء للعبد ألا يستهين بما يفعله التكرار والإصرار بموضع معرفته وإرادته. كل اسم منها يعيد الخوف إلى القلب قبل أن يصبح الخوف نفسه غريبًا.

فاجعل الخوف من الحجاب باعثًا على المسارعة، لا خاتمةً على نفسك. إذا بقيت ترى سوءًا وتطلب هدىً وتقدر على خطوة، فوظيفتك أن ترجع وتستعين. وهنا يسلّم المحور القارئ إلى باب العودة: ليس السؤال بعد الآن كيف نصف الحجاب، بل كيف يستعيد القلب بصره إذا مال؟

خاتمة المحور السادس

بدأ المحور عند قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. ثم رأى القارئ من لم يؤمنوا أول مرة فقُلّبت أفئدتهم وأبصارهم، ومن انصرفوا عن السورة فصرف الله قلوبهم، وصاحب آيات انسلخ منها وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. في كل مشهد فعل للعبد، ثم حكم من الله لا يخرج عن عدله وحكمته.

ورأى بعد ذلك أوصاف الحجاب من غير أن يحولها إلى سلّم: مرضًا يزيد، ورانًا يصنعه الكسب، وقسوةً تمنع الخشوع، ووقرًا وعمى يحجبان الانتفاع، وتزيينًا يقلب السوء حسنًا، وطبعًا وختمًا يذكرهما الله في سياقات الكفر والإصرار. هذه النصوص تخيف القلب من طريقه، وتجعله أشد مبادرةً قبل أن يصير ما يؤلمه اليوم مألوفًا غدًا.

لذلك يبقى دعاء المحور حيًّا في آخره: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**». يقوله المؤمن وهو يبادر، ويرد الحق، ويقطع باب التأجيل، ويشكر الله على كل قدرة بقيت له على السماع والاعتراف.

ولا تنتهي القصة عند العقوبة. من رحمة الله أن يذكّر قبل أن يستحكم الحجاب، وأن يجعل للتوبة بابًا، وللإنابة أثرًا، وللتذكر بصيرة. وتأخير التوبة مقامرة بما لا يملكه العبد من بقاء الحس والقدرة والمهلة. ومن هنا ينتقل الكتاب من سؤال: كيف يزداد الزيغ؟ إلى السؤال الذي يحتاجه كل مذنب ومهتد: كيف يعود القلب إذا زل، وكيف يثبت حتى يلقى الله؟

المحور السابع: العودة والثبات

انتهى المحور السابق عند قلبٍ يخاف أن يضعف حسه، أو ينقلب ميزانه، أو يحال بينه وبين الانتفاع بما يسمع. ولو انتهى الكتاب هناك لترك القارئ أمام الوعيد وحده، وربما حمل الخوف على القنوط، أو جعل أوصاف المرض والطبع والختم حكمًا يصدره على نفسه والناس. غير أن القرآن الذي كشف طريق الزيغ فتح كذلك طريق العودة، ولم يجعل الزلة هويةً لا تنفك عن صاحبها.

في الطريقين فرقٌ يظهر بعد الخطأ. قد يمس المتقي طائف، فيتذكر فيبصر، وقد يتابع آخر الغي حتى يبتعد عن موضع الرجوع. وقد يقع العبد في معصية تؤلمه، فيذكر الله ويستغفر ولا يصر، وقد يحميها بالتبرير حتى يصبح الاعتراف أثقل من الفعل الأول. لا تُعرف جهة القلب من لقطة السقوط وحدها، وإنما من الحركة التي تأتي بعدها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. وصفهم بالتقوى مع وقوع المس، فلم يجعل التقوى عصمةً من كل عارض، وجعل علامتها أن يعود الذكر إلى القلب فيسترد بصره قبل أن تتحول اللحظة إلى طريق.

والعودة نفسها فضل من الله وعبودية للعبد. يتذكر العبد ويستغفر وينيب ويقطع السبب ويرد الحق، وكل حركة من هذه الحركات مأمور بها ومنسوبة إليه حقيقة. ثم يعلم أن انتباهه بعد الغفلة، وقدرته على الاعتراف، وصدق ندمه، وفتح باب الإصلاح، كلها من توفيق الله. لا يحتج بالافتقار على القعود، ولا يجعل توبته ثمنًا أوجب به المغفرة على ربه.

تحمل قصة آدم عليه السلام هذا المعنى من أول تاريخ الإنسان. زل، ثم لم يحوّل الزلة إلى احتجاج على الأمر أو عداوة للهدى. تلقى من ربه كلمات، فتاب الله عليه، ثم اجتباه وهداه. وقد افتتح الكتاب بقوله تعالى بعد الهبوط: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: 38]، ويعود في ختامه إلى القلب نفسه: يزل، ويتلقى من ربه طريق الرجوع، ثم يواصل السير وراء الهدى.

فتح باب التوبة لا يهوّن المعصية. الرحمة التي تدعو إلى الرجوع هي التي تحذر من الإصرار، والمغفرة لا تمحو مسؤولية رد الحقوق وإصلاح ما أفسد الإنسان. كما أن الخوف لا يمنح الشيطان حق إقناع العبد بأن فوات الكمال يعني فوات الطريق كله. بين الأمن والقنوط عبودية صادقة: ذنب يسمى باسمه، ورب يُرجى، وخطوة إصلاح تبدأ الآن.

وتأتي الوحدة الأخيرة بعد التوبة لتمنع وهمًا آخر: أن الرجوع شهادة وصول. من عاد اليوم يحتاج غدًا إلى دعاء الثبات، ومن عرف أسباب الهداية لا يملك نتائجها، ومن جمع القرآن والعلم والصحبة والطاعة لا يستغني بها عن مثبت القلوب. لذلك يختم الكتاب بدعاء الراسخين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

هذا المحور حركتان متصلتان. الأولى تقصر المسافة بين الزلة والاعتراف، وتنقل الندم إلى توبة وإصلاح. والثانية تحفظ القلب من الاطمئنان إلى ماضيه أو وسائله، وتجمع أسباب الثبات في عبادة تلازم القلب في القوة والضعف. وبين الحركتين يظل الدعاء حاضرًا: ربٌّ يفتح، وعبدٌ يرجع، ثم ربٌّ يثبت، وعبدٌ يلازم الطريق حتى اللقاء.

الوحدة السادسة والعشرون: التذكر والتوبة: كيف يعود القلب؟

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201–202]. وضع السياق صورتين بعد اقتراب الشر: متقون مسهم طائف فعاد إليهم البصر، وآخرون يمتد بهم الغي ولا يقصرون.

الطائف يمر ويقرب ويمس، ولا يلزم أن يستقر. تقع الفكرة، أو يشتد الغضب، أو تضعف النفس أمام شهوة، أو تنفتح في لحظة خوف على مخرج لا يرضي الله. التقوى لا تمنع كل ورود، لكنها تمنع أن تتحول الضيافة العارضة إلى إقامة. حين يتذكر القلب يستعيد الحقيقة التي غطاها الانفعال: من ربه، وما حكمه، وإلى أين يقوده اختياره.

والتذكر هنا أوسع من استرجاع معلومة محفوظة. قد يعرف الإنسان الحكم وهو في غفلته، لكنه لا يكون حاضر السلطان في قراره. يذكّره الله بآية أو كلمة أو وخزة ضمير أو أثر يراه فيمن ظلم، فتعود المعلومة من هامش الوعي إلى مركز الحكم. عندها يبصر الفعل باسمه، ويرى الطريق الذي كان الهوى يخفي نهايته.

لذلك جاءت الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، فصورت انقلابًا سريعًا حين صدق التذكر. عاد البصر الذي يميز الاتجاه، مع بقاء الألم وكلفة الاعتذار وقرب المدخل أحيانًا؛ فالتذكر لا يميت كل شهوة في لحظتها، لكنه يعيد إلى القلب قدرته على تسمية الظلمة باسمها.

أما الصورة المقابلة فتكشف امتداد الخطأ: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]. يمتد الطريق، وتأتيه أسباب من الخارج والداخل، ولا يقع الإقصار الذي يوقف الحركة. الفرق الذي يهم القارئ يظهر فيما بعد الزلة: أحدهما أوقف المسار بالتذكر، والآخر ترك الغي يمده.

تغضب أمٌّ من ابنتها فتقول كلمة تعرف قسوتها. يمكنها بعد دقائق أن تفسرها بالتربية والحرص، وتجمع أخطاء الابنة حتى تبدو الكلمة مستحقة. ويمكن أن تسكت لحظةً، وترى الأثر في الوجه، وتتذكر أن السلطة لا تبيح الظلم، فتعتذر وتعيد الحد بعبارة عادلة. الخطأ وقع، لكن الطريق بعده هو الذي سيعلم القلب ماذا يفعل في المرة التالية.

ويخطئ مسؤول في حق موظف أمام الناس. يرى بعد المجلس أن معلوماته ناقصة، فيأتيه خوفان: خوف من الظلم، وخوف على هيبته. إن أطاع الثاني بدأ يصنع رواية تحفظ الصورة؛ وإن أطاع الأول صحح علنًا بقدر العلن، ثم عالج القرار الذي بني على الخطأ. التذكر لا يكتمل حين يرى الحقيقة فقط، بل حين يعيد لها حقها في الفعل.

لهذا كان محك الزلة هو المسافة إلى الرجوع. قد يحتاج الإنسان إلى تحقق وفهم، وقد تكون المهلة لازمةً لذلك؛ غير أن القلب يعرف المواضع التي طال فيها التأخير لأن الاعتراف مكلف، لا لأن الحق غامض. كل يوم يمر هناك يضيف إلى الذنب مصلحةً جديدة في بقائه.

آدم: الزلة التي لم تصبح هوية

قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]. وقعت الزلة، وظهر أثرها في الخروج من الجنة، فلم تكن المعصية بلا عاقبة. ثم قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

بدأ الرجوع بعطاء من الرب: ﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37]. علّمه ما يقول، وفتح له باب الاعتراف؛ فالتوبة هنا هداية تلقاها آدم من ربه. ثم جاء فعل العبد في التلقي؛ أخذ الكلمات بقلب قابل، ولم يمر بها كما يمر المرء بعبارة يعرفها ولا يدخل تحتها.

الكلمات التي حكاها القرآن في موضع آخر هي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. لم ينسبا الظلم إلى الأمر، ولم يجعلا وسوسة الشيطان عذرًا يمحو اختيارهما، ولم يخففا الاسم حتى يحتمل المراوغة: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

وفي الدعاء افتقار كامل. اعترفا بالفعل، ثم لم يريا الاعتراف نفسه مغفرةً مضمونة، بل سألا المغفرة والرحمة. التوبة عمل للعبد، وقبولها فضل من الرب. ومن صدق في هذا المقام لا يعجب بدمعته ولا يجعل انكساره شهادةً لنفسه، يعرف أن القلب الذي اعترف هو قلب فتح الله له باب الاعتراف.

وجاء في سورة طه بيان آخر: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 121–122]. لم يحذف القرآن اسم العصيان، ولم يجعل العصيان خاتمة آدم. بعده اجتباء وتوبة وهداية. الزلة حدث حقيقي، والرجوع حركة حقيقية، ورحمة الله أوسع من أن تجعل المنيب أسيرًا لأمس تاب منه.

وهنا يفترق آدم عن إبليس في معمار الكتاب. كلاهما واجه أمرًا ووقع منه مخالفة، لكن إبليس حمى موقفه بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12]، ثم وسع سقوطه إلى مشروع إغواء. وآدم قال: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]. أحدهما بنى حول الخطأ ذاتًا تدافع، والآخر خلع دفاع الذات ووقف فقيرًا عند باب ربه.

وكلمة الاعتذار وحدها لا تضع صاحبها في مقام التوبة. قد يقول الإنسان: أخطأت، ثم يضيف من التفصيل ما يعيد الذنب إلى الظروف والآخرين، أو يطلب من المظلوم أن يريحه سريعًا من أثر ما صنع. اعتراف آدم لم يكن إدارةً للصورة، كان تسميةً للظلم، وسؤالًا للرحمة، وقبولًا لما يترتب على الرجوع.

ومن تمام القصة أن الهبوط لم يُلغ بعد التوبة. بقي أثر من آثار الزلة، وجاء التكليف في الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. قد يقبل الله التوبة ويبقى على العبد إصلاح أثر، أو تحمل نتيجة دنيوية، أو بناء طريق جديد داخل واقع لم يعد كما كان.

فالتوبة لا تعد الإنسان بأن كل خسارة سترد فورًا، ولا تعفيه من الصبر على نتائج فعله. تعطيه ما هو أعظم: أن يعود عبدًا لله بدل أن يظل عبدًا للدفاع عن نفسه، وأن يدخل مستقبله من باب الهدى بدل أن يبنيه امتدادًا لذنب ماضٍ.

من التبرير إلى الاعتراف والإصلاح

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]. لم يخرجهم وقوع الفاحشة أو ظلم النفس من طريق المتقين، وجعل الفارق في الذكر والاستغفار وترك الإصرار.

الذكر أعاد مقام الله إلى الفعل، والاستغفار طلب ستر الذنب ومغفرته، وترك الإصرار نقل التوبة من اللسان إلى الاتجاه. قد يتعثر التائب بعد ذلك، ولا يجعل تكرر الضعف وحده كل توبة كذبًا؛ ويخشى قرار الإقامة في قلبه، أو إبقاء السبب مفتوحًا مع مطالبة النفس كل مرة بإرادة أقوى.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135] يمنع التوبة من التحول إلى حركة غامضة. يعلمون ما فعلوا، ويعلمون أن لهم ربًّا يغفر، ويعلمون أنهم لا يملكون الإقامة على الذنب مع دعوى الرجوع. العلم هنا لا يزيد الحمل فقط؛ يفتح كذلك بابًا إلى الرجاء والعمل.

ثم قال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: 136]. سماهم عاملين بعد ذكر الذنب؛ فالتوبة عمل قلب ولسان وجوارح يعيد المسار.

ويفتح الله الباب لمن تجاوز الحد على نفسه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. ناداهم بعبادي مع إسرافهم، فسبق النداء كل حجة يقيمها اليأس.

ولا تقف الآيات عند إزالة القنوط، بل تدعو إلى الحركة: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: 54]. الرجاء القرآني لا يقول للعبد: ابق حيث أنت مطمئنًّا إلى سعة المغفرة؛ يقول: لا تيأس، ثم أنب وأسلم واتبع أحسن ما أنزل إليك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ

مَغْرِبِهَا» رواه مسلم (2759). يتجدد فتح الباب مع تجدد تقصير البشر، فلا يجعل العبد تأخره حجةً لمزيد من التأخر.

وفي الحديث نفسه رحمة توقظ ولا تخدر. بسط اليد دعوة إلى أن يقوم مسيء النهار في ليله، ومسيء الليل في نهاره. لا يحتاج إلى موعد مثالي تتجمع فيه قوة لا تنقص، ولا إلى صورة روحانية تسبق القرار. أول صدق أن يجيب الباب المفتوح بترك ما يستطيع تركه الآن.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ» رواه مسلم (2747)، وأخرجه البخاري (6309) بنحوه. ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك مثل رجل وجد راحلته بعد أن أضلها في أرض مهلكة. لا يعود التائب إلى رب يضيق برجوعه، بل إلى رب يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده فرحًا يليق بجلاله.

هذا المعنى يهدم خجلًا فاسدًا يجعل المذنب يبتعد عن الصلاة والقرآن لأنه لا يرى نفسه أهلًا للقرب. الخجل الصادق يقوده إلى الباب، أما الخجل الذي يبعده عن الدواء فيخدم المرض. لا ينتظر حتى يصير طاهرًا ليعود؛ يعود لأن طهارته لا تكون إلا بعفو الله وطاعته.

غير أن التوبة لا تختزل في الشعور بالفرح والراحة. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70]. جمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، ثم ذكر الفضل العظيم في تبديل السيئات حسنات.

ومن آثار هذا الوعد أن التائب لا يبقى محبوسًا في إدارة خسارة ماضيه. يفتح الله له باب العمل الصالح، فيتحول الموضع الذي عصى فيه إلى موضع صدق وإصلاح: من نشر باطلًا نشر الحق، ومن ظلم رد المظلمة، ومن أفسد علاقة اجتهد في إصلاحها، ومن فتح باب فتنة أغلقه وحذّر منه. لا يمحو الزمن، لكنه يغيّر بتوفيق الله اتجاه الأثر.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: 82]. بعد التوبة والإيمان والعمل جاءت الهداية المستمرة؛ فالتوبة لا تنتهي عند مغادرة الذنب، بل تدخل صاحبها في طريق يحتاج إلى متابعة. يترك القديم، ويبني صالحًا، ثم يلازم الهدى كلما فتح له يوم جديد.

إذا تعلق الذنب بحقوق الخلق، ظهر صدق التوبة في العدل. يرد المال، أو يصحح الخبر، أو يزيل الأذى، أو يطلب المسامحة حيث يكون ذلك هو الطريق المشروع. وقد تحتاج بعض الصور إلى سؤال عالم

مأمون حتى لا يولد التصحيح مفسدةً أكبر؛ لكن تعقيد بعض التفاصيل لا يبيح جعل الندم الباطن بديلًا عن الحق الذي يقدر عليه.

ويكون إصلاح الأثر كذلك في البيوت. أبٌ اعتاد تخويف أبنائه ثم تاب لا يكتفي أن يبكي وحده؛ يتعلم لغةً جديدة، ويعتذر بقدر يفهمونه، ويعيد بناء الأمان بصبر. وزوجة أفشت سرًّا لا يكفيها أن تستغفر مع إبقاء الخبر يدور؛ تقطع انتقاله، وتصحح ما تستطيع، وتحفظ ما استؤمنت عليه بعد ذلك.

وقد تكون التوبة من طريق علمي أو دعوي. يكتب الإنسان حكمًا بغير ثبت، أو ينقل خبرًا يشوه شخصًا، ثم يتبين له الخطأ. لا يكتمل الرجوع بحذف صامت إذا بقي الأثر منتشرًا باسمه؛ يصحح بقدر ما نشر، ويقبل أن تنقص صورته لحظةً حتى لا يبقى الناس أسرى لخطئه. قد تكون هذه الخسارة الظاهرة أول ربح صادق لقلبه.

اقطع المسافة إلى الرجوع

محك الوحدة زلة أو انحراف تعلم موضعه ولا تزال تؤخر مواجهته. سمِّه في عبارة لا تحمل دفاعًا: حق أخّرته، أو ذنبًا كررته، أو أذى أحدثته، أو بابًا تعرف أنه يعيدك كل مرة. لا تبدأ بوصف نفسك كلها؛ التوبة تتعامل مع فعل معلوم، ولا تحتاج إلى تحويل الإنسان إلى تهمة شاملة.

ثم ميز بين ست حركات متصلة: أن تقطع السبب القريب، وتندم على مخالفة الله، وتعزم ألا تقيم على الطريق، وتستغفر وتنيب، وتصلح الأثر، وتضع بديلًا يحفظ الحاجة من العودة إلى الباب نفسه. وهذه الحركات لا تمنح صاحبها ضمانًا؛ إنها صورة عمل صادق يرجو به رحمة الله.

قطع السبب يسبق اختبار الإرادة. احذف الوصول الذي يفتح المعصية، واخرج من الخلوة التي تضعفك، وأوقف المال المشبوه، وأجّل الرد في الغضب، واطلب مساعدةً ممن يحفظ سرك ودينك. من دعا الله أن ينجيه ثم أبقى المدخل مهيأً لم يأخذ بأقرب ما يملك من أسباب الإجابة.

والبديل جزء من صدق التوبة، لا ترف علاجي. قلب يترك صحبةً فاسدة يحتاج إلى صحبة صالحة، ومن يغلق باب نظر يحتاج إلى عمل يملأ فراغه، ومن يترك مكسبًا محرمًا يحتاج إلى سعي مباح ولو كان أقل، ومن اعتاد تسكين ألمه بالعدوان يحتاج إلى لغة أخرى يطلب بها حقه. التوبة تقطع طريقًا وتفتح طريقًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» رواه الترمذي (1987)، وقال: حديث حسن صحيح. لم يجعل الحسنة ستارًا يبقي السيئة، بل عملًا يأتي بعدها في طريق التقوى وإصلاح الصلة بالناس.

وإن عدت إلى الذنب بعد توبة صدقت في ساعتها، فلا تجعل العثرة الثانية تعريفًا نهائيًّا لنفسك. لا تهوّنها، ولا تحكم بها وحدها على التوبة الأولى. عد من جديد، وابحث هذه المرة عن المدخل الذي أغفلته، وقوِّ البديل، واطلب عونًا أوسع. الشيطان يريد من سقوطك أن يقنعك بأن الرجوع لم يعد لك؛ فلا تمنحه هذا المعنى.

ويبقى الخوف من عدم القبول حارسًا للعمل، لا مانعًا منه. القبول غيب يرجوه، وعلامة الصدق أن يستمر في الطاعة والإصلاح من غير مطالبة بإحساس يطمئنه كل لحظة. قد يبقى قلبه خائفًا، ويكون خوفه عبادةً تحفظه؛ وقد يشعر براحة، ولا تكون الراحة وثيقةً تغنيه عن الحراسة.

اكتب اليوم أول خطوة يمكن التحقق منها، لا وعدًا عامًا. اتصال ينهي ظلمًا، أو تحويل يعيد مالًا، أو إغلاق مدخل، أو موعد مع عالم أو معالج مأمون، أو بيان يصحح معلومة. وحين تنفذها احمد الله الذي أبقاك قادرًا على الرجوع، ولا تجعل الإنجاز الصغير سببًا لتأجيل بقية الحق.

ثم اسأل نفسك بعد أيام: هل قصرت المسافة بين الخطأ والاعتراف؟ هل صارت لغة التوبة أوضح، أم بدأت الأعذار تعود بأسماء جديدة؟ هل بنيت حول الضعف حراسةً، أم اكتفيت بذكر الندم؟ الاتجاه المتكرر هو الذي يحول التوبة من لحظة مؤثرة إلى خلق يرجع به القلب كلما مال.

وحين يعود العبد لا يقف عند صورة الماضي ولا يركن إلى حرارة الحاضر. يقول بقلب آدم: ظلمت نفسي، ويأخذ من رحمة ربه قوةً للإصلاح، ثم يسمع نداء الطريق من جديد: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. بعد العودة يبقى السؤال: من يحفظ هذا القلب في غده، وكيف يثبت حتى يلقى الله؟

الوحدة السابعة والعشرون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: 8]: الثبات حتى اللقاء

دعاء الراسخين بعد الهداية

قال الله تعالى في وصف الراسخين في العلم:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 7-8].

جمعوا العلم والتسليم والدعاء، فلم يجعلهم الرسوخ آمنين من الزيغ.

هذا الدعاء يصدر عن يقين بوعد الله ومعرفة بالله وبالقلب: الله هو الذي هدى، والقلب لا يستقل بحفظ ما أُعطي، والعبد مأمور أن يأخذ بالأسباب ثم يسأل ربه ألا يكله إليها. كلما ازداد علمه عرف مواضع ضعفه ودقة الفتن التي قد تدخل عليه.

قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، فاعترفوا بالنعمة قبل أن يسألوا حفظها، ونسبوا الهداية إلى ربهم بدل أن يروها ثمرة قوتهم. هذا الاعتراف يحرس القلب من مدخلين: من جحود النعمة، ومن تحويلها إلى شهادة تفوق على الناس.

ثم قالوا: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: 8]. الثبات هبة متجددة، لا رصيد يملكه الإنسان بمجرد أن عرف الطريق مرة. يحتاج إلى رحمة تحفظ فهمه، وتقوي إرادته، وترده إذا مال، وتفتح له من الصحبة والعلم والعمل ما يعينه على الاستقامة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه، يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فقيل له: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» رواه الترمذي (2140)، وقال: حديث حسن.

كان هذا دعاء من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف يستغني عنه من دونه؟ يورث الحديث افتقارًا يكسر الاعتماد على النفس من غير رعب غامض من كل خاطر. يعمل المؤمن، ويجاهد، ويغلق أبواب الفتنة، ثم يرفع قلبه إلى مقلب القلوب؛ لأن تمام الثبات ليس من صنعه.

ويصح الخوف حين يثمر حراسة، ويفسد حين يتحول إلى مراقبة لا تنتهي لكل إحساس. القلب يفرح ويحزن ويقوى ويفتر، وتظهر هدايته في بقاء الوحي مرجعه، وفي عودته إذا زل، وحفظه الفرائض والحقوق، ورفضه أن يجعل تغير الشعور عذرًا لتغيير الطريق.

والعلم نفسه يحتاج إلى هذا الدعاء. قد يحمل الإنسان نصوصًا كثيرة، ثم تدخل عليه فتنة التأويل للمصلحة أو التعالي على من يذكره. الراسخون جمعوا بين فهم الأدلة وطلب سلامة القلب الذي يحملها. المعرفة التي لا يصحبها افتقار قد تمنح صاحبها أدوات أوسع للدفاع عن نفسه.

فضل يهبُه الله وأسباب يأخذ بها العبد

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]. التثبيت فعل لله، وربطه النص بالإيمان والقول الثابت. يعمل المؤمن بما أمر، ثم يعلم أن بقاء قلبه على الحق هبة متجددة من ربه، لا ملكًا يستقل به ولا نتيجةً آليةً لأسبابه.

القول الثابت توحيد وإيمان يفسران القرار، وكلمة حق تبقى حين تتغير المصلحة، ومرجع يرجع إليه القلب في الرخاء والضغط. وحين تعيش الحقيقة في اليوم العادي، وتدخل في المال والخصومة والعلاقة والعمل، تكون أقرب إلى اللسان والقلب في ساعة الكلفة.

ومن أعظم ما يثبت الله به القلب ملازمة القرآن؛ خطابًا يعيد ترتيب الرؤية كلما اضطربت. يقرأ العبد في القوة حتى لا تنسب نفسه النجاح إليها، ويقرأ في الضعف حتى لا يفسر تعثره بأنه طرد من الرحمة، ويقرأ عند التردد حتى لا يكون آخر صوت سمعه هو الذي يحكمه.

وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تحفظ الطريق من أن يتحول الإيمان إلى شعور خاص. كل سنة صحيحة تقيم حدًّا أو تفتح بابًا تعيد المؤمن إلى هداية لا يصنعها مزاجه، وإذا أشكل عليه المعنى طلب فهمه من أهله، وبقي سلطان البيان النبوي فوق جهله المؤقت وهوى ساعته.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66-68]. رتب النص الخير والتثبيت والهداية على فعل ما وُعظوا به، فالعلم يثبت حين ينتقل من الذاكرة إلى العبودية.

يدخل المؤمن الطاعة بما عنده من يقين ولو لم يشعر بقوة كاملة. يقوم إلى الصلاة مع الفتور، ويصدق مع الخوف، ويرد الحق مع كلفة الصورة، فيتعلم قلبه داخل الفعل أن أمر الله يمكن أن يحكمه. الطاعة التالية لا تصبح مضمونة، لكنها تجد في النفس طريقًا سبق أن سلكته لله.

حراسة الطريق في اليوم العادي

والصحبة الصالحة تحفظ الذاكرة الإيمانية حين تضعف ذاكرة الفرد. يرى المؤمن من يذكره من غير إذلال، ويعرف من يقول له: أخطأت، ولا يسقطه من المحبة، ويجد مجلسًا يعظم النص أكثر من الأشخاص. هذه الصحبة لا تقوم مقام ضميره، لكنها تجعل الرجوع مألوفًا بدل أن تجعله فضيحة.

ومن فقه القلب أن يبتعد عن الفتنة التي عرف أثرها فيه. من علم أن مجلسًا يهون المعصية، أو حسابًا يملأ قلبه بالحسد، أو علاقةً تفتح بابًا لا يملكه، جعل المسافة حراسةً لا هزيمة. القوة أحيانًا أن يعترف بموضع ضعفه قبل أن تسلبه الفتنة قدرته على الاعتراف.

وشكر نعمة الهدى يحفظ معناها في القلب: ينسب الفضل إلى الله، ويعمل بما عرف، ويرحم من لم يفتح له، ويخاف أن تتحول الهداية إلى رتبة اجتماعية أو مادة خصومة. وإذا زل أسرع إلى التوبة؛ فالثابت لا يعيش بلا عثرة، لكنه يمنع العثرة من أن تبني بيتًا حولها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» رواه مسلم (783)، وأخرجه البخاري (6464) بنحوه. الدوام يبني صلةً لا تعتمد في كل مرة على موجة حماس، والقليل المستمر يظل بابًا مفتوحًا يرجع منه القلب حين يضعف.

لذلك يحتاج المؤمن إلى أصل ثابت من العبادة لا يهجره في أيام القوة والفتور: فرض يحفظه، وورد من القرآن يفهمه، وذكر يلازمه، وعلم يزيل جهله القريب، وصلة بصاحب يصدقه، ووقفة محاسبة ترد يومه إلى ميزان الله. يزداد فوق ذلك حين ينشط، ويحفظ الأصل حين تضيق قدرته.

والوسائل تخدم العبودية ولا تحل محلها. قد يكمل المرء أوراده ويضعف حضور قلبه، أو يحافظ على ترتيب تعبدي ثم يظلم من حوله؛ فيراجع أثر ما يفعل: هل زاده خضوعًا وصدقًا وعدلًا؟ وإذا تغيرت حياته عدّل الصورة وحفظ المقصود، فالشريعة تريد عبادةً تلازم العمر، لا موسمًا يستهلك صاحبه ثم يتركه.

وتحرس المحاسبة هذا الدوام من الغفلة. يقف المؤمن ليرى الاتجاه: ما الطاعة التي ثبتت؟ أين طال التأجيل؟ من له حق عندي؟ وما المورد الذي غيّر قلبي؟ ثم يخرج بقرار واحد أو اثنين يمكن تنفيذهما، فالمحاسبة التي تثمر فعلًا أدل على الصدق من إدانة عامة تشل الإرادة.

حين تتغير الكلفة

يظهر الثبات في الأسرة وفاءً هادئًا: يحفظ الوالد صلاته وصدقه وعدله حين لا يراه الجمهور، وتجد الأسرة منه خلقًا متقاربًا في الرضا والغضب. قد يخطئ، لكنهم يعرفون فيه باب رجوع مفتوحًا؛ وهذا التكرار الصادق يربي القلوب أكثر من كلمات كبيرة لا يسندها يوم عادي.

وفي العمل اليومي يُعرف الثبات حين يبقى الحلال حلالًا مع ضيق الميزانية، وتبقى الأمانة حاضرةً حين يغيب الرقيب، ولا تتغير دقة الخبر بحسب مصلحة المؤسسة. المواقف الكبرى لا تنشئ القلب من الصفر؛ تكشف ما دربه في معاملات صغيرة حتى صار الحق فيها خُلُقًا لا صفقةً عابرة.

وفي العلم والدعوة يُعرف الثبات حين يظل النص فوق الاسم والجمهور. يصحح العالم إذا تبين له، ويقول لا أعلم، ويحفظ فضل من نبهه، ولا يجعل طول الطريق حجةً على عصمته. وكلما اتسع أثر الإنسان اشتدت حاجته إلى دعاء الثبات؛ لأن الخطأ إذا التصق بالمكانة صار الرجوع أثقل وأثر التأخر أوسع.

وهذه المواطن كلها تعيد معنى الآية إلى الحياة: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: 27]. يأخذ العبد بالأسباب، ويدفع كلفة الطاعة، ثم يبقى قلبه عند باب الوهاب؛ فالأسباب أبواب مأمور بها، والثبات فضل لا يملكه أحد قبل أن يلقاه.

حتى يأتيك اليقين

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99]. اليقين هنا الموت، فيمتد مقام العبودية في الدنيا إلى آخر النفس. تتغير الصور والقدرات، ويضعف الجسد، وتضيق بعض الأبواب، ويبقى العبد مكلفًا بما يستطيع حتى آخر النفس.

هذه الآية تمنع الإنسان من تحويل تجربة ماضية إلى تقاعد قلبي. لا يقول: ثبتُّ في فتنة قديمة، أو حفظت القرآن، أو خدمت الدين سنوات، ثم يعامل ما مضى كأنه يكفي حاضرًا لم يعد فيه القلب يذكر أو الجوارح تعمل.

لكل يوم عبوديته، وكل نعمة سابقة تحتاج إلى شكر جديد.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]. لا يملك الإنسان ساعة موته، ولذلك كان معنى الأمر أن يلزم الإسلام في عمره حتى إذا جاءه الموت وجده عليه. حسن الخاتمة يُطلب في تفاصيل الحياة التي تسبقها.

والاستقامة الطويلة لا تجعل الخاتمة ملكًا لصاحبها. الخواتيم إلى الله، والعبد لا يرى الغيب. وظيفته أن يلزم طريق الاستقامة، ويخاف من التحول، ويحسن الظن بربه، حتى يأتيه اليقين وهو على الإسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» رواه البخاري (6607). الحديث يحفظ قيمة الطريق ويمنع الاطمئنان إلى صورة سابقة. قد يفتح الله لعبد في آخر عمره باب صدق يغير خاتمته، وقد يفتن آخر بعد عمل طويل؛ لذلك يبقى المؤمن بين سؤال القبول والخوف من التقلب.

والخوف من الخاتمة لا يتحول إلى سوء ظن بالله. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاث يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ» رواه مسلم (2877). يجتمع في القلب خوف من نفسه ورجاء في ربه؛ يخاف تقصيره، ويرجو رحمةً سبقت غضبه.

حسن الظن معرفة بكرم الله تدفع إلى بابه، وثقة بوعده تحمل على التوبة، ورجاء يمنع اليأس إذا كثرت العثرات. وأما الرجاء الذي يطلب المغفرة من غير رجوع فيشبه أمنًا نهى القرآن عنه، لا حسن ظن شرعيًّا.

وفي آخر العمر قد تتغير صورة العبادة ولا تتغير الحاجة إلى الثبات. يضعف الجسد أو الذاكرة أو القدرة، فلا يُقاس العبد بصورة شبابه؛ لكل حال وسعها. ما دام العقل حاضرًا يقوم بما يقدر، ويذكر الله على حاله، ويستعين بأهله على الفرائض، ويحفظ قلبه من الاعتراض. من رحمة الله أن التكليف بالوسع، ومن تمام العبودية أن يبقى القلب متجهًا إليه حتى آخر ما يستطيع.

ومن أسباب حسن الخاتمة ألا يؤجل الإنسان الحقوق. لا يدري متى يغلق باب القدرة، فيرد ما استطاع، ويوثق ما عليه، ويصل رحمًا طال جفاؤها، ويصحح وصيةً أو خبرًا أو شهادة. والاستعداد للقاء يعيد ترتيب الحياة بحيث لا يترك الإنسان خلفه ظلمًا كان يقدر على رفعه.

ويحتاج القلب إلى أعمال خفية لا يعرفها الناس. ركعة في جوف الليل، وصدقة لا يذكرها، ودعاء لمن أساء إليه، ودمعة من خشية الله، وحق يؤديه من غير ثناء. الخفاء لا يضمن القبول، لكنه يربي الصلة بالله بعيدًا عن المرآة الاجتماعية التي قد تخلط العبادة بصورة الإنسان عند غيره.

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101]

قال يوسف عليه السلام بعد أن جمع الله له الملك والعلم ولقاء أهله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

بلغ يوسف عليه السلام موضعًا يجتمع فيه ما يطمئن إليه البشر: زالت المحنة، واجتمع الشمل، واتسع الملك، وظهر أثر العلم.

وفي تلك الذروة نسب العطاء إلى ربه: آتيتني وعلمتني، ثم أعلن الولاية: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: 101]، وسأل أن يحفظ الله خاتمته كما حفظ طريقه.

وسؤال ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ طلبٌ لأن يأتي الموت على الإسلام حين يقدره الله، لا استعجالٌ له. ومع نبوته وصلاحه سأل: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]؛ فنسب تمام المآل إلى فضل ربه، ورأى نفسه محتاجًا إلى صحبة الصالحين حتى بعد ما آتاه الله من العلم والتمكين.

هذه ذروة الوحدة: النجاح لا يغيّر السؤال الأخير، بل يجعله أشد حضورًا. قد يحفظ الإنسان مشروعه ويضعف قلبه، أو تتسع آثاره ويقل إخلاصه، أو ينتفع الناس بعلمه وهو يطمئن إلى اسمه. دعاء يوسف يعيد الولاية إلى الله، ويجعل كل فتح سببًا لمزيد من الافتقار والشكر.

عهد الثبات

وعند «عهد الثبات» لا يحتاج القارئ إلى قائمة جديدة تكرر أسباب الوحدة. يختار من كل ما سبق حراستين أو ثلاثًا عرف بالتجربة أنها تحفظ اتجاهه، ويحوّلها إلى التزام محدد لا يفاوض عليه في أيام القوة والفتور.

يختار قدرًا يستطيع دوامه، ثم يزيد عليه حين تتسع طاقته.

ويكتب أبواب الخطر التي عرف أثرها فيه: صحبةً، أو خلوةً، أو مالًا، أو غضبًا، أو شهرةً، أو مادة رقمية. يضع لكل باب حراسةً محددة قبل زمن الضعف؛ فمعرفة الفتنة نعمة حين تتحول إلى مسافة تحفظ القلب وقرار يمنع أول الطريق.

ويجعل دعاء الثبات جزءًا من يومه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، و«**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»، و﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]. يقولها وهو يعمل، فيجتمع السبب والافتقار بدل أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

وإذا فتر أو فات ورده أو انفتح عليه باب ضعف، رجع في يومه بقدر ما يستطيع. الطريق الحي يقبل الإصلاح بعد العثرة، والثبات تعلق بالحق؛ لذلك يترك المؤمن قولًا ظهر خطؤه، ويغيّر وسيلةً أفسدت المقصود، وينتقل من بيئة تهدد دينه، من غير أن يسمي الإصرار وفاءً للمبدأ.

وأكثر الثبات يقع بعيدًا عن ضجيج المواقف: امرأة ترعى حقًّا سنوات، وشاب يغض بصره كل يوم، وعامل يؤدي أمانته من غير رقيب، وصاحب علم يصحح كلمةً انتشرت عنه. الله يعلم مواضع الجهاد، والصدق عظيم عنده وإن لم يصفق له جمهور.

وحين يجمع المؤمن هذه الأسباب يشكر من وفقه إليها، ثم يستودع قلبه عند الوهاب. إن رأى خيرًا ازداد شكرًا، وإن زل أسرع إلى التوبة، وإن خاف أحسن الظن بربه. هكذا يلازم الطريق: عملٌ مأمور به، وافتقارٌ لا ينقطع، ودعاءٌ أن يلقى الله مسلمًا.

خاتمة الكتاب

يعود الكتاب إلى الكلمة التي يقولها المسلم في كل ركعة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. قالها في بدايته وهو يسأل: ما الهداية التي أطلبها وأنا مسلم؟ ويقولها الآن بعد أن عرف مصدر الهدى وأسبابه وزيادته، ورأى مداخل الزيغ وطريق العودة؛ فيجد في الدعاء افتقارًا لا ينقطع، وبيانًا وقبولًا وعملًا وبصيرةً بعد الزلة وثباتًا حتى اللقاء.

ويمضي وهو يحمل ميزانين لا يفترقان: يعمل لأن الله أمره، ويفتقر لأن العمل لا يستقل بثمرته. القدر لا يصير عذرًا للقعود، والسبب لا يتحول إلى ضمان مستقل للنتيجة. يشكر إذا أُعين، ويتوب إذا زل، ويسأل الرحمة إذا خاف، ويرجو أن يلقى الله على الإسلام. وفي قلب هذا المسار قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 17]؛ فالهداية بداية تتجدد، واستجابة تفتح زيادة، ونعمة تحرس بالشكر.

ومقابل الزيادة زيغ يبدأ من اختيار ثم يترك أثره، غير أن الطريق لا يغلق على من تذكر وأناب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. هكذا يكتمل مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة، ويبقى في يد العبد دعاء وعمل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

الملحق العلمي

دليل الألفاظ القرآنية الحاكمة في مسار الهداية والزيغ والعودة

تحرير موجز للفروق التي يقوم عليها مسار الهدى والزيغ والعودة

بيان النطاق

هذا الدليل أداة رجوع وضبط تخدم القارئ بعد إتمام الكتاب، ولا يقصد استقصاء جميع دلالات الألفاظ في القرآن، ولا وضع حدود معجمية جامعة لكل استعمالاتها. فهو يحرر المعاني والفروق التي يحتاج إليها مسار هذا الكتاب في الآيات والسياقات التي اعتمدها، ويمنع استعمال الألفاظ المتقاربة كأنها مترادفات من كل وجه، أو تحويل الفروق السياقية إلى سُلَّم جامد لا يدل عليه النص.

تأتي الألفاظ في ثلاث دوائر: ألفاظ الطريق والهداية، ثم ألفاظ الرجوع، ثم ألفاظ الانحراف والحجب. وتحت كل مدخل خمسة حقول ثابتة: المعنى في سياق الكتاب، والشواهد المركزية، والفرق عما يقاربه، وموضعه في حركة الكتاب، وتنبيه يمنع الاستنباط المتجاوز.

الخريطة المختصرة

ألفاظ الطريق تصف مصدر الهدى والسبيل إليه، وكيف يدخل النور إلى القلب ويثمر اتباعًا ورشدًا وتثبيتًا. وألفاظ الرجوع تصف ما يقع حين يتذكر العبد بعد الغفلة، فيتوب من ذنب معين وينيب إلى ربه في سائر طريقه. وألفاظ الانحراف تصف حركة تبدأ من إعراض أو ميل، ثم قد تتراكم في الإدراك والقلب، أو يعاقب صاحبها بالصرف والطبع والختم، مع بقاء الحكم على الأعيان والمصائر إلى الله وحده.

أولًا: ألفاظ الطريق والهداية

1. الهدى والرشد

المعنى في سياق الكتاب: الهدى دلالة الله إلى الحق وبيانه لعباده، ويأتي كذلك بمعنى توفيق القلب لقبوله وسلوكه. والرشد إصابة وجه الحق مع صلاح القصد والعمل؛ فهو أثر يظهر حين لا تبقى المعرفة خبرًا في الذهن، بل تقود القرار والسلوك.

الشواهد المركزية: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 120]، و﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: 2]، و﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

الفرق عما يقاربه: الهدى أوسع، فقد يراد به البيان الذي تقوم به الحجة، وقد يراد به التوفيق إلى القبول. أما الرشد فيدل في سياقات الكتاب على إصابة الصواب مع استقامة القصد والعمل. فقيام بيان الهدى على الإنسان لا يجعله راشدًا حتى يقبله ويتبعه.

موضعه في حركة الكتاب: الهدى أصل المسار كله، والرشد من ثماره العملية. انظر: المحور الأول، الوحدات 1–4؛ والمحور الثالث، ولا سيما الوحدتين 7 و12؛ والمحور الرابع، الوحدات 14–17.

تنبيه منهجي: لا تختزل الهداية في المعلومة، ولا يجعل تحصيل العلم شهادةً لصاحبه بالرشد. كما لا يجعل الرشد خاطرًا شخصيًّا يستغني به الإنسان عن الوحي والعلم والمراجعة.

2. الصراط والسبيل

المعنى في سياق الكتاب: الصراط هو الطريق الجامع المستقيم الذي رسمه الله لعباده، والسبيل طريق موصل إلى غاية، ويأتي في القرآن للخير والشر بحسب إضافته وسياقه، ويجمع على سبل.

الشواهد المركزية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]، و﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16].

الفرق عما يقاربه: الصراط المستقيم واحد في مرجعه ووجهته، أما السبل فتتعدد، فمنها سبل السلام والطاعة التي تجري تحت الطريق الجامع، ومنها السبل المتفرقة التي تصد عنه. لذلك لا تكون الكثرة وحدها مدحًا أو ذمًّا، وإنما تعرف الغاية بما يقود إليه السبيل.

موضعه في حركة الكتاب: يمثل الصراط جهة الكتاب الجامعة، وتمثل السبل صور السير والاختيار في الحياة. انظر: المقدمة؛ والمحور الأول، الوحدة 1؛ والمحور الثالث، الوحدة 7؛ والمحور الخامس، الوحدتان 18 و19.

تنبيه منهجي: لا يتخذ تعدد السبل ذريعةً لتعدد الحقائق المتناقضة، ولا تستعمل وحدة الصراط لإلغاء سعة الطاعات والاجتهاد المشروع. المرجع هو الوحي، والسياق هو الذي يبين مدح السبيل أو ذمه.

3. النور والبصيرة والفرقان

المعنى في سياق الكتاب: يمثل النور ما يكشف الله به الحق من وحي وإيمان، وتدل البصيرة على إدراك القلب النافذ الذي يرى دلالة الحق وموضعها، ويأتي الفرقان هدايةً وتمييزًا ومخرجًا يمنحه الله للمتقين. وهذه علاقة وظيفية في مسار الكتاب، وليست حدًّا يستوعب كل استعمال قرآني للألفاظ.

الشواهد المركزية: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]، و﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]، و﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

الفرق عما يقاربه: النور يكشف، والبصيرة تبصر بالقلب، والفرقان يميز عند الاشتباه. وقد تتداخل دلالاتها بحسب السياق؛ فلا تجعل مراحل ثابتة لا تتغير، ولا ينسب الفرقان إلى ذكاء مستقل عن الوحي والتقوى.

موضعه في حركة الكتاب: يظهر النور في وصول الوحي، وتظهر البصيرة في هيئة القلب الذي يستقبله، ويظهر الفرقان ضمن ثمرات زيادة الهدى. انظر: المحور الثاني، الوحدتان 5 و6؛ والمحور الثالث، الوحدة 8؛ والمحور الرابع، الوحدتان 15 و16؛ والمحور السابع، الوحدة 26.

تنبيه منهجي: لا يجعل الشعور الداخلي نورًا حاكمًا على النص، ولا تدعى البصيرة في مواجهة الدليل، ولا يفهم الفرقان عصمةً من الخطأ. كل إدراك باطني يوزن بالوحي والعلم والعدل.

4. هداية البيان وهداية التوفيق والتثبيت

المعنى في سياق الكتاب: هداية البيان تعريف الطريق وإقامة الدلالة عليه، وقد كلف الله بها رسله وأهل البلاغ. وهداية التوفيق فتح القلب للحق وإعانته على قبوله، وهي بيد الله وحده. والتثبيت حفظ العبد على الهدى عند تغير الزمن واشتداد الفتنة وارتفاع الكلفة.

الشواهد المركزية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56]، و﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: 88]، و﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27].

الفرق عما يقاربه: البيان يصل إلى السمع والعقل، والتوفيق يدخل بالحق إلى موضع الإرادة والعمل، والتثبيت يديم أثره في الزمن والفتنة. قد يبلغ البيان إنسانًا ولا يوفق لقبوله، وقد يهتدي العبد ثم يبقى محتاجًا إلى التثبيت حتى اللقاء.

موضعه في حركة الكتاب: هو العقدة العقدية التي تصل فضل الله بمسؤولية العبد. انظر: المحور الأول، الوحدات 1–4؛ والمحور الثالث كله؛ والمحور الرابع، الوحدات 14–17؛ والمحور السابع، الوحدة 27.

تنبيه منهجي: لا تجعل الأسباب ثمنًا يوجب على الله التوفيق، ولا يتخذ كون التوفيق بيده عذرًا للقعود. يعمل العبد لأن الله أمره، ويشكر لأنه وفقه، ويرجو الثمرة من الفضل، ويسأل الثبات من غير أمن بالنفس.

5. الاتباع والاستجابة

المعنى في سياق الكتاب: الاتباع لزوم ما جاء به الهدى والتحرك خلفه في الاعتقاد والقرار والعمل، والاستجابة قبول النداء وإعطاؤه جوابه العملي. كلاهما ينقل المعرفة من السماع إلى الحركة، وقد تقع الاستجابة للحق أو للباطل بحسب الجهة التي أجابها الإنسان.

الشواهد المركزية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]، و﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: 18]، وفي الجهة المقابلة: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22].

الفرق عما يقاربه: قد يسمع الإنسان ويفهم، ثم لا يتبع. والاتباع يصف امتداد الحركة خلف الهدى، أما الاستجابة فتبرز لحظة إجابة الدعوة والدخول في مقتضاها. ولهذا تكون الاستجابة الأولى بداية مسار يمكن أن يثبت ويتكرر أو ينقطع.

موضعه في حركة الكتاب: يمثلان فعل العبد الذي يربط وصول البيان بسنة الزيادة أو الزيغ. انظر: المحور الثالث، الوحدات 7–13؛ والمحور الرابع، الوحدتان 14 و15؛ والمحور الخامس، الوحدتان 18 و23.

تنبيه منهجي: لا يساوى بين الاستجابة والانفعال العابر، ولا بين الاتباع والتقليد الأعمى. الاتباع المحمود تابع لوحي صحيح وفهم معتبر، والاستجابة الصادقة يظهر أثرها في القرار ولو بدأت بخطوة مقدورة صغيرة.

ثانيًا: ألفاظ الرجوع

6. التذكر والتوبة والإنابة

المعنى في سياق الكتاب: التذكر عودة المعنى الغائب إلى موضع الحكم في القلب، فيرى العبد ما حجبه الطائف أو الغفلة. والتوبة رجوع عن ذنب معين بالإقلاع والندم والعزم، ومع حقوق الخلق رد وإصلاح. والإنابة رجوع متجدد إلى الله بالإقبال والطاعة والافتقار، فتدخل التوبة فيها وتبقى الإنابة مطلوبة في سائر الطريق.

الشواهد المركزية: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، و﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 37]، و﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: 54].

الفرق عما يقاربه: التذكر يعيد البصر، والتوبة تعالج مخالفةً محددة، والإنابة تصف اتجاه القلب المتكرر إلى ربه قبل الذنب وبعده. قد يتذكر الإنسان ولا يكمل توبته، وقد يتوب من فعل ويبقى محتاجًا إلى إنابة تحفظ وجهته.

موضعه في حركة الكتاب: هذه الألفاظ هي جسر الخروج من الزلة إلى السير والثبات. انظر: المحور الثالث، الوحدة 7؛ والمحور الخامس، الوحدات 18–20؛ والمحور السابع، ولا سيما الوحدتين 26 و27.

تنبيه منهجي: لا تختزل التوبة في انفعال أو دمعة، ولا يجعل الرجاء بالمغفرة غطاءً للإقامة على الذنب. كما لا تحول الزلة إلى هوية نهائية؛ المعيار ما يفعله القلب بعدها: أيتذكر ويصلح، أم يبرر ويقيم؟

ثالثًا: ألفاظ الانحراف والحجب

7. الزيغ والإعراض والضلال والغي

المعنى في سياق الكتاب: الزيغ ميل عن الاستقامة، والإعراض إدارة الوجه والمسافة عن الذكر والبيان، والضلال مفارقة الطريق أو فقده، والغي يقابل الرشد ويقترن في سياقات الكتاب بفساد القصد واتباع الهوى. تتداخل هذه الألفاظ بحسب السياق، ولا يلزم أن تكون درجات زمنية مرتبة ترتيبًا ثابتًا.

الشواهد المركزية: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، و﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، و﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146].

الفرق عما يقاربه: الزيغ يبرز حركة الميل، والإعراض يبرز الابتعاد عن موضع التذكير، والضلال أوسع في وصف مفارقة الهدى، والغي يكشف فساد الوجهة حين يصير الهوى قائدًا في مقابلة الرشد. وفي آية الصف نُسب الزيغ الأول إلى العباد، ثم جاءت الإزاغة جزاءً من الله.

موضعه في حركة الكتاب: يبدأ به الطريق المقابل، ثم تتفرع منه الموانع والعقوبات القلبية والعودة. انظر: المحور الخامس، الوحدات 18–23؛ والمحور السادس، الوحدتان 24 و25؛ والمحور السابع، الوحدة 26.

تنبيه منهجي: لا يوصف معين بأنه زائغ أو ضال أو من أهل الغي لمجرد مخالفته لرأينا، ولا تحمل آيات الوعيد على زلة عارضة تاب صاحبها. يفرق بين خطأ يحتاج بيانًا ومسار يقيم على رد الحق.

8. حجب الإدراك: العمى والوقر والصمم

المعنى في سياق الكتاب: العمى المذكور في باب الهداية عمى القلب عن رؤية الحق والاعتبار به، والوقر ثقل في السمع يمنع وصول المسموع إلى موضع الفقه والانتفاع، والصمم وصف لانغلاق السمع عن قبول النداء. تصف الألفاظ منافذ إدراك بلغها الحجاب، ولا تعني غياب الصوت أو الصورة الحسية وحدهما.

الشواهد المركزية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، و﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، و﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

الفرق عما يقاربه: العمى في جهة الرؤية القلبية، والوقر والصمم في جهة السماع؛ وقد يقرأ الإنسان النص ويسمعه، ثم لا يبلغ موضع الحكم من قلبه. وهذه أوصاف للحجاب بحسب السياق، وليست مراحل حتمية يمر بها كل مقصر.

موضعه في حركة الكتاب: يفسر اختلاف أثر الوحي بين قلبين، ويصف بعض نتائج الإعراض واستحكام الحجاب. انظر: المحور الثاني، الوحدتان 5 و6؛ والمحور الخامس، الوحدتان 18 و22؛ والمحور السادس، الوحدة 25.

تنبيه منهجي: لا يحكم على معين بأنه أعمى القلب أو أصم عن الحق، ولا يحمل نفي الفقه والسمع في هذه السياقات على فقد الإدراك العقلي والحسي مطلقًا؛ المقصود فقه الانتفاع وقبول الهدى.

9. أحوال القلب: المرض والران والقسوة

المعنى في سياق الكتاب: المرض خلل يصيب إدراك القلب وإرادته، ويختلف بحسب السياق؛ فقد يكون نفاقًا أو شهوةً أو شبهة. والران غطاء يتراكم على القلب بما يكسبه صاحبه، والقسوة صلابة تمنع اللين للذكر والخشوع للحق. وكلها أوصاف تبين أن الفعل المتكرر يعيد تشكيل القلب.

الشواهد المركزية: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، و﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، و﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43].

الفرق عما يقاربه: المرض يصف خللًا وظيفيًّا في القلب، والران يبرز التراكم الناتج عن الكسب، والقسوة تبرز ذهاب اللين والاستجابة. تتقارب آثارها ولا تذوب دلالاتها في لفظ واحد، ولا يلزم جعلها درجات مرتبة لا رجوع بعدها.

موضعه في حركة الكتاب: تكشف كيف ينتقل العمل الفاسد من واقعة خارجية إلى هيئة داخلية، وكيف تزيد المخالفة إذا حماها الإصرار. انظر: المحور الثاني، الوحدة 6؛ والمحور الخامس، الوحدتان 20 و22؛ والمحور السادس، الوحدة 25؛ والمحور السابع، الوحدة 26.

تنبيه منهجي: لا تتخذ الألفاظ جدولًا لتشخيص الناس، ولا ينفى إسلام كل من وصف القرآن قلبه بالمرض؛ فالسياقات مختلفة. كما لا يحول الخوف منها إلى وسواس؛ باب العلاج والتوبة باق ما دام العبد حيًّا.

10. الصرف والطبع والختم

المعنى في سياق الكتاب: الصرف تحويل القلب عن الانتفاع بالحق جزاءً على انصراف سابق، والطبع والختم يدلان في سياقاتهما على منع القلب من قبول الهدى ونفوذه إليه عقوبةً على الكفر أو النفاق أو الإعراض المستحكم. وهي أفعال لله تجري بعدل وحكمة، ولا تقع خارجةً عن علمه ومشيئته.

الشواهد المركزية: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: 127]، و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: 3]، و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7].

الفرق عما يقاربه: الصرف يبرز التحويل عن جهة الانتفاع، والطبع والختم يبرزان شدة المنع والإغلاق. هما متقاربان، لكن لا يلزم ترادفهما من كل وجه ولا ترتيبهما كسلم ثابت. الجامع في مواضع الكتاب أنها عقوبات تعقب موقفًا من العبد، لا ظلمًا يبدأ به من غير سبب.

موضعه في حركة الكتاب: يمثل ذروة سنة زيادة الزيغ بعد الإعراض والإصرار، ويعيد القارئ إلى ضرورة المبادرة قبل استحكام الحجاب. انظر: المحور السادس، الوحدتان 24 و25.

تنبيه منهجي: لا يقال لمعين إنه مطبوع أو مختوم على قلبه، ولا تستخدم هذه الآيات لإغلاق باب الدعوة أو الرجاء. هي خبر الله عن أحوال كشفها، والحكم على مصائر الأعيان إليه وحده.

11. التزيين والإملاء والاستدراج

المعنى في سياق الكتاب: التزيين تصوير القبيح في هيئة الحسن حتى يختل معيار الرؤية، والإملاء إمهال العبد وإطالة المدة، والاستدراج أخذ متدرج يأتي صاحبه من حيث لا يعلم، وقد يكون عبر نعم تتتابع مع الإصرار حتى يزداد غفلةً وأمنًا.

الشواهد المركزية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8]، و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 182-183].

الفرق عما يقاربه: التزيين يقع في المعيار والرؤية، والإملاء في الزمن والتأخير، والاستدراج في الحركة التي تقود إلى العاقبة على غفلة. قد يكون التزيين من الشيطان أو المضلين، وينسب إلى الله في سياقات الجزاء بحسب النص؛ فلا تجمع النسب المختلفة في تفسير سطحي واحد.

موضعه في حركة الكتاب: يبين كيف يستمر صاحب الطريق المخالف وهو يظن نفسه محسنًا، وكيف تعمل الدعوة الخارجية والنعمة والمهلة من غير أن تلغي مسؤوليته. انظر: المحور الخامس، الوحدات 19-23؛ والمحور السادس، الوحدة 25.

تنبيه منهجي: لا يحكم على كل من اتسعت عليه النعمة بأنه مستدرج، ولا تجعل المهلة دليل رضا، ولا يتخذ التزيين عذرًا يرفع مسؤولية من اختار واستجاب. العبرة بموافقة الوحي والشكر والتوبة، لا بمجرد السعة أو الشعور بالنجاح.

خلاصة الدليل

تنتظم هذه الألفاظ في حركة واحدة: هدى يأتي من الله، وصراط يبينه، ونور يكشفه، وقلب يُدعى إلى الاتباع والاستجابة، ثم رشد وفرقان وتثبيت يهبها الله لمن شاء من عباده. وفي الطريق المقابل يبدأ الإعراض أو الزيغ من موقف يختاره الإنسان، ثم قد يترك في الإدراك والقلب مرضًا ورانًا وقسوة، ويعاقب صاحبه بالصرف أو الطبع أو الختم، وقد يمتد به التزيين والإملاء والاستدراج. وبين الطريقين باب لا يغلقه الذنب العارض: تذكر يعيد البصر، وتوبة تصلح المخالفة، وإنابة تجدد الاتجاه، ودعاء يسأل الثبات حتى اللقاء.

هذا الدليل لا يمنح القارئ أداةً للحكم على بواطن الناس، وإنما يعينه على قراءة ألفاظ الوحي بدقة، ومراجعة موقعه من الطريق، والتمييز بين وصول البيان وقبوله، وبين الزلة التي ترد صاحبها إلى الله والمسار

الذي يحمي نفسه بالتبرير. وأول ثمرة للفروق أن يعود كل لفظ إلى سياقه، وأن يعود القارئ بكل سياق إلى عبوديته.

مصادر لغوية وتفسيرية للتوسع

يرجع عند توسيع البحث في الأصول اللغوية والفروق السياقية إلى: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، وجامع البيان للطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية، مع استقراء السياق القرآني الكامل لكل موضع. وهذه الإحالات للتوسع، أما التعريفات المثبتة هنا فمقصورة على الوظيفة التي تؤديها الألفاظ في بناء هذا الكتاب.

مركز الدراسات والبحوث | جامعة ابن كثير الدولية

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

سلسلة العلوم التطبيقية

سلسلة موازين القرآن

السلسلة الحالية

سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر